

رواية



ضربة جزاء

منشورات ANEP

رشيد بوجدرة

ضربة جزاء

رواية

ترجمة: مرزاق بقطاش

ANEP

ضربة جزاء

الكتاب: ضربة جزاء (رواية)

المؤلف: رشيد بوجدرة

المترجم: مرزاق بقطاش

الغلاف: بديعة ميدات

الناشر: **المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)**

28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر

الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213

الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213

e-mail: dcpa@anep.com.dz

الطبعة الأولى 1985

الطبعة الثانية 2002

ISBN: 9961-756-11-8
Dépôt - légal: 827-2002

منشورات ANEP

إقامة النجاح ـ 11، شارع الأخوة بوعدو

بئرمراد رائس ـ الجزائر

الهاتف: 58 95 44 21 213

الفاكس: 65 95 44 21 213

1

تولوز: صفر ـ أنجي: صفر

كان الرجل الأول على علم بأن له موعداً في محطة «الأوديون»، غير أن المغسل ظل بسجمه الصغير، ومربعاته الخزفية الباهتة المتقشرة التي بدت وكأنها مطلية بصبغة شاحبة، وقد انتشرت عليها، هنا وهناك، بقع من الصديد مثل بثور تصادف وأن نبتت فوق لحيته الخفيفة التي لم يتمكن من حلقها لشدة ما كان واقعاً تحت وطأة العمل ومشدوداً بكامل روحه إلى ذلك الموعد الذي ما انفك يقرع دماغه طيلة يومين كاملين.

حقاً: المغسل هو الذي ظل آخذاً بتلابيبه، فهو على عماه، وخلوه من أية مرآة، يبدو مشروحاً، متبقعاً بلونه الباهت الذي يبلغ، في أماكن منه، حد النفاذ عبر صفحته المصقولة مثلما يشاهد الإنسان ذلك في مثل هذا النوع من الفندق الموبوء الذي تتخلله فتحات تعدو في جميع اتجاهات السقف وترشح على طول الجدران كأنما هي جداول دم تتشابك في دوامة من العقد المخضرة المفضية إلى بطنه الزنخ الزلق، المليء بالرغوة، لا برغوة الصابون

التي يضطر إلى تناولها بعد حين بيسراه بينما تقبض يمناه الفرشاة المنفوشة التي تنفرط شعيراتها كلما أمعن في وضع الرغوة على خديه، وتأتي لتختلط بلحيته البالغة الشقرة. تعين عليه أن يحلق وجهه بطريقة عشوائية أمام هذا المغسل العفن الذي ظل يستحوذ عليه إلى حدّ تلك اللحظة. ألا ما أشد يتم هذا المغسل الخالي من كل مرآة، من أية مساحة أخرى ملساء كفيلة بأن تعكس صورة وجهه الجميل، بقسماته الرقيقة التي تضاهي قسمات أية امرأة؛ لا سيما وأن أهدابه طويلة جداً، بالغة التقوس، هفهافة مثل حرير متقطع وضعت فوق كل واحدة من عينيه لكي تخفي تلك الخضرة البحرية في حدقتيه حيث تتساقط أشواك مختومة، تمنحه عقداً نفسية واسماً مستعاراً مما يؤدي بنسوة المدينة كلهن إلى أن يشغفن كل الشغف لا بعينيه الرقيقتين فحسب بل وبانتظام قسماته وخصلة الشعر الأشقر المتدلية باستمرار على جبهته، وفكيه القويين المنداحين في جسده المطواع العنيف الذي يبعث أصحابه أنفسهم على الحيرة والذهول.

حقاً، لقد وقع في روعهم زمناً طويلاً أنه قواد يعمل في الخفاء، وشديد الفعالية، بل ذهب بهم الظن إلى أنه يحظى برعاية الآلاف من النسوة الثريات اللائي يدفعن له أموالاً عينية يخفينها، على مدار الأيام، في لباد مطرحه الندي المسحوق المخطط بمسارات البق. وبمجرد ما كان الزمن ينساب ضمن تقاطيع متكيفة في معصمه حيث يتزامن نبضه مع ساعته التي تقطر الثواني تقطيراً، يحس أنه محاصر بتلك

القطعة الحديدية الصغيرة المحدبة المنطرحة كيفما اتفق على شفير الهاوية والبؤس اللذين يعفنان أوصاله. إنه يوم الأحد، وقد وجب عليه مع ذلك أن يقوم، أن يقفز إلى المغسل وأن يرغون الصابون بفورة الخوف حتى وإن انتفشت شعيرات الفرشاة مرة ثانية. عليه أن يحلق لحيته مستفيداً من أشعة الشمس، وأن ينظر إلى الموسى تشطب وجهه المرغون، بفضل الانعكاسات الواقعة على الزجاج الزنخ من كوة هذه الغرفة المخصصة للخادمات والتي لا يكاد سقفها يعلو فوق رأسه كثيراً.

إنه لا يجهل بأن له موعداً في محطة الأوديون على الساعة التاسعة بالضبط. أمامه ساعتان كاملتان، غير أن المربعات الخزفية المبهمة تمغنط نظراته على الرغم من أنه برز من النوم بروزاً منذ بضع لحظات فقط، وظل مشدوهاً هناك، في تلك الفتحة من الفضاء حيث راح شعاع من الشمس ينهش الأرضية المتعفنة ذات العارضات المتباعدة. لم يدر ما إذا كانت به رغبة في التبول داخل المغسل أو التقيؤ فيه. وفي انتظار أن يقر قراره على شيء، ظل مستلقياً، يتأمل آثار مرآة كانت فيما مضى معلقة فوق المغسل، وقد التصقت صفرة هي أشبه بصفرة المح على ورق الجدار، فازداد غرقاً في رعبه لا سيما وأنه عزل نفسه عن العالم، وراح يصرف وقته في انتظار مواعيده بمحطات المترو في ساعات الزحمة إلى أن يبادر إليه رجل أنيق، نفس الرجل دائماً وأبداً، ويسر إليه بكلمات مقتضبة، دون

أن يتوقف أحدهما عن المشي، ودون أن تسنح له الفرصة لكي يحدق في وجهه أو يتلقى منه نظرة متواطئة أو يمد له يد التضامن والتعاون. صوت. وشوشة. بضع ثوانٍ. تنظر إليه النسوة فيتجنب عيونهن، الأوامر واضحة. منذ سنة، صاح فيه صوت، عبر التلفون، ذات يوم شتوي: «أنت وسيم جداً، ولهذا وقع الاختيار عليك». لا مجال للمناقشة، سرعان ما أقفل الخط دونه. وظل واقفاً هناك، في تلك الكابينة التلفونية الموضوعة على طرف الرصيف بمحطة ضاحية خالية، ينهشها الجذام الشتوي. كان منتشياً بل وفي ذروة الانخطاف. لن يعيش بعدها في الحرير ولا بين بشرات النسوة الرقيقات. غمرته فرحة يشوبها الخوف فتسمر على أرضية الكابينة. وجيب السماعة في يده الراشحة على الرغم من تراكم البرد في شكل طبقات مجوفة، غير أن رنين الجهاز أعاده الى رشده فجعل يفرز الأصوات المختلطة التي تتطفل على الصفير المتقطع الصادر عن السماعة، ويفك شفراتها دون أن يعرف كيف يموضعها حق الموضعة وفرح أشد الفرح لأنه صار ينطوي على قدر، ثم إن دمدمة التاريخ التي تجاهلها إلى ذلك الحين وأبقاها على مسافة محترمة، قد غزت جملة أعصابه وموجتها في شكل تضاعيف على حدود التجريد. لن يقدر له أن يعيش في الحرير بعد الآن، ولا في الصوف ولا في الطافطة. ضحكات النسوة الغريرات اللائي عرفهن ترن الآن عبر

ضباب قطني تتخلله صور شبقية تتراكم الواحدة منها فوق الأخرى، داخل ذاكرته، فوق ميكانيكا بلورية حادة لا تنبعث إلا من المطاعم الفخمة حيث ترن الشوكات والسكاكين والأكواب البلورية، وتخشخش المناشف الطويلة المتثنية، وتتصادم الصحون لإغراق الزبائن في طمأنينتهم الدافئة المتكلفة، وحيث تعبق روائح السخانات المخصصة لإنضاج الفطائر والموز... ظل هناك. نط قلبه مثل كرة التنس حين تطقطق في الملاعب الدولية التي يختلف إليها مع الفتيات اللائي... وتتابعت الصور بشكل متموج (أتراها تموجات الرغبة المقولبة المحدبة بمئات الأجساد الأنثوية؟) لكنه كان قد ركب قطاراً آخر. وترتسم على بشرته المتروكة للبق، آثار النهود العارية المنتفخة بنسغ الفتيات اللواتي ما كدن يدركن سن البلوغ حتى جعلن يقلدن نماذج اللوحات الإيطالية، (ما أشد مايئس في المتاحف!) بأنوف دقيقة طويلة تنفجر عظمتها خارج اللوحة، وشفاه غليظة تبلغ حد الشفافية، وحواجب هي عبارة عن خطوط دقيقة، وعيون خجولة على أطراف الأهداب المثقلة بالخلاعة، ومآقي ملموسة لمساً بقلم الفحم الذي يهشم لعبة الضوء والظل ويمحو كل طواعية في غير محلها، وخصور مقدودة بألوان تتدرج من نفس اللون الرمادي وبفضل سواد الحبر، وجروح فاغرة بين الفخذين تلتوي كيفما اتفق وينتثر الزغب بين تعاريجها وانعطافاتها..

على أن هذا الخليط من الذكريات والصور المباشرة يثقب صدغيه في وقت يهزه مصيره هزاً ويتقاذف في ذهنه المقهور بخشونة ذلك الصوت المجهول. الآن. وتتراكم هذه الصور كيفما اتفق بعد أن علم علم اليقين أنه لن يواصل العيش في أحضان النسوة ووسط فخفخة الصالونات، ثم تتصفح نفس الصور على ذاكرته وتنساب في عروقه وتحت بشرته حتى أن الهواء البارد في الكابينة التلفونية يصير ندياً، ولا يتدفأ بفعل الانخطاف والفرحة فحسب بل وبسبب الفائض من الشبق الذي تقاطر من أعماقه المزفتة إلى أن حل بباريس. وتجمد منذ ذلك الحين في حياته المصطنعة، اصطناعاً كقواد من القوادين إلى يوم أن دخل تلك الكابينة التلفونية المنصوبة في ضاحية شاحبة وسمع ذلك الصوت الموجز الذي كشط عنه التفاهة التي اختزنها لكأنما أراد بذلك أن ينتقم للمصير المخصص للآخرين، أي لبني جلدته. . رنين التلفون المتكرر المتقطع لا يتوقف. السماعة تتدلى من ذراعه الذي ينتهي به الأمر إلى أن يتخدر ويدفعه إلى تدارك نفسه. قوس مفتوح، قوس آخر يغلق. لكنه حين غادر الكابينة، راح الرنين يتواصل في ذهنه صخاباً مليئاً بالصور، ويسلسل ذهنه بانطباعات موجزة مكثفة. وعلى الرغم من تخلخل تلك الجعجعة الشديدة، فإن نفس الرنين يبرز عبر صفاقة الأيام التي تتخللها حركات تكشط يديه بحموضة محرقة بعد أن اتضح له أن مصيراً معيناً قد نبت

بين رئتيه. كان على علم بأن له موعداً في محطة الأوديون. أهي الرغبة في التقيؤ أم الرغبة في التبول؟

أما الرجل الثاني، فما كان يعرف ما الفرح. وما كان له اسم أيضاً. يظهر ثم يختفي. في الوقت المناسب. وما كان يحمل اسماً مستعاراً. لا شيء من هذا القبيل. ولا ظل له. وما كان يتحدث، شخص مقماق، لذلك تعين عليه أن يقرأ الكلمات على شفتيه دون أن يحاول النظر إلى وجهه المعتم. لم يكن جميلاً ولا بشعاً. وجه عادي. بذلاته عادية هي الأخرى. يختلط برمادية المدينة وحيطانها المجذومة وسماواتها الرصاصية، إلا أنه ما كان يضع ربطة العنق نفسها. لون الربطة يتغير لكنها تظل من الحرير دائماً وأبداً. لعل تجهمه ذاك عائد إلى السل الذي ينهش عظامه المحشوة بصوف الموت، تلك الصوف التي تلف البطاطس المتعفنة لطول ما أغلق عليها في المستودعات الفاترة الحامضة. إنه يعرف المترو أحسن مما يعرف ما في جيبه المكتظ بعدد من علب السجائر، وعلب الدخان اليدوي، والأكياس البلاستيكية التي تحتوي على النيكوتين المعطر الوارد من أمستردام، وعلب النشوق الأسود، والولاعات ذوات الفتائل، والولاعات ذوات الكريات، وعلب الكبريت بغطاءاتها الفضية الملأى بالإشهارات، وحجيرات الفحم، وقطع القطن المشربة ببنزين البرافين، وحطام الكوارتز، وإبر «الميكا» الصغيرة، والعدة التي يحملها في العادة كل مدخن مدمن. لكنه ما كان يدخن أبداً. فيما مضى كان يختزن في

رئتيه دخان علبتين من سجائر «الباستوس» خلال اليوم الواحد. أقلع عن ذلك الآن، وكف عن المزاح. بل صار يتحدى نفسه باستمرار، ويتحرش بها. كل هذا التبغ الذي ينفخ جيوبه الآن لم يعد يصلح إلا لاختباره هو.

كان يغير ربطة العنق كل يوم. وكانت أوراقه التعريفية مضبوطة، ولكن ليس بما فيه الكفاية، لكي لا يثير الشكوك. ثم هذا المترو! زواياه وخفاياه. فروعه المعروفة والمموهة. قماماته المرقمة المصنفة. دهاليزه وتعاريجه. خطوطه وارتباطاته. إعلاناته ومنشوراته. مرائبه وارتباطاته. كابيناته ودورات مياهه. دكاكينه ومراقب الحراسة. شبابيكه وملاجيء ماسحي الأحذية. مستودعاته وخرداواته. ساعاته الفارغة وساعات الازدحام. وتيرة خفقانه ونبضاته. أروقته ومضائقه. خشخشة ماسحيه وجعجعة قاطراته. نساؤه العصبيات ورجاله الشاحبون. أصواته المختلطة وحدته. سكاراه وصعاليكه. صرير أبوابه وطقطقة عجلاته المدوخة. دورانه وطفيلياته. حموضته ومائيته. حماماته البخارية، وحمامات الزحام. جوه الكريه وحركاته الكسلى. عاداته وتقاليده. فخاخه ومقالبه. روائحه وعفنه. تحركه وجموده. دوخته وتفاهته. ثم عودة أخرى إليه وخاصة إلى: أبوابه ومخارجه، فتحاته المموهة ومخارجه الحقيقية. يا لهذا الجرد الذي لا يرحم! نفس الأمر ينطبق على محتويات جيوبه التي لا تتغير أبداً: تبغ من كل نوع، علب كبريت مختلفة الأشكال والأحجام. أما جيوبه الداخلية اليسرى

فتنطوي على أوراقه التعريفية ووصل الأجرة الشهرية وبطاقة الضمان الاجتماعي بالإضافة إلى ورقة الألف فرنك التي يتطلبها القانون بالضرورة. في حين أن جيوبه اليمنى تضم مخطط المترو، هذه الوثيقة الجوهرية التي تفصح عن تشعباته وتضبط حياته بكل دقة. إنه يحفظ خطوط المترو كلها عن ظهر قلب، يتخيلها وهي تمتطي الواحدة منها ظهر الأخرى بألوانها السوداء والحمراء والصفراء والزرقاء والحمراء (مرة ثانية) والخضراء والمخضرة والممطرة والمشطوبة والمتليفة والمتقاطعة والمتداخلة والمتفتحة والمنقطة والمتقطعة والمجزأة والمستقيمة والفحمية والمتعرجة والمتكسرة والمدورة والمعقودة والمقولبة والمربعة والمستطيلة والمنحنية والمدببة والعنيدة... لكنها تتوقف دائماً وأبداً على شفير هوة لا مرئية يحتدم فيها اضطراب عنيف سرعان ما يواكبه بعض الارتخاء الذي يقضي تلقائياً على كل نزوع إلى ضبط مثل هذه المادة، علماً بأن اضطراب هذه المادة بالذات هو القاعدة التي يستند إليها من أجل التدقيق في شؤون حياته والأخذ بأسباب الصرامة.

إنه الوحيد الذي يعرف مآزق المترو وتجويفاته وأطرافه وجدرانه الراشحة بعرق البشر المتمعشين المتنقلين دون كلل أو ملل بسبب وقوعهم تحت وطأة الحراك الذي لا يرحم. ثم إنه يتنقل هادئاً بوجهه الرمادي الشاحب، وبربطة العنق الحريرية البارزة، وبجيوبه المكتظة بالتبغ وبالأوراق التعريفية

وما ذلك إلا لأنه يعرف كيف يتصرف عندما يحين الحين للعثور على قلب هذا الانسياح الجارف الذي يكشف عن مدى التجويف الحيوي في إحساسه بالصرامة وبنزوعه الجامح إلى تأدية مهمته بطريقة بالغة الدقة. كل شيء يتأرجح على غرار ذاكرته حيث الأسماء المعوجة والأوراق المزورة والعناوين المشوهة والمسالك الخاطئة والمسارات التائهة والخطوات المضعضعة والتذاكر المدلسة توجد مرتبة ضمن خانات مختلفة عن بعضها البعض، نطاطة، مطواعة، يستطيع العثور عليها وإحصاءها وتقنينها بكل يسر ودون إضاعة للوقت أو إغراق في الحساسية، حتى وإن تحتم عليه في سبيل ذلك أن يقطع تعاريج الزمن في جميع اتجاهاتها بل وحتى وإن أخطأ أو فشل فشلاً ذريعاً في أداء مهمته. ذلك أن الأحداث تتسارع وأفراد فرقته، وهم سبعة أشخاص، قد يغرقون في الجنون فجأة ويسقطون تحت طائلة الرعب ويحجرون على أنفسهم ويتزلقون في مصادفات الواقع، لأنه في هذه اللحظة بالذات، يجد الوسيلة لتمالك نفسه أمام تخلخل التاريخ وسرابيته وبريقه، هذا التاريخ الذي تحول إلى مرآة تلتصق القبرات على صفحتها المخادعة. يقوم على الرابعة صباحاً، ويغفي على الواحدة ليلاً. ثلاث ساعات من النوم، إنها عملية حسابية، ما سبق له قط أن رأى ساعة منبهة. يعمل على تنظيم صفوف مؤقتة. وعلى الرغم من أنه موضوع على الهامش منذ زمن بعيد، فقد رغب دائماً وأبداً في أن يبرهن للأجانب على أن

منهجه ذو صرامة لا ترحم، بل إنه يتمنى أن يعمدوا إلى التهوين من شأنه حتى ينصب لهم فخاخاً رهيبة تدفعهم، بلا رجعة، إلى موتهم المحتوم المؤكد عبر شبكات واسعة من آلة جهنمية يقوم بضبطها في اللحظات الأخيرة. ويقوى هذا الشعور في نفسه لا سيما وأن وراءه هذا العدد من الأشباح المطحونة التي تجرجر أنفسها، مشاكسة، تحت وطأة النعاس، وتتابع بحذر فطري، ويتقلمها في غالب الأحيان عدد من أولئك السذج الذين لم ينالوا حظوة التميز عن غيرهم فحسب، بل راحوا يتمخطون في زرقة السماء الصافية، والغاية من ذلك كله هي أن تصير هذه الكتلة من البشر، وهذه الجماعات من العمال قادرة على أن تنطلق نحو المصانع لكي تقوى على البقاء وعلى دفع الاشتراكات آخذة في ذلك بالنظام المتبع في كل تنظيم ثوري. لقد وجب تهديد البعض منهم في البداية، وإيقافهم قبالة جدران الفنادق المجذومة، وإطلاق النار في الهواء لتخويفهم. بل إنه تحتم في بعض الأحيان ضرب مثال من الأمثلة، فأطلق الرصاص ضد الخونة. كانت المنظمة تعمل دائماً على إعادة الجثة إلى الوطن، غير أن الجماهير أدركت الأمر عن غريزة. فلم تعد لها أية علاقة بمتسقطي الأخبار!. كان الناس يذهبون إلى أعمالهم بروح جديدة، يقومون عند الفجر لكي يشقوا طريقهم، ويرسلون سعالاً من شأنه أن يفتح فجوات في رئاتهم الشفافة التي ترقعها، بين الفينة والأخرى، أيادٍ لا حنان لها، ولا تكاد تدرك ذلك اليأس

الداحر الذي تهلهله روائح النعناع والكسبر والأفخاذ وغيرها من القذارات المنبعثة من صلب الأفراس المخضبة بالمسك والحناء، والمطلة على شارع «شاربونيير» حيث يرتسم الوشم تحت السرة، ويدفع المحارب إلى تحويل مساره صوب هذا العرين الدافىء الذي تتراكم فيه أحزان العالم جميعاً.

يظل يقظاً طوال إحدى وعشرين ساعة في اليوم الواحد. ولا يسمح لأحد أبداً أن يتلاعب بالساعات الثلاث التي يقضيها نائماً، ولهذا السبب تراه متوفزاً، مجعجعاً، أرقاً، صارماً. لا يعرف السرور سبيلاً إلى نفسه. يصل إلى المكان المقصود دون سابق إنذار، ويتحدى نفسه بأن يحمل معه كمية من التبغ دون أن يعمد إلى تدخين لفافة واحدة أو تستبد به الرغبة إلى الإقدام على ذلك. إنه رئيس فرع، يعطي الأوامر، ويسهر على ما يقرب من ثلاثين فرقة من فرق الفدائيين الموزعين أحسن التوزيع على باريس.

أما الرجل الثالث فما عليه إلا أن ينفذ تلك الأوامر. إنه رئيس المجموعة الفدائية المتألفة من ستة أفراد. كان على موعد معهم، كل واحد منهم قابع بالمرصاد في محطة المترو، كان على الأول أن ينتظر في محطة الأوديون والثاني في موبير ميتيالتي والثالث في مابيون، والرابع في سيفر بابلون، والخامس في ڤانو والسادس في ديروك. إنه يوم الأحد 26 ماي، والساعة تشير إلى الواحدة.

الطقس مشمس، والجو معتدل لا يتجاوز 25 درجة،

الريح قوية، والمدينة خالية، والطرقات أيضاً. حاول الشخص الآخر بلوغ المغسل غير أن الغرفة جعلت تتمايل مثل كابينة باخرة عتيقة. الرجل الأول لا يزال يذكر ذلك الصوت المجهول الذي جاءه عبر التليفون: «لأنك وسيم جداً!» لا توجد أمامه أية مرآة لكي يتحقق من ذلك، لكنه يعلم أنه أزرق أو رمادي أو أخضر. مغص شديد يلوي أمعاءه ويخيط أهدابه ويجعله يعتقد أنها منفوخة حقاً كأنما تلقى الليلة الفائتة لكمات من زوج غيور. كلا، الأمر غير ذلك ولا شك. لقد انقضى عليه وقت طويل لم يستنشق خلاله بشرة امرأة حريرية. في المغسل ماء ثقيل مثل الزئبق يقطر من الحنفية، ويخطط بصفرته الناصلة ذلك الخزف الأبيض المتهالك. تردد بعض الشيء وقد سيطرت عليه بعض الحمى، وتاه ذهنه في تعريجات متعثرة، إنه يحذر مثل هذه الاستطرادات. لعله الساعة تشير إلى التاسعة بمحطة الأوديون. كلا، لم يكن يتمعش بالنسوة، وهو إلى جانب ذلك، قد مسح من ذاكرته تعابير المجاملة والحنان كلها. وعمل على أن يصير جلفاً مثل الآخرين، وإن ظل معتنياً بوسامته. إنه يعلم أن المنظمة اختارته لهذا السبب، ومن ثم فقد انكفأ نوعاً ما على نفسه، وتعود لسانه التعثر بالكلمات اليومية العادية. لقد كف عن اللعب المزدوج وقطع علاقاته بمعارفه السابقة، وسكن ضاحية أخرى. وهكذا تلقى الأمر بالإغراق في اللبس إلى أقصى الحدود.

المهم في الأمر هو ألا يخون وأن ينفذ الأوامر كيفما كانت.

النقاش ليس ممكناً في هذا المجال، لذلك حاول أن يتقوقع حول ذاته فسقط في نوع من التجريدية المنغلقة على نفسها. وراح يذهب كل يوم إلى عمله، ويحاول وضع إصبعه على الرموز الغالبة وعلى الجعجعات المختلفة، لكنه شعر بنفسه واقعاً تحت طائلة الحجز. لم يستطع أن ينام ليلته تلك. المغسل المتهالك لا يزال مستحوذاً عليه. إما أن يقوم وإما أن يسلم نفسه للموت.

حين تتجاوز الساعة التاسعة لا يصير مالكاً لأمره. حينئذ يدرك حدود الالتباس المغبش والصخب الطفيلي الراشح من الأخاديد الزرقاء التي يخططها الخوف على بشرته. أدرك فعلاً أنه يصعب عليه التخلص من عاداته. عام كامل من العمل في صلب المنظمة لكنه ما كان كافياً للقضاء على تلك العادات. كثيراً ما انهمك في تخيل الحركات التي ينبغي عليه أن يقوم بها. ووضع حدوداً صارمة لهياكل المدينة، لكن ما أسرع أن يستبد به الملل ويقرر تشطيبها لكي يترك نوعاً من الصقيع ينغرس تحت عروقه. أراد أن يشعل سيجارة، لكنه رفض الإذعان لتلك الرغبة. لديه تبغ من مختلف الأنواع، على كل فرد من الأفراد المدخنين في فرقته أن يفرض هذا النظام على نفسه، عليه أن يمتلك لفافات في متناول اليد لكن دون أن ينصاع للرغبة أبداً. ظلت رئتاه باردتين، يشوبهما نوع من الغثيان، ومع ذلك

فإن القلق يحفز حاجته إلى أن يعب من الدخان المحرق، لقد صارت الحمى تراوده على الأيام. وكان يعود إلى المدينة محاولاً تحديد طوبوغرافيتها، عمله هذا يمثل جزءاً من تمارينه الذهنية؛ انه يعرف المدينة أحسن من الشرطة ومن سائقي التاكسي. أحجام ملونة بالصوديوم أرجعته إلى الضاحية، عليه أن يقوم الآن، ويحلق لحيته، ويرتدي بذلة أنيقة ويذهب إلى موعده. الجو الكريه في هذه الغرفة يختلط ببخار الصباح. يقول لنفسه بأن أمامه متسعاً من الوقت. ساعة معصمه تشير إلى السابعة والنصف. كلمات الاعتذار تترجرج في دماغه غير أن انسياب الخوف في عروقه أقوى منها بكثير. رائحة اليود والملح الندي تنتشر في كل مكان، (بلده وراء البحر، ومدائنه مضطربة، يموت بها الناس كل يوم. إنه يعرف ذلك حق المعرفة مع أنه لم يعد يتلقى أية رسالة من عائلته) الصباح عبارة عن شحنة متفجرة تفتح فيها نوبات السعال فجوات في فمه. لن يدخن سيجارة واحدة، ولن تدور بخلده فكرة التخلي عن موعده المقرر. كلا، لن يحدث شيء من هذا القبيل أبداً! هو ذا يقوم وينضو ثيابه عنه ويتبول عارياً في المغسل، يشعر أنه تخلص من عبء ثقيل، لكن الغثيان لا يزال ينتابه، غير أن قضيبه يتصلب فيأخذه بين أصابعه. يظل في مكانه، زائغ النظرات، كأن جسد امرأة شهية في متناول يده. ويزداد ضغطه عليه، لا ليتحكم في شبقه، فما به أي نزوع جنسي، غير أن هذا الانتصاب فاجأه وهو يقفز من مضجعه الدبق

الراشح بالروائح الكريهة، المبلل بعرق الأحلام البشعة والأجساد التي نامت عليه أو تصنعت النوم عليه، أو مارست الحب فيه أو العادة السرية... لكأنما هناك في متناول يده امرأة معطرة البشرة، لا ينتشر عليها أي زغب، تتمدد بعشق، وتطفح بالإغراء. لكأنما جسدها بلد، بل قارة من الأحزان المتسعة أبداً، ذات بشرة متينة، تزدحم عليها الخانات، وتتنمل فوقها، تشكل نسيجاً، أو على الأصح، صفحة منسوجة متدرجة الألوان، تترابط فيما بينها بدوائر مركزة، وتتناثر في اتجاه العرض، معتمدة على ذلك الإبهام المجنن الذي يتركه غارقاً في عرقه، وقد استبدت بقضيبه فورة عارمة تذبذب أهدابه برؤى تسلسل جو الغرفة الصفيق. وسرعان ما يقع في روعه أنه مهدد بالغرق من جراء عمل فردي يقرف منه، في حين يتراكم في دماغه صخب متميز يصدر عن عارضات المترو حيث أودع بين القمامات العديد من الأسلحة التي سوف يتكفل رفقة السلاح بالتقاطها وإخفائها وسط الصحف الرياضية... سكك العربات والقاطرات تتتالى في ذهنه المطل على دنيا الفساد، وصرير موقع على وتائر قطارات تهشم الفضاء والمقاييس الهندسية، وأصوات جوفية يقولبها الخوف، وتنهدات مغرية راودت أحلامه أو بلغته من أعماق الأفلام الرديئة، ومقاطع من جمل مطحونة إلخ... لكنه يظل في مكانه، واقفاً وجهاً لوجه مع المغسل، قضيبه متصلب بين أصابعه، يقول لنفسه: «إنه الخوف... إنها المرة الأولى التي سأقتل فيها

إنساناً... إنه الخوف ليس إلا... كان الأمر هيناً عندما تكفلت بدور الوسيط ونقل السلاح، ولكن الآن!.. إنه الخوف بكل تأكيد..» ويخيل إليه أن على صفحة ذهنه قماشاً خشناً يتقطع ويخدش بشرته، إنها غطرسة الحيرة والدم، الرغبة.. والرعب.. صراخه الداخلي يحمل في طواياه آثار الموت والربو، بين التجاعيد والعروق. (الأزقة ضيقة في هذه المدينة ذات التعاريج كأنما هي رواسب من روائح التاريخ العفنة. الأبواب زرقاء وخضراء، والنوافذ مسيجة بالحديد المصبوب والنسوة لا يكدن يبلغن شأواً بعيداً بأجسادهن، لكأن الفسيفساء تغطيهن، على أن هناك دلائل عن حبه الأول في بيت عمه الذي كان يشرف على حسابات والده، صاحب أكبر مقهى في هذه المدينة الصاعدة أبداً النازلة أبداً من أعلى الميناء إلى الحيطان البيضاء حيث تنطرح ظلال أكبر سجن في البلد. إنه ذلك السجن الذي بناه الأتراك ثم استولى عليه الفرنسيون وزينوا ساحته بمقصلة رائعة ما انفكت تعمل دون توقف) عندما تتوقف دواليب ذاكرته، يجيء الحلم فيفككها. حصل على بكالوريا الرياضيات في سن الرابعة عشرة. كان قوياً في الرياضيات وفي المجابهات الكلامية، يخطف جميع الفتيات الأوروبيات اللائي يقعن في هواه إلى أن يعلمن أنه لا يسمى جوزيف بل يوسف.. فاجأته نوبة من الضحك الهستيري، فتساءل لماذا عبر البحر ليقف فوق مغسل من المغاسل متصلب العود بين اليدين، مستفسراً ما إذا كان لن

يحجم عن الذهاب إلى موعده في الساعة التاسعة في حين أن أجراس كنيسة «سان سيفرين» تشير إلى الثامنة.

لقد دخل التاريخ، وهو يعلم حق العلم أنه عبارة عن لوح مملوء بالحبر والدم. صوت الشخص الآخر يصله من طرف الخط التليفوني إلى هذه الكابينة المتجمدة: «لقد اخترناك لأنك وسيم جداً..» انتهى المقطع، وتخلف في لسانه نوع من المذاق الحديدي، لقد فقدت جميع المراجيف توازنها منذ وقوع الزلزال، ولم يعد في حاجة إلى أن ينتظر إغلاق الحانات كلها لكي يشرع في الفضاء قلوع السكر والنشوة. غمره السرور في الكابينة التليفونية حيث كان يرتعش بسبب الحموضة المتولدة عن الانتظار.. لن تتأخر الأوامر في الوصول.. كان عليه في المرة الأولى أن يتسلم مسدساً في مقهى بحي «باريس» ويودعه في صندوق القمامة بمحطة «بير حاكم». ضحك من هذه المفارقة. إنه اسم عربي! وأراد أن يعرف أين يوجد. فعلم أنه في قلب الصحراء بين ليبيا ومصر.

زخم العفونة قضى على انتصاب عوده اللهم إلا أن يكون اسم «بير حاكم» الذي عاوده هو الذي هدأ فورانه. بل لعله ماء الحنفية البارد الذي تركه يصب على عضوه المنتصب نحو السقف. يا لهذا السقف الذي تتقشر في أرجائه مختلف طبقات الطلاء ويظل البعض منها متدلياً، مطلقاً رائحة كريهة من الجبس المتفتت والقذارة اللزجة. وقد يكون فتوره ذاك راجعاً إلى تأثير العمليات الثلاث

المتزامنة، استبد به الدوار ثانية لكن ذلك لم يمنعه من أن يلتقط خلال هذا الصباح الهادىء المشمس الأجرد أصوات نزلاء هذا الفندق الذي يتعاطف صاحبه مع المنظمة. إنها خليط من الأغنيات ومن الكلمات المهموسة والجمل المتقاطعة المبتورة، بل هي نوع من الخطب التي تلقى في التجمعات، بكلمات موقعة، لكن بصوت خفيض في مثل هذه الأحوال حتى لا تستثار الشرطة ومتسقطو الأخبار. شرع يحلق لحيته بحذر، مراعياً ألا يجرح خده كأنما هو يحلق لحية شخص آخر بسبب انعدام المرآة ولأن الزجاج نفسه ليس قادراً على أن يعكس وجهه على صفحته من شدة وساخته. وتجنب حين مرر الموسى على الرغوة التي صبغ بها خديه ألا يقع تحت وطأة شياطين الجبن والخوف، لكن التفكير في احتمال انزلاقه في تعاريج التفاهة لم يغادره، بل ظل مستبداً به. ذلك أن الانتظار ـ لأنه لم يكن قد اتخذ قراره بعد ـ أرغمه على التشبث بأية فكرة من شأنها أن تبعده عن قلقه بالذات، ومع ذلك ظل مقتنعاً بأن وجهه بتقاسيمه الرقيقة لا يفقد تفاهته الرجولية التي تهواها النسوة، ولا ينطوي على بعض النبل إلا عندما تنعقد أمعاؤه ويحطم ذاته بالإغراق في الخوف من نفسه ومما هو قادر على الاضطلاع به. ذلكم هو سلوكه مع النسوة قبل أن يتلقى تلك المكالمة الهاتفية التي تمناها بحرارة وتسبب فيها بكل هدوء. لقد كانت له تصرفات سادية مع البنات اللائي عشقنه لأنه استنفد وسائله كلها في محاولته دائماً وأبداً،

إيجاد مسافة بين الرغبة وبين موضوع رغبته. وقرر أن يفعل نفس الشيء مع المهمة التي يتعين عليه أن يقوم بها حتى وإن كان لا يعرف عنها أدنى شيء، على أن الشعور يراوده بأنهم يطلبون منه مجابهة الموت، موته هو بالذات وموت من قد يكون هدفاً من أهدافه.

وصل قبل خمس دقائق من الموعد المحدد له في محطة الأوديون، الجو دافىء بها والهواء فيما حواليها رطب ندي كأنما هو مضبب مغبر. الرطوبة والرخاوة في كل مكان. لم يعد خائفاً غير أن مجموع الأشياء المحيطة به ترشح عفناً وتغرق على الرغم منها في عتمة مصطنعة ترعب الأعين، لأن كل شيء يتداخل ويتشابك حول محور عائم هنا وهناك، لا يعرف سبيلاً إلى الثبات أبداً. كل ذلك يوحي باضطراب هائل يقضي على هذا الخليط التافه المتشعب في الفضاء الذي يشرخه ويمفصله ويجزئه في نوع من غليان المادة، لا سيما وأن الجو حار والهواء طلق (باريس 26 ماي 1957، الجو دافىء، والحرارة عند الزوال تبلغ 25 درجة مئوية. عدد الساعات المشمسة 12) الرطوبة تنداح بصورة عمودية، وخيوط المصابيح تلتوي على هواها. قبل أن ينزلق إلى النفق، لاحظ أن الأشجار تفرعت، وازدادت أغصانها أكثر مما كانت عليه وتثاقلت بذلك النسغ الطافح الذي يندفع في جميع الاتجاهات وعبر العروق الباطنية، ويتفجر هنا وهناك في صورة فتحات جوفية تنسج مسالكها على طول الأغصان المثقلة بمطر الليلة الفائتة وبشمس اليوم

المبكرة، ذلك أن الشمس طلعت على الساعة الرابعة واثنتين وعشرين دقيقة. في مسقط رأسه يحدث نفس الشيء. تذكر أغصان التوت التي تلامس بل تخدش نافذة الغرفة التي خصصت له مؤقتاً، وأفرغت من أشقائه وشقيقاته لكي يستعد لامتحانات البكالوريا في هدوء كامل... أحس حينذاك أنه موجود فعلاً، خاصة أثناء العشيات الطويلة عندما يذاكر دروسه إلى وقت متأخر من الليل، قبالة هذه الخضرة الحانئة التي تنسرب إلى غرفته بفروعها المورقة وتداعب وجهه، مما يوحي بأن غرفته أشبه ما تكون بحوض مائي تسبح فيه سمكات خضراء، بل وقد يعود ذلك كله إلى الريح وهي تحرك أغصان شجرة التوت التي تغزو جانباً من غرفته لا سيما وأنه حين يشعل مصباحه المكتبي ينطبع نوع من الإشعاع الفوسفوري على تلك الخضرة فتزداد اندياحاً، وتعطر الجو أكثر من ذي قبل وتجعله أكثر ليونة بسبب النور الكهربي. حينئذ تبدو شجرة التوت أشد خضرة وتهتز بفعل الريح التي لا تنفك عن الهبوب طوال شهر ماي والنصف الأول من شهر جوان، أي بوقت قصير قبل أن يلقي الصيف برحاله ويحل القيظ فيجفف كل شيء بما في ذلك المدينة التي تفرغ من سكانها الأوروبيين واليهود الذين ينطلقون نحو أجواء أبعد ولكن أرحم أو صوب منتجعات بحرية على الشواطىء حيث يروق لهم التجمع، بعيداً عن أي عربي متطفل... وتتوافق هذه الفترة مع انهماكه الشديد في تحضير الامتحان النهائي بتلك

الثانوية التي كان فيها من بين الجزائريين القلائل الذين لهم حظ الدراسة بها، بفضل مقدرته في الرياضيات، وإن كان زملاؤه الآخرون يعتبرون ذلك استفزازاً لا يحتمل، خاصة وأنه قد اشتهر عنه اجتذابه للفتيات الأوروبيات... لديه إذن متسع من الوقت قبل حلول الساعة التاسعة لكي يشحذ عزيمته فتتفجر في الفضاء الذي تحول إلى بوقال يطفو عليه العالم النباتي باستثناء أي عالم آخر. خمس دقائق من الانتظار إذن، والرطوبة تفرش على وجوه النسوة عرقاً لا يكاد يرى، ولكن يضفي الشفافية على خدودهن، وهو الأمر الذي قد يفسر سبب الألبسة الخفيفة التي يرتدينها. أما الرجال فقد شربوا حتى بدا عليهم وأنهم قد يلفظون أنفاسهم بين الوقت والآخر، من شدة الاحتقان أو من الاختناق. المجالات حواليه تتراكم طبقة طبقة وتوحي بأنها قادرة على الانزلاق واحدة تلو أخرى، غير أنها تفتقر إلى الانتظام والتوازي. على الساعة التاسعة بالضبط، أبصر به وراءه حاملاً كيساً رياضياً. تردد هنيهة في الوقوع تحت وطأة الخوف، غير أن هدوءاً خارقاً غمره دفعة واحدة. ودون أن تقع أنظاره عليه، جاءه صوته هامساً: «اتبعني» كلمة واحدة لا تكاد تسمع. وسرعان ما يترسم خطاه، النساء يتنضدن عرقاً أكثر من ذي قبل. وفجأة، يحس بالغثيان يستبد به ثانية، وبالقلق يتصاعد إلى فتحتي أنفه. وفي هذه اللحظة بالذات تنزلق ذاكرته وتغمره رائحة الصوف الحامضة حتى إبطيه اللذين يرشحان على جانبي جذعه،

حينئذ يصير من السهل العثور على حاسة الشم عنده: هناك الرائحة العفنة الكريهة المتصاعدة من هذه المحطة الذي يذرعها الآلاف من الرجال والنساء طول النهار. لكل واحد رائحة خاصة به كأنما هي شيء ضمني منبعث من بشرته، بالإضافة إلى ذلك الخليط من العطور الغالية وروائح الحلاقة والمستحضرات الزيتية والمراهم والخضاب والمساحيق وغيرها من مزيلات الروائح التي لا تكاد تخطر على البال وروائح الأقدام والأقمشة الملطخة والأنفاس الفاترة أو النتنة أو المصحوبة بروائح الكحول.. وتنزلق ذاكرته بفعل الخوف وتمكنه من أن يتشبث بحادثة في مسقط رأسه. كانت والدته تبادر خلال فصل الصيف إلى كشط مطارح النوم بمساعدة بناتها، وإفراغها من صوفها لغسلها على المنبسط الواسع الذي يفصل باب المدخل عن المطبخ المطل على الحديقة حيث تظهر شجرة التوت بمظهر الشيخوخة بين الأشجار المثمرة الأخرى، والمربعات المغروسة بالأعشاب العطرية والممرات المزهرة.. كن يغسلن الصوف ويضربنها بأرجلهن طوال نهارات كاملة في حين أنه، قبل أن يستعد لامتحانات البكالوريا، يقضي صيفه في تربية دود الحرير المخملي ذي القوائم الوردية الدقيقة والبشرات المخططة داخل علب مصنوعة من قطع خشبية شفافة تترك النور ينسرب إليها. وكان دود الحرير شرهاً يتطلع إلى تلك الأوراق التي كانت شجرة التوت الهائلة العتيقة هي القادرة على تزويده بها كيفما شاء حتى إن

فروعها المورقة كانت تتكسر داخل غرف الطابق الأول من الدارة التي سكنها أبواه اللذان أنجبا أطفالاً عديدين.. يا للخوف الطاغي! هو ذا يقتفي خطاه بينما تفغم الروائح المتراكمة أنفه الدقيق وتتسرب عبر أعصابه المتلبدة المتجمدة بسبب هذا الماوراء الذي ينتظره في مكان ما. إنها نوع من الحركة الآلية التي لم يعرف منذ البداية دقتها ولا صلابتها بحيث أن البيت الذي نشأ فيه ينكسر عبر بؤبؤيه المخضرين كأنما هناك شعاع وهمي يوسع دائرتيهما. ويواصل اقتفاء الشخص الآخر، صاحب الكيس الرياضي ذي الأحديدابات والنتوءات التي توحي بأن بداخله ترسانة من الأسلحة المتضاربة أو نوعاً من الأوعية العتيقة المتهالكة القادرة على أن تتعثر في يوم من الأيام مع أن مهمتها بالذات تتمثل في تنفيذ الأحكام بالإعدام. يتسع بؤبؤا عينيه إذن بشعاع الشمس الوهمي الذي يجعل حمرة الجدران الفاقعة أكثر زيغاناً وهشاشة، لأنه وقع في روعه أن الأشياء كلها ليست مرتهنة بالمعمار الهندسي بل بالألوان والروائح. (الصوف المغسول، الطماطم المجففة، اللحم المقدد فوق حبل الغسيل، الفضلات المخضرة التي يتركها دود القز حين ينسج شرانقه بأوراق التوت، السلاحف الكسلى إلخ...) لكأن تلك الألوان والروائح تملك القدرة على تنضيد الأشكال والأحجام بأن توجز الواقع والذكرى في خط كثيف مجوف، ذي حدود صارمة يكون بمثابة معبر لمختلف البناءات الممكنة والتي قد تراود الخيال حتى

يمكن لمدينته الأصلية أن تمر أمام ناظريه وكأنها معروضة على شاشة هائلة. أما الشخص الثالث فيتابع سيره إلى الأمام بكل هدوء دون أن يلتفت وراءه لكي يتأكد من أنه يتبعه. كيسه الرياضي المصنوع من الكتان الأزرق يتدلى على ظهره. يتقدم بخطى واسعة هادئة. في حركاته نوع من الحيلة والثقة بالنفس.. لكنه هو، وقد استطاع أن يتحكم في خوفه داخل غرفته الحقيرة، تزعزع من جديد أمام هذا الرجل الذي لا يعرفه إلا بالرؤية، هذا الرجل الذي يظهر دائماً في الموعد المحدد، بالغ الهدوء، واثق من نفسه، لا يلتفت إلى الوراء أبداً ولا يحيد عن طريقه إلى هدفه المنشود، راسخ الخطو، لا يكاد يدرك ما يحدث حواليه ويمر أمام شرطة الحراسة، وعلى كتفه اليسرى يتدلى كيسه الرياضي المكتظ بالأسلحة... تبعه بحركة آلية وقد تنضد جبينه عرقاً وعقد الخوف عضلاته فجعل منها لوالب قاسية غير مطواعة لا تكاد تنقاد لإرادته المستنفرة لهذا العمل الذي يتعين عليه أن يقوم به، هذا العمل الخطير الذي لا يعرف عنه شيئاً. وشعر بأليافه تتهرأ وتتحول إلى جروح مفتوحة على صفحة بشرته وفي رئتيه اللتين صارتا كلابتين تسحقان جسده وتقطعان أنفاسه... أما الشخص الآخر فلا يزال راسخ الخطو كأنما هو متوجه بكيسه الرياضي إلى أحد ملاعب كرة القدم لكي يقضي صبيحته في الجري على الأرضية المعشوشبة برفقة مجموعة من الأصحاب الذين يحبون تقاذف الكرة من وقت لآخر...

2

تولوز: هدف ـ أنجي: صفر

. . . ففي الوقت الذي لا يوجد شيء يدل على احتمال وقوعه، يقوم بوشوك رقم 11، على الجناح الأيسر، بتمريرة ذكية نحو الوسط. الكرة تجري فوق الأرضية المعشوشبة لملعب كولومب المكتظ بالمتفرجين، وتلتصق بقدم دي لوريتو رقم 9. وعلى الرغم من أن الحراسة مفروضة عليه من قبل سابر وجليا وبوريجولت، وهما على التوالي رقم 5 ورقم 6 من فريق أنجي إلا أنه يتمكن من استرداد الكرة برأسه وتمريرها بصورة مائلة إلى «درودر» رقم 8. ضربته تنطلق قاسية، وتحتك الكرة بأرضية الملعب لتستقر في الزاوية اليسرى من مرمى فريق أنجي. ويتحجر فراجاسي حارس المرمى، ثم يبكي حين يذهب لاستخراج الكرة من أعماق شباكه. أما في المدرجات فإن أنصار فريق تولوز واقعون تحت وطأة الهذيان. نحن الآن في الدقيقة الحادية عشرة من المقابلة.

الرجل الثالث الجالس في مؤخرة التاكسي يستمع إلى تعليق المخبر الصحفي الذي يبدو مستاءً من هذا الهدف الأول الذي سجله فريق تولوز على غير توقع. يده اليسرى في جيب سترته والسرور يهز أعماقه. إنه راضٍ كل الرضا، ففي فريق تولوز لاعبان جزائريان: إبراهيمي، وبوشوك؛ لقد برهن لهم هذا الأخير عما هو قادر عليه.. إنه يعرفه جيداً، فهو ينطوي على خصلتين يعترف بهما الآخرون هما، ذكاؤه في اللعب وفجائية قذفاته.. لقد تعلم كرة القدم في الشارع.. السائق يلتفت نحوه، «من تساند يا ترى؟.. نحن نقترب من الملعب.. لديك تذكرة الدخول على الأقل، فليس هناك مكان شاغر.. كيف تسمح لنفسك بالوصول متأخراً إلى المقابلة النهائية لكأس فرنسا؟... لولا هذا التاكسي اللعين لـ...» غير أن الثالث وقد تخلص من كيسه لا يكاد يجيبه.. ذهنه سارح في مكان ما... إبراهيمي هو الأفضل بكل تأكيد... وقد سبق لبوشوك أن قدم الدليل على ما يستطيع الجزائري أن يفعله.. غير أن المشكلة لا تكمن هنا.. ذلك اللعين الذي يتنصل في آخر لحظة.. لقد قلت دائماً وأبداً إنه وسيم جداً.. أنا لا أعرف حتى عمله... إنه ابن... كلا، هذا صحيح، فالمشكلة لا تكمن هنا.. سائق التاكسي ثرثار. يراقبه في المرآة الداخلية.. لماذا ينظر إلي هكذا... وذلك

الآخر... هدف جميل حقاً!.. بوشوك هذا... إنه ابن بلدك أليس كذلك؟ ولهذا فأنت ذاهب لمشاهدة المقابلة.. ولكن كان عليك أن تحزم أمرك باكراً يا صاحبي.. لعل هناك امرأة وراء الأمر كله.. أما أنا فإن زوجتي ترى في هذه اللعبة غباوة ما وراءها غباوة... لكنني أتركها لأهوائها.. فهي لا تدري ما تدر كرة القدم.. لا تقلق.. سنصل بعد قليل. لا ينبغي لهؤلاء التولوزيين الأغبياء أن يسجلوا هدفاً آخر.. أنت لم تشاهد هذا الهدف الأول.. لقد سبق أن سجلوا ضدهم خمسة أهداف في مقابلة البطولة.. إياك أن ترد على كلامه.. اكتف بتحريك رأسك.. لا أحب أن يتفحصني في مرآته الداخلية.. كن حذراً. فهؤلاء السواق كثيراً ما يكونون على علاقة بالشرطة.. يا رب.. ما أطول المسافة! إنه يحرمني من الاستماع إلى المعلق الذي يتوفر أكثر من المتفرجين.. لا تقلق يا صاحبي.. أنت محظوظ.. فالطريق غير مزدحمة.. سنصل بعد قليل.. هل تراهن على ذلك؟ سنصل قبل تسجيل الهدف القادم... من يدري، قد يكون الهدف الأول والأخير. عليك حينئذ أن ترجع أدراجك.. مقابلة بدون أهداف.. هه.. لكن ينبغي الاعتراف بشيء... بوشوك هذا يفعل بالكرة ما يشاء... ما أعجب أولئك العرب! إحدى اثنتين: إما إنهم يعرفون القيام بكل شيء وإما أنهم كسالى.. أليس هذا صحيحاً؟ أنت تبدو لي

رجلاً جاداً... أين تعمل؟.. لكنه يتركه يتحدث كيفما شاء... يقتربون من الملعب.. يده اليسرى لا تزال في جيب سترته.. بذلته بالغة الأناقة، وقميصه ذو بياض ناصع... لكن الشخص الآخر لقد تنصل.. سوف يكون لذلك تأثير سيء على أفراد المجموعة.. ليست مسألتي، رئيس المجموعة هو الذي ينبغي عليه أن يسوي القضية، غير أن هذا الغبي لا يكف عن... هؤلاء السواق.. إما أنهم ثرثارون أو مصابون بالخرس.. وبالإضافة إلى ذلك فهم عنصريون بكل ذكاء ولطف... سألتقي بهذا الشخص عن قريب.. سيأتي بكل تأكيد لكي يدلي بشهادته وستنشر صورته في الصحف... من الأفضل له أن يسرع بدلاً من أن يجعجع.. أنت تعلم أن هناك فارقاً بين الاستماع إلى التعليق في الراديو والتفرج على المقابلة.. الكرة التي تستقر في الشباك تحدث صخباً، وأنت تعرف ذلك.. أظن أن هذا هو بالذات ما يروق لي أكثر... أجل، تلك الموسيقى... ذلك الاحتكاك... إنه لن يتوقف إذن... يده على المسدس دائماً... ما أصغره... يا للتفاهة! ما الذي سأفعله به؟ يتحقق جيداً من أن تذكرته معه ويتحسس جيب سترته المصنوعة من قماش الألباجا... قال له إن معك تذكرة للمنصة.. لا إشكال إذن... وهذا السائق لا يزال على ثرثرته وغيرته من المعلق يرهق رئتيه... «**نحن الآن في الدقيقة السادسة عشرة من المقابلة، والضغط الذي**

يمارسه فريق تولوز لا يزال قوياً جداً. اللاعبون متجمعون في منطقة مرمى فريق أنجي.. إنه باليه حقيقي. رجال جول بيجو» لا يزال غارقاً في كرسيه وراء السائق... تصله كلمة «بيجو» فيتلاعب بها: بيجو/بيكو... يا للسخرية! أين يا تراهم ذهبوا للبحث عن هذه الكلمة لكي يلصقوها بنا..

«يبدون وكأنهم يمزحون في مربع الدفاع لخصومهم.. لكن حذار من الهجوم المضاد.. إنه السلاح السري لفريق أنجي.. قبل المقابلة، أعلن مدربهم والتر بريش أنه سوف يستخدم الهجوم المضاد.. وفي انتظار ذلك، لا تزال الكرة في منطقة دفاع فريق أنجي. إبراهيمي ينسق الحركات كلها.. حقاً، إنه «كوبا» الجديد» هذا الأمر يستثيرني.. فبمجرد أن يتوفر أحدنا على موهبة ما يلتقطوننا.. لا تقلق يا صاحبي.. لن يلعب وقتاً طويلاً لحسابكم.. «يراوغ هناتو رقم 4، ويتخلص من باسكيني المدافع الأيسر لفريق أنجي، ويخادع كوالسكي ويمرر الكرة إلى ظهيره الأيسر الفنلندي ريتكونين الذي يمررها بدروه إلى الوراء صوب بوشوك.. لاعبو فريق أنجي متحجرون، ينظرون إلى خصومهم وهم يلعبون. دي لوريتو الأرجنتيني يقوم بحركة مراوغة، سابروجليا ينخدع ويجري نحوه.. آه، يا للتمريرة الجميلة بين القدمين.. سابروجليا سيء المزاج الآن.. أنصار فريق تولوز يسخرون منه... الحكم البريطاني م .كلو يجري في كل اتجاه... حقاً، إنها بادرة رائعة من

الفيدرالية الفرنسية لكرة القدم حين استدعت حكماً أجنبياً.. مثل هذا التعيين يجنب المقابلة كثيراً من... لكن حذار، ثم حذار... الكرة بين قدمي إبراهيمي مرة ثانية... تغيير هائل للجناح المائل صوب بوشوك الموجود في الجناح الأيسر. وها هو يندفع ويقذف. هؤلاء الشياطين..»
التاكسي يصل الآن إلى الملعب..

قال في ذات نفسه وهو يخطو وراء الرجل الذي يوجد على موعد معه بمحطة الأوديون في الساعة التاسعة بالضبط: كان عليهم أن.. كان في ميسورهم أن.. ليس هذا من العدل في شيء.. وسيم جداً! وسيم جداً! الوسامة ليست جريمة على أية حال. ظل يتابعه وقد عاوده الغثيان وسلك عموده الفقري صعداً، وملأ عظامه بصوف طفولته، ذلك الصوف الذي يغسل في الحديقة، وراء المطبخ، أو ذلك الذي يحشى في فمه أثناء كوابيس المراهقة ويملأ نخاعه العظمي بعرق ثقيل صفيق.. لكن فات الأوان.. طالما كان الأمر متعلقاً بالانصياع للنظام الذي تفرضه المنظمة من جمع الأموال من المتعاطفين الفرنسيين والإيقاع بالنساء الطبيبات لمعالجة الجرحى، وإيداع سلاح ما لدى غانية مترفة بشارع المارونيي.. نعم! لكن المسألة الآن.. يخيل إليه وهو يسير أن فقرات عموده تمتلىء برغوة من صابون الحلاقة.. خوف.. خصيتاه نديتان رخوتان تتأرجحان بين قدمي القدر الذي تخبط في حبائله منذ تلك

المكالمة الهاتفية المشهودة. لقد انتظرها في كابينة تليفونية موضوعة في طرف رصيف خالٍ بمحطة لا تتوقف فيها القطارات أبداً. لكأنما نصبت هناك سراً لصالح الذين يعملون في الخفاء من أجل قضية شريفة، عادلة واضحة صافية. نظراته زائغة والقلق المسيطر عليه يعوق جملة أعصابه، يتعثر في مشيته، ويدرك فجأة أنه لم يتوقف عن التغرب أبداً خشية التخويض في أشكال حياتية أكثر اتساعاً، وفي أماكن أخرى مرهوبة الجوار.. لقد ربته أم رؤوم ودللته، ثم وجد نفسه، دون مقدمات، بين أيادي حريرية معطرة لمخلوقات ربانية كريمة فزدنه نعومة على نعومة إلى حين تلك الانتفاضة القاطعة. وانقطع إلى مجابهة شراسة العالم المحيط به فافتقر إلى الشجاعة لمواصلة السير قدماً إلى أعمق أعاميقه. ووقع في روعه بعد أن اضطلع ببعض العمليات المحدودة أن الممارسة السياسية قد بددت أحلامه وفصلته عما يتوق إليه وأفرغته من ضعفه وجبنه. تقدم بطريقة عشوائية، وصعد الدرج المفضي إلى مترو «الأوديون» فألفى نفسه في شارع سان ميشال عند مفترق الطرق مع شارع «سان جيرمين». صعد ثانية نحو نهج «سان جاك» وقد انعقدت أوصاله وزعزعه الهواء المشعشع بالأضواء وأذهلته كروية الساعة الكنسية الجدارية وهي تسجل التاسعة وثلاث دقائق، بل إنه اندهش لحيوية الأشجار في ذلك الشارع وقد شمخت بجلالها النباتي

والمعدني في آن واحد.. علاه الشحوب واستبد به الرعب الذي جعل يرسل إشارات زرقاء وحمراء ويحفر تحت بشرته ذلك الوشم المرسوم على جبين والدته ـ ذات الحساسية المفرطة والقوى المتهالكة والدموع المتململة أبداً في العينين والضحكات المسترسلة ـ حينئذ أحس بأن روحه تنسحق انسحاقاً. ولأول مرة عاد إلى تأمل النسوة بعد عام كامل من الانضباط والامتناع عنهن. (ذكريات تنبجس من حيث لا يدري... أشباح مطحونة تتصاعد من أعماق الجهد.. عروق تنضمر بمسحوق الرغبة.. يتأرجح بين الراجع والفتحة.. صور مذهلة متقطعة.. (سوف أموت) قضيبه يلفحه في جانبه.. انفراج ما بين الفخذين وانتفاخ في المداد... صمام وفتحة.. ثنية وإطواء.. عاصفة لزجة تغلي ما بين جدرانه الداخلية.. شفافية من الأحاسيس والهموم.. بشرة جافة في الباطن وراحات لماعة في الظاهر.. التجديف.. كان عليهم أن.. كان في استطاعتهم أن... يجدف مرة ثانية. تستولي الرغبة عليه في إطلاق العنان لصرخاته التي تحمل في تضاعيفها آثار الجرب والربو. يشعر وكأنه يختنق.. ما أجمل النساء.. جروحهن فاغرة عندما يفتحن سيقانهن... تعود الإلتجاء إليهن.. جروح وثنايا.. وشم بحري مرغوة بزبد المياه الأنثوية المصقولة بالزمن البشري الرديء حيث تستديم البرودة والرطوبة.. قمر أعشى وسعال فتاك.. بلد غريب.. فيلم

متعرج عن حياته يعرض بصورة عكسية.. عند مخرج السيلان والمداد يتصاعد اللون البنفسجي إلى دماغه.. إطلالة مسكينة على حياته الماضية، وشراهة التوت في شهر ماي عندما يتفجر النعناع في الإبريق ويتبخر في الصباح حين تعجن والدته الخبز وتخمر العجينة وتتطفل على الطلاسم وتربك خيوط التلاقي بنشاطها المعهود فيها.. (سوف أموت..) فمه مليء بنترات الحياة. ها هو يعاود صعود الأزقة المتعددة التي سلكها.. لقد تخلى عن معهد البولتكنيك لينتمي إلى المنظمة.. الخطأ يعود إلى شجرة التوت.. جذورها عميقة.. تسخين للأمعاء في التوابيت المختومة... ما أشبه هذا اليوم بذلك اليوم من شهر جوان 1956 حين جاؤوا بجثة شقيقه الأكبر.. جرح لا ينسى.. ندب عميق.. التابوت يتأرجح في رافعة الميناء.. أبوه مسرور جداً.. عودة الابن الضال.. الذي تحدى المحرمات القديمة بعدم عبور البحر. لم يكن يريد سوى أن يزاول الطب.. وقبضوا عليه متلبساً بجريمة تقديم يد العون للمنظمة.. كان يقوم بالعمليات الجراحية في أحد الأقبية ويخيط جروح المناضلين. ألقي القبض عليه وعذب ثم قتل. ووضعت جثته في رصاص التابوت.. الذي ظل يتأرجح في طرف الرافعة، فوق الميناء كأنما يسخر من الشرطة ومن رجال الجمارك.. وأصيبت الأم بمرض السكري من جراء ذلك.. النسوة جميلات لكنهن..

عاريات الأكتاف والصدور. دقيقات الخصور وقد بدت آثار سراويلهن الداخلية من خلال الفساتين.. حيطان مفتتة مثل زجاجيات المساجد الملونة، في اليوم الذي قذف كرته في بطن الإمام.. ثم بلغ هذه النقطة، انخرط في معهد البولتكنيك لكي ينسى، وانزلق في ظل الآباط الفحمية المالحة لكي يستريح من حدة العواصف. لكأنما ترك بوصلته هناك مسمرة في دبق السماء حيث تسبح طيور السنونو الكبيرة التي تصطدم بالستائر المصنوعة من القماش الخشن والقطن اللذين ترقعهما والدته كلما أحدثت فيهما هذه الطيور الفردوسية تلك الثقوب الملعونة إلى حد أنها تنسى كلماتها.. كانت تخاطب نفسها: «أين توقفت أفكاري؟.. آه! طيور السنونو! لا ينبغي أن أنسى تزويدها بحصتها من الزؤان والماء». ويرسل رسائله التي يكتبها، خلال الدروس، فوق صفيحة من الزنك أو على فخذ عشيقة. وتجيبه أمه: لقد بلغتني رسالتك هذا الصباح، مغلفة بورق الندم الأحمر الفاقع.. ما كان علي أن أدعك تذهب.. أخشى أن يحدث لك ما حدث لأخيك.. سأموت عما قريب.. كانت تؤمن بالخرافات وما زالت على هذه الحال.. وتهز لهذا الغرض جميع المراجيف وتلقي في نيران قلبها حبات الملح الكبيرة المتوفرة لديها.. تقول في رسائلها: (عزيزي، عندما يبدأ لباس الحب في التقلص لا يبقى مجال لغسله. إياك أن تنسانا! أمك التي

تقبلك بحرارة). لكنه في واقع الأمر ما كان يفعل إلا أن يجرجر نفسه من لغز إلى آخر، وحينئذ يحس بخلاياه العصبية تتآكل شيئاً فشيئاً، وبإيمانه بالمنظمة يتفتق.. وهكذا خشي الموت.. راح يتبع الرجل صاحب الكيس الرياضي. ويعاود السير في نهج «سان جاك» صوب مرتفعات الدائرة السابعة عشرة. الفندق حقير يعلوه إشهار ضخم: الجرجرة. كان «بيل» في مكتب الاستقبال مع زوجته «روزا» أما المشرف على الفندق فيحمل اسماً مستعاراً دون أدنى شك. صاحبة الفندق تحمل هي الأخرى اسماً مستعاراً. لكنها «بروتونية» على الأقل.

هناك خمسة رجال يحتلون هذه الغرفة، إنها ولا شك مخدع عشاق، لأنها تعبق بروائح اللبن الرائب، والفاكهة الحامضة والسردين المتعفن. عند دخولهما قام هؤلاء الأشخاص جميعاً متأهبين لمجابهة أي خطر: «هل الأمر على ما يرام أيها الرفاق.. ها أنذا مع المهندس ليس إلا.. اهدأوا» له صوت طفلة لكنه لا يترك سبيلاً للمخاتلة.. ما أسرع ما عادوا إلى أمكنتهم. جلس اثنان منهم على الأرض واثنان آخران على السرير أما الخامس فانكمش عند فتحة النافذة المعتمة التي تطل على زقاق بدون شك. عين مصوبة نحو الخارج وأخرى نحو الرجل صاحب الكيس الرياضي. «ابتعد عن هذه النافذة.. لم يطلب منك أحد أن تقوم بالرصد.. ليس هناك من خطر

هنا.. «بيل» يعمل مع الشرطة، نحن الذين فتحنا السبيل أمامه.. ليس هناك من خطر.. أما أنت أيها القسيس فما عليك إلا أن تفعل مثل الآخرين وتجلس». غادر القسيس النافذة متراجعاً ودلائل التأسف بادية عليه. الصلعة في وسط رأسه تكاد تكون بالغة الاستدارة، على أنه بدلاً من أن يجلس، ظل واقفاً، مستنداً إلى المغسل، نظرته تنوش ما حواليه، وعيناه تتحركان ذهاباً وإياباً، بين الباب والنافذة.. الجو دافىء والساعة لا تكاد تتجاوز التاسعة والنصف صباحاً. يجلس رئيس الفرقة مولياً ظهره للباب. المهندس المدعو «جو» المتعالم يفعل نفس الشيء وقد رشحت ثيابه عرقاً. سبعة رجال في غرفة ضيقة بفندق من الدرجة الثالثة. لكل واحد منهم اسم مستعار: ستالين هو رئيس الفرقة التي تنقسم بدورها إلى خليتين وتضم كل منهما رجلين ومسؤولاً. سبعة رجال في المجموع. القسيس هو رئيس الخلية رقم 1. و«قيسبا» هو رئيس الخلية رقم 2. «جو» المتعالم تابع للقسيس وكذلك بازوكا. أما الشخصان اللذان يخضعان «لقيسبا» فلهما اسمان مستعاران مكسيكيان: زاباتا وبوكاتان. وقد يعود ذلك إلى عيونهما اللوزية. ما من أحد يتحدث. كيس ستالين بين رجليه، مصنوع من الكتان الأزرق مثل الأكياس الرياضية الواسعة في قواعدها، الضيقة عند فتحاتها بفضل رباط يمكن من إغلاقها عندما يحكم شده. أخرج القسيس علبة سجائر بكل تباطؤ. تناول

واحدة منها وأقحمها بين شفتيه.. لم يتحرك واحد منهم.. ظل على هذه الحال بضع ثوانٍ، يتحدى الحاضرين بنظرات ساخرة. لكن ستالين فهم كل شيء دون أن يرفع رأسه وقال كأنما ـ يخاطب نفسه ـ: «تستطيع أن تدخّن إن أنت رغبت في ذلك». وفي هذه اللحظة فرك بازوكا عود ثقاب بحركة سريعة، ومد الشعلة إلى رئيس خليته.. وما كان من هذا الأخير سوى أن أتى حركة قاطعة وودية في آنٍ واحد وأبعد عود الثقاب عن شفتيه قائلاً: «كفى يا بازوكا!..».

هذه الغرفة المجصصة لم تعد تحتفظ من روائها القديم إلا ببعض التهاويل المشققة الشاحبة التي فقدت لونها وتآكل طلاؤها على مر السنين. الجدران عارية تماماً. السرير مغطى بدثار تقطعت رسومه المغربية حتى إن المرء قد ينسبه إلى أي مكان شاء: أوزبكستان، القوقاس، أرمينيا، مندشوريا، منغوليا، سوريا، العراق، فارس، الأناضول إلخ. ليس هناك من خزانة ولا مرآة وباستثناء السرير فإن الغرفة فارغة تماماً، وقد يرجع ذلك إلى العادة المعروفة وهي أنه ما من تجمع منظم بطريقة سرية أو شبه عسكرية إلا وعليه أن يعيش وينام وينظم نفسه وينتظر في أماكن خالية من الأثاث، مفرغة من محتوياتها وغيرها من الأدوات التي تزينها خاصة وأن هناك على الجدار المواجه للباب مستطيلاً واضحاً ترتسم عليه بقايا خزانة كانت هناك فيما مضى. وفوق المغسل أيضاً آثار ظاهرة. المرآة انتزعت

من مكانها انتزاعاً. (ثقوب، دائرة أكثر بياضاً من بقية الطلاء الآخر في هذا المستودع الموبوء، مسامير ظلت مغروزة في الجدار إلخ..) وكذلك بقعة المشجب الذي بقي منه خط تتفرع عنه عدة رؤوس مصوبة نحو سقف الغرفة ومنبعجة على صفحة الباب الداخلية. ظلوا محدقين في الكيس الرياضي باخْدِيدَابَاتِهِ ونتوءاته هنا وهناك. وقد وقر في نفوسهم أن الأشياء (خزانة، مرآة، صور، مشجب إلخ..) التي ينتظرون العثور عليها في غرفة بفندق من الفنادق لا يمكن أبداً أن تتعايش مطلقاً مع الأسلحة (بنادق، مسدسات، رشاشات إلخ..) ذلك أن الغرفة تفقد وظيفتها كمكان يسكنه الإنسان وينام فيه، ويضاجع فيه لتحصل على وظيفة أخرى أنبل وأهم وإن كانت أشد خطراً ألا وهي وظيفة القاعدة الخلفية لحرب ما ولترسانة من الترسانات التي تختزن فيها نماذج مختلفة من الأسلحة القادرة لوحدها على أن تصنع التاريخ وتغير مصير العالم بدلاً من مجموع هذه الأشياء المتضاربة العديمة الجدوى التي لا تصلح إلا للإيهام والاصطراع الذهني في حين أن الأسلحة قادرة على الأقل على.. لقد عاش ستالين على هذا المنوال دائماً وأبداً منذ أن اضطلع بقيادة هذه الفرقة المتألفة من ستة أشخاص يتوزعون على خليتين. وكثيراً ما افترض أنه لا يمكن إعادة تنظيم مجرى التاريخ، والاضطلاع بالعمليات إلا في أماكن مفرغة من طابعها

المصطنع ومن الحاجات التي تزينها. وإذا كان قد احتفظ بالسرير فإنما يعود ذلك إلى أنه قد يصلح لقضاء ليلة طيبة عليه من النوم المريح قبيل القيام بعملية كبيرة من العمليات أو غداة الفراغ من مهمة كبيرة. والحق أنه مأخوذ بكيمياء التحولات التاريخية ويرى في نقل الأشياء العتيقة طريقة للارتحال عن التاريخ القديم وإعادة تنظيم التقلبات الحتمية والتنقلات الزمانية والمكانية. لكنه في واقع الأمر يشعر بالحاجة إلى مكان يضم ستة رجال لأن وراءه عملية يسعى إلى تحضيرها. سيكون كل واحد منهم في موقعه على الساعة الواحدة زوالاً، مزوداً بالتعليمات الضرورية. لكن الساعة لا تكاد تتجاوز العاشرة والنصف الآن، ولا يتعين على المجموعة أن تغادر الفندق إلا على الساعة الثانية عشرة والنصف. ليس في حاجة إلى ساعتين كاملتين لكي يشرح العملية.. فالرجال الذين ينتمون إلى مجموعة فدائية يفهمون الأمر بسرعة.. لا فائدة من وضع تصميم ما.. ركز ذهنه خلال ذلك أو هو على الأقل حاول أن يركز اهتمامه بكل جدية غير أن «جو» المتعالم والقسيس أقلقاه بعض الشيء. إنه يحس أن أحدهما خائف جداً وأن الآخر شديد التهور. ظل الرجال الأربعة الآخرون جامدين في أمكنتهم. قد يكون القلق مسيطراً عليهم إلى حد ما أو لعلهم واقعون تحت وطأة الفضول: أي نوع من الأسلحة سيكون بين أيديهم؟ أما عن بقية العملية فإنهم يردون الأمر

كله إلى رئيس مجموعتهم وإلى المنظمة. إنهم سبعة رجال. ستة منهم جالسون على البساط البلاستيكي المهترىء المحروق في مواضع منه، المثلوم والمنخلع عن أرضية الغرفة في أماكن، في حين أن سابعهم واقف وقد وضع فخذه على المغسل وقوس ساقه الأخرى ليحقق التوازن. كلهم في مأمن من الخطر لأن «بيل» مسموح له باطلاع الشرطة على وقائع ملموسة وإن كانت مجرد ترهات وتفاصيل تافهة لا تستطيع الشرطة في نهاية المطاف أن تستخلص منها شيئاً بل تدفعها على الإكثار من الملفات وعلى فتح التحقيقات ومطاردة رجال ليسوا في حقيقة الأمر إلا من الذين يتسقطون الأخبار لها، أي أنهم خونة، ومن ثم ينبغي القضاء عليهم بفضل المساعدة المباشرة التي يقدمها عملاء الشرطة أنفسهم. حين انتصف النهار وزع ستالين الأسلحة بالمصادفة كأنما يجري قرعة. وجعل يقحم يده اليمنى في الكيس ويمد السلاح إلى أقرب شخص منه. «جو» المتعالم هو أول من حصل على نصيبه. أما القسيس فهو الأخير. وقد شعر ببعض الاستياء لكنه لم ينبس شفة. عيارات صغيرة. إنها عملية انتحارية. عليهم أن يهاجموا تجمعات المظليين الذين يتأهبون للذهاب إلى الجزائر. اجتاحت «جو» الرغبة في أن يتسلق شجرة التوت إلى القمة من شدة خوفه. وشرح ستالين طريقة انتشارهم: على كل فرد أن يتخذ مكاناً لنفسه في محطة المترو الرابط بين

أوسترليتز وباب «أوتوي». «جو» المتعالم بمحطة الأوديون، القسيس بمحطة موبير ميتيالتي. زاباتا بمحطة مابيون. بوكاتان بمحطة سيفر بابلون. قيسبا بمحطة قانو. بازوكا بمحطة ديروك. أما هو فسيكون بمحطة الأنفاليد.

... بل يمكن القول إنه طبقة هائلة من الأسمنت المسلح في شكل حوض بداخله غسيل الفقراء. إنه يعرف ملعب كولومب جيداً، غير أن المدخل بمرقبه الصغير الذي يعلوه القرميد الأخضر المخروطي الشكل يذكره بمرابط مغربي أخذه أبوه إليه لزيارته حين كان طفلاً. ليس يفهم هذه الذكرى الاستعمارية أو الفلكلورية، (الملعب يحمل اسم«ايف دومانوار»، وقد بني سنة 1923 لاحتضان الألعاب الأولمبية لسنة 1924، أي بعد عشر سنوات بالضبط من احتلال المغرب) هذه الذكرى التي تعبر دماغه صدفة بعد أن خرجت من رأس مهندس أراد أن يبرهن بأنه قطع المحيطات وطوف بالصحارى وضحاضح السواحل والشطوط والبحيرات المالحة ذات الزجاج المفروم، المشققة بسبب الصقيع، المرشوشة بالسكر الدقيق، حتى لا نقول عنها بأنها مصفحة بشذرات المعادن أو مصقولة بقطع الزنك التي تنطرح الواحدة منها بجانب الأخرى. حقاً، كان الرجال يحملون في ضباب تلك الذكرى ألوية هائلة في جو من الحماس والحمية، ولم تكن في واقع الأمر إلا مزقاً مهترئة مسمرة إلى أطراف قطع خشبية تساعد موكب الزوار

على التقدم في وجه الريح والتخويض في المستنقعات حتى يمكن لهم أن يضعوا على قبر الولي الدراهم التي جمعوها قرشاً قرشاً والعديد من أقمشة الحرير والطافطة وغيرها من الشموع الضخمة الملونة والمزينة بالورق الصقيل والكيلوغرامات من السكر، والشاي والتي يستولي عليها الأعيان في لحظة خاطفة. كلا، ليست هناك أية علاقة بين هذه الألوية وبين الرايات الثلاثية الألوان التي تصطفق في وجه الريح، وترتفع عالياً فوق البناية الهائلة، وقد بدت نظيفة مغسولة بمياه المطر، ودارت حول الصواري الحمراء الفاقعة. لا ولا علاقة لها البتة بالقفازات البيضاء لرجال الشرطة القابعين عند كل مدخل بأزيائهم الاستعراضية لأن رئيس الجمهورية يأتي في العادة لمشاهدة مقابلة نهائي كأس فرنسا لكرة القدم. لقد بدأت المقابلة منذ عشرين دقيقة تقريباً، واستمع إلى البث الإذاعي، منذ انطلاقها، داخل سيارة هذا العجوز المهذار، هذا العجوز الروسي «الألكن» الذي رفع الكلفة بينهما دون سابق إنذار. البث الإذاعي غير واضح على أية حال بسبب جعجعة السائق الذي يسقسق حرف الغين. على أنه سائق يحترم نفسه، فقد اعترف بأن الهدف الأول الذي سجله فريق تولوز هو من صنع «بوشوك». هدف مفصل كما يقال في لغة لاعبي كرة القدم بمسقط رأسه. إنهم لا يكفون عن إرسال عساكر من كل نوع إلى بلاده. فهناك المظليون، وذوو القبعات الحمراء

المستطيلة، ورجال الكومندوس، والمدرعات، والطيران، بل ورجال البحرية أيضاً. كل ذلك يتزاحم في دماغه بسبب تصادم الوقائع منذ هذا الصباح. وها هو يجد نفسه أمام الملعب الهائل بصخبه الذي يصم الآذان لا سيما وأن الصدى يضخم الأصوات ويردها ثم يعيدها إلى نقطة انطلاقها. لكن المشكلة لا تكمن هنا. يده اليسرى في جيب سترته دائماً وأبداً وأصابع يده اليمنى تعرض تذكرة الدخول على الخفير. بمدخل الملعب الرسمي الذي يفضي إلى المنصة الرسمية حيث ينبغي أن يتخذ مكانه لتأدية مهمته. المتفرجون يتصايحون ويتصارخون، وأمواجهم تعلو وتتطامن لكن الحارس يحيله إلى الباب المؤدي إلى المدرجات. ويقول هو في نفسه: «يا هذا، إنهم يسخرون مني، مع أنهم أوضحوا لي جيداً أنها تذكرة دخول إلى المنصة الشرفية.. هذا جنون حقاً! أهذه هي الطريقة التي يمتحنونني بها؟ لكن لم يا تراني أقول «هم»؟... أليس من واجبي أن أقول «هو»؟ إنه دائماً هنا في الوقت الذي ييأس فيه المرء من رؤيته. ليس له اسم ولا حتى اسم مستعار. ثم ذلك الآخر، «جو» المهندس الملقب بالمتعالم الذي لم يعد له أثر بمحطة الأوديون في الساعة الواحدة والربع.. حقاً، لقد أحسست بالرعدة تستولي عليه وها أنذا في ورطة.. لقد اختاروه بسبب شكله.. ينبغي علي أن أدخل الملعب على أية حال.. لقد ذهب هذا اليوم أدراج

الرياح.. وددت أن لو كنت مع أفراد فرقتي.. لكن وجب استخلاف «جو» ذلك الرعديد.. أياً ما كان الأمر، فأنا لم أحضر مقابلة كروية منذ عهد بعيد.. هناك إبراهيمي وبوشوك في فريق تولوز.. المقابلة جديرة بأن أتفرج عليها.. لكن، لم يا تراه روى لي مثل هذا الهراء؟ لن يكون في مقدوري أن أقتله من هذه المدرجات إن هو اتخذ مكانه في المنصة الرسمية!... زد على ذلك هذا المسدس الصبياني... لقد شطوا في المغالاة.. ما هو جوهر هذه القضية بالضبط؟.. أهو اختيار؟... أم أن هناك خطأ في الحساب والتقدير.. أم معاقبة؟.. ثم ماذا لو كانت مجازاة.. مكافأة من قبل (الفرع الخاص) بالمنظمة؟».

هو ذا يدخل من الباب الذي حول إليه بإشارة من إصبع ويصعد سلماً، ثم يخلص إلى المدرجات في المنعطف. المنصة الشرفية عن يساره مزدحمة بالمتفرجين وبالشرطة. يظن أنه لن يستطيع القيام بشيء. ومع ذلك، فهو.. يجلس وينظر إلى أرضية الملعب. ويمسح بنظراته اللوح المضيء الذي يسجل 22 دقيقة على انطلاق المقابلة. النتيجة: تولوز: هدف. أنجي: صفر. أرضية الملعب معشوشبة. فريق تولوز يلعب بقمصان بيضاء وزرقاء وفريق أنجي بقمصان برتقالية. يبحث في الزحمة عن أبناء وطنه. رقم 7: إبراهيمي، رقم 11: بوشوك. ويشعر بالتفاهة وهو يمسك بمسدسه الصغير داخل جيبه. إنه جالس بين اثنين

من الأنصار، والظاهر أنهما فرنسيان، عريقان. وفجأة تساءل عما يصنعه هذان اللاعبان الجزائريان في مقابلة نهائي كأس فرنسا، في حين أن الدم يتدفق أنهاراً هناك في أرض الوطن.. لقد ولد في عنابة، هذه المدينة التي تنطبع على بشرته مثل بطاقة بريدية يعبرها نهر السيبوس. ضفة يسرى وضفة يمنى. الفرنسيون من جهة والعرب من جهة أخرى. شارع «برتانيا» بأشجار الدلب المشعة وفتيات لوحتهن شموس الشواطىء وقد شدت الواحدة منهن يد الأخرى ورحن يصعدن جيئة وذهاباً ذلك المعبر الواسع بحثاً عن فرسان أحلامهن. أما في الطرف الآخر فهناك الكنيسة الصغيرة وقد زينت بمنمنمات لماعة يعود تاريخها إلى عهد بعيد، ثم هناك محطة السكة الحديدية بطابعها الصحراوي في حين أن الجسر يثقل بحباله وأسلاكه على فسحة الفضاء المتوهجة. وبدا أن كلاً من المحطة والكنيسة قد خرجتا مباشرة من حلم استعماري مضبب تتخلله روائح الأفسنتين والعناب، وتسيطر على هذا المشهد كله كاتدرائية القديس أوغسطين وتمثال العذراء وهي تبارك المدينة حين تسفعها الرياح الحارة وتحترق الأكواخ في الضفة المقابلة.

وحصل على شهادة الدروس التكميلية لكنها لم تفده في شيء، لأنه وجد نفسه يحترف العمل اليدوي مقابل عشرين سنتيماً للساعة عند «ديرافور» واستحال عليه أن يعيش مع والدته بذلك الأجر اليومي الزهيد. فكان أن ركب البحر

وانتهى به المطاف في ستراسبورغ. وعندما وقعت عيناه على كاتدرائية تلك المدينة عرته نوبة من الضحك لشدة ما بدا له رجالات المعمرين في عنابة تفهاء، بلا ذوق ولا خيال حين بنوا بعنابة نسخة مماثلة من تلك الكاتدرائية... أعيته الحيلة فجلس يتفرج على المقابلة، محاولاً أن ينسى ذلك اليوم حين تعين عليه أن يقود فرقته لكي يهاجم ثكنة المظليين بساحة الأنفاليد. لكن ها هو يتفرج على مقابلة كروية في ملعب يكتظ عن آخره بـــ 43125 من المتفرجين وتبلغ مدخولاته 17977750 فرنكاً. فريق تولوز يلعب في اتجاه الريح بعد أن كانت نتيجة القرعة من حظه. ورئيس الجمهورية يحضر المقابلة على الرغم من الأعباء التي تثقل كاهله بسبب الأزمة الوزارية. أما عن الأحوال الجوية، فإن الشمس معطاء تجود بدفئها، والريح معتدلة. ثم إن أرضية الملعب في حالة جيدة. اللاعبون يجهدون أنفسهم في تبادل الكرة فيما بينهم في حين أنه يجهد نفسه في تأمل هذه الأجساد المزركشة التي تشكل حزمة أضواء تكاد تكون وهمية وإن كانت في نفس الوقت بادية للعيان. وسبب ذلك كله هو تلك الألوان الباهتة والانعكاسات المتموجة في ذلك الجزء الأبيض من الملعب الذي تنهال عليه أشعة الشمس بقوة وتميز اللاعبين أو تجزئهم وفقاً لألوان القمصان والتبانات والجوارب، أما في الجزءين الآخرين من أرضية الملعب حيث تستولي الظلال على بضعة

سنتمترات في كل دقيقة، فإن الأجساد تكاد تكون شفافة متقلصة بسبب التأثير البصري، لكأن الرؤية غير مضبوطة، ومن ثم فهي تعطي الانطباع بأن الأشكال مفرومة شيئاً ما، منفوشة في أطرافها، باهتة الحركات، أو هي عبارة عن أشباح مضعضعة التقاطيع،غابت عنها الخطوط التي كانت تحدوها بصرامة. وهذا بالذات ما يمكن تلك الأحجام من أن تبدو أقل نتوءاً وبروزاً مع أن فورة اللاعبين وصداماتهم هي هي في قلب الملعب الأبيض الناصع وفي طرفيه الأيسر والأيمن على حد سواء.. على أنه من الصحيح أن اللاعبين حين يقتربون من المرمى يزيدون من سرعتهم ويغيرون الوتيرة بصورة فجائية، في حين أنهم يبطئون اللعبة في قلب الملعب لكي ينظموا حركة رفاقهم، وهي الحركة التي يقوم بضبطها «إبراهيمي» عن فريق تولوز و«لوجول» عن فريق أنجي، معتمدين في ذلك على الغريزة والحدس وكأنهما لاعبا شطرنج يتلمسان طريقهما وسط ذلك الاخضرار.

عندما ينطلق ببصره من اليمين، أي من جهة مرمى فريق «أنجي» الذي يحرسه فراجاسي، ويتحرك صوب قلب الملعب حيث تبرز دائرة من الجير متميزة عن اخضرار الأرضية المعشوشبة تقع عيناه على شبكة من المستطيلات عبر المساحة الخضراء المتراوحة بين الدكنة والصفاء، وفقاً لحركة العينين من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى

اليمين. على أن ذلك عائد بدون شك إلى المجز الذي يمرر يومياً للحفاظ على الأرضية المعشوشبة وخاصة قبيل المقابلات الكروية. هذا الامتداد كله ليس محدوداً بالخطوط البيضاء على سطح الملعب فحسب بل بالأوتاد الحمراء أيضاً في الزاويا الأربع وبمساعدي الحكم اللذين يجريان مثل مجنونين في مختلف الاتجاهات وفقاً لأهواء اللاعبين، وبملتقطي الكرات بألبستهم البراقة... على أنه وهو يتذكر ذلك كله، يدرك أن ليس هناك من تفصيل يغرب عنه الآن، وعلى الأخص تلك الملايين من المسارات التي اتخذتها الكرة والتي تتقوقع في ذهنه عبر تشابك من الخطوط العميقة المتوازية في وقت واحد، خطوط أشبه ما تكون بسكك حديدية داخلية تصدم اللاعبين الذين اضطرب تركيزهم واستحوذت عليهم هذه القطعة الجلدية المملوءة بالهواء فجعلتهم يخبطون خبط عشواء ويغرقون قلباً وقالباً في طقوس من الحركات التي لا ترمي في جوهرها إلا إلى هدف واحد! المرمى الذي يذرعه الحارسان جيئة وذهاباً في دوران جهنمي، حتى إنه يخيل إلى الناظر إليهما أنهما زوجان من الغوريلا يكنسان الأرض بأياديهما الضخام المقوسة، المنحنية في انتظار فترة من الانفراج حتى يتسنى لهما أن ينتصبا فوق اللاعبين ذوي القامات الرشيقة. وخلال ذلك كله يبدو هذان الحارسان بمظهر أبنوسي أصهب بسبب ألبستهما السوداء والعرق المتصبب من

جسديهما ومن شعر رأسيهما الملتمع بفضل أشعة الشمس عندما يغادران منطقة الظل فجأة لالتقاط الكرة ومعاودة اللعب.

لن يكون له ما يضيعه بعد وقت قصير. سوف ينسى حتى اسمه المستعار (ستالين) وغيره من أسماء الآخرين الذين هم أعضاء في الفرقة الفدائية بما في ذلك اسم «جو» الخائن. سيكون حينذاك قد أدى مهمته أحسن أداء. طلقة واحدة وسيكون الآخر قد انهار في بركة من الدم، لن يتبختر بعدها أبداً في المنصات الرسمية خلال المقابلات النهائية لكأس فرنسا. أما هو، فلن يكون في حاجة إلى أن يؤكد لأي كان بأنه قد فرغ من مهمته. يذكر الآن أنه عندما ألقي القبض عليه نام ثماني وأربعين ساعة.. لم يجرؤ أحد على إقلاقه. وفي انتظار المحاكمة راح يعرض على حيطان زنزانته بسجن «فرين» فيلم ذلك اليوم المشهود، الأحد 26 ماي 1957، ذلك اليوم الذي تخللته الأهداف التسعة التي سجلها الفريقان الخصمان والطلقة النارية التي أرسلها من جيبه لتصيب هدفها في مقاتله.

أما الشخص الآخر، أي الرجل الأول المدعو «جو» المهندس، المتعالم، البولتكنيكي، الفتى الوسيم فكان مكلفاً بتنفيذ المهمة، لكنه غاب كلياً، بل تبخر بين الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة والواحدة والربع بمحطة الأوديون، هل يعود ذلك إلى الخوف الداحر الذي عراه؟ من يدري...

3

تولوز: 2 ـ أنجي: صفر

لكنه ظل جالساً وسط تلك الجموع الصخابة الموّارة التي تتحرك في كل اتجاه وهي تشهر رايات صغيرة بألوان الفريقين المتصارعين في معركة رهيبة على أرضية الملعب. المتفرجون حواليه يهزون تلك الرايات بحركات بائسة دون أن يكون في وسعهم التصفيق لأن أياديهم تمسك بزجاجات البيرة والأرغفة ولوائح الشعارات التي سمرت كيفما اتفق على عصي صغيرة مثيرة للسخرية. آلات النفخ من مختلف الأنواع والأحجام والأشكال تتراوح بين أيديهم، وكذلك الطبول والصنوج المختلفة وغيرها من الأشياء القادرة على إصدار صوت ما وإحداث الضجيج والصخب. لم يعد لتلك الجموع أصوات لكي تقذف بتشجيعها وغضبها وحماسها وانسحاقها. لقد صارت بحاء، مجعجعة، راشحة بالعرق، مكهربة، محترقة في أتون الملعب الواسع الذي أغلق في وجه النسائم والرياح وانبعثت من أرجائه روائح البيرة الحامضة والكحول المتخمر في الأفواه. كل ذلك يلفح أحشاء المتفرجين وينقع عضلاتهم وشحومهم

وبشراتهم. هاهم يقومون ثم يعاودون الجلوس لأدنى استنفار، وينادون اللاعبين بألقابهم وبأسمائهم المستعارة كأنهم يعرفونهم معرفة حميمة أو كأن لهم إطلالات على حياتهم الخاصة. أجل أنهم يوبخونهم لأدنى خطأ ويؤلهونهم لأبسط مراوغة أو تمريرة جانبية أو انعطافة أو قذفة بين القدمين أو انطلاقة سريعة أو تغيير في الجناح أو تلاعب بالكرة. وما أسرع ما ينهالون عليهم بالشتائم إذا ما جاوزهم لاعب من الفريق الخصم أو راوغهم وسمرهم في أمكنتهم وسخر منهم وأوقفهم عند حدهم وعصرهم عصراً.. الضوضاء غير محتملة الآن، وهي تتضخم في شكل موجات مركزة تنتقل من المدرجات الرخيصة حيث تنفس الجماهير عن مشاعرها بكل صدق وحمية لتبلغ المنصة الشرفية، هذه المنصة التي يسيطر عليها صمت ثقيل وعلى الرسميات التي عفى عليها الزمن: رجالات السياسة في البلاد قابعون في المنصة وقد استبد بهم سأم قاتل وراحوا يتمظهرون ويصفقون على مضض ويشدون على أنوفهم بين الفينة والأخرى بسبب رائحة المستنقع البشري التي تصلهم على دفعات من مختلف الجوانب... سبورة الإعلانات المنصوبة فوق كتلة الأسمنت المسلح تسجل الدقيقة الثالثة والعشرين والنتيجة هي هي. إنه جالس وسط هذه الجموع الرائعة المتآخية البائسة الشرسة الوقحة، هذه الجموع المبهورة الأنفاس، الهستيرية التي توجد في واقع الأمر تحت وطأة العزلة وتتعاورها التفاهة والمسكنة. يا

لهؤلاء المساكين الذين ينسون أيام العمل الطاحنة والرتابة والتعب والاحتقار والاستغلال، ويضربون صفحاً عن الانكسار الذي يحدث في أعماقهم حيث لا يحق لهم ولا لأي شخص آخر أن يقتحمها، وما ذلك إلا لأنهم مشدودون إلى ذلك الخليط المتراكم وإلى تلك التداخلات والتشابكات ولأنهم خاضعون لتلك الظاهرة الجماعية الموحدة الموقوفة على الهذيان بجميع أسبابه. لقد تجاوزتهم تلك الظاهرة بطبيعة الحال، وإن كانوا على وعي مبهم بها، مدركين بفطرتهم أن لغز هذا المحيط المتموج الذي يكفرون عنه ويفككهم ويشدهم ويبلبلهم كامن في ذلك التداخل الجهنمي بين الأشياء واللاعبين والألوان والأصوات والمتفرجين. أوصالهم مفككة، عيونهم جاحظة، أجسادهم مسحوقة مخنوقة لكنهم معتزون براياتهم، بالأراضي التي يستعمرونها، ببلادهم، بخمورهم بسمعتهم، مستعدون لحمل أعلامهم الوطنية، ونصرة ما يريدون نصرته عن آخره، والتضحية بنفوسهم حتى وإن اقتضى الأمر أن تتعفن أجسادهم في المناطق النائية وتتيبس بسرعة مذهلة على التلول التي تبتلعهم في طرفة عين وحيث السراب يبعثهم على الذهول الجارف. إنه ينتمي جسداً وروحاً إلى هذا الحراك كله، ويجد نفسه بين هؤلاء الناس الواقعين تحت رحمة رؤسائهم، بين تلك الأشياء الملتمعة تحت شمس الأرضية المعشوشبة، وبين تلك الظواهر المبهمة التي تجعل منه كبش الفداء على غرارهم جميعاً: إنها شفرة من

الترابطات التي لا يتوصل إلى رموزها على الرغم من يقينه، وصفاء نفسه، وعلى الرغم من المسدس المخبأ في يده الضخمة، يد المرصص التي لا تغادر الجيب الأيسر من سترته. لكنه يشعر أنه منجرف في تيار حركة وهمية طاغية تندفع عبر خط مقوس، وتعاود المرور من نفس النقاط ولا تنفك عن اتخاذ نفس المسار مع أنه يعرف بصورة مبهمة أنه يجسد هذه الثورة التي لا يمثل إلا جزءاً من جزئياتها المقذوفة هنا بين الملايين الأخرى التي تدور مثل ذرات من الغبار قبالة الشمس الساطعة الزاحفة شيئاً فشيئاً نحو يسار الملعب. وتسيل الدقائق قطرة قطرة في عروقه ضمن خليط من الخوف والسرور الغامر والذهول والانخطاف. الخطوط التي تشكلها رؤوس المتفرجين وأقواس الأسمنت المسلح في هذا المعمار الفراغي الهائل تبدو وكأنها خطوط متراكبة أو سكك حديدية تنكسر أطيافها في اللانهاية وتعيده إلى الآثار الداخلية التي تبقع بشرته وتخددها بأشكال الاحتقار والتبجح الاستعماري. إنها ترده إلى مآسي التاريخ المتداخلة فيما بينها، الممهورة بالثورات والانتفاضات والتمردات العسكرية منذ سنة 1830 ومروراً بـ 1849 و1871 و1881 و1911 و1945 و1954، بل إنها ترجعه إلى تلك الأورام التجريدية المتولدة عن الإذلال المتحجر المتراكم عبر السنين، المنتفخة تحت ضمير الحقد الدفين، حينئذ تظهر له دوائر الزمن الاستعماري المتفجرة إلى آلاف القطع، وتضاريس البلدان المحتلة وهندساتها وهي تصطخب

في عنف. وتبدو له أجزاء كاملة من التاريخ وهي تنشرخ أمامه وتتفتت وتصدم الواحدة منها الأخرى وتتغطى بالفطريات المتطحلبة السامة مشيرة بذلك إلى اقتراب الزوبعة التي لا يمثل في واقع الأمر إلا أداة تعمل على التعجيل بها. ويزداد انشداهاً حين يعلم أنه من الصعب عليه أن يتقبل تنصل صاحبه في اللحظة الأخيرة ويضبط هذا التآلف المهلوس الذي يرغمه على البروز دفعة واحدة في تاريخ الشعوب المدمى. لا يزال جالساً في مدرجات الملعب المكتظة عن آخرها بـــ 43125 من المتفرجين الذين دفعوا أثمان تذاكرهم فضلاً عن المدعوين والرسميين ورجال الشرطة ومنظمي المقابلة والمتحايلين الذين لا مفر منهم المنجذبين إلى مثل هذه المناسبات الخيانية. يده تضغط على مسدسه الطفولي داخل الجيب الأيسر من سترته المفصلة من قماش الألباجا، هذه السترة التي دفعت المنظمة ثمنها بدون شك. وهو لا يفهم من هذا التآلف شيئاً، لا بداياته ولا نهاياته الملموسة الصارمة الدامية وإن كان يحدس أنه موجود حقاً مثلما يحدث ذلك في حلم مهفهف ندي طري مخلخل يوقظه في كل ليلة أثناء ساعات النوم الثلاث، ولا ينفك عن تعذيبه وإرعابه لأنه يرى عبر شفافيته دلائل قاطعة على أن العناصر التي ما فتىء يزعزعها طوال سنتين سوف تتجاوزه في يوم من الأيام. حين انخرط في المنظمة رفض الكلام الذي يقال في اجتماعات الخلية السياسية وطلب أن يحال على فرقة فدائية صار فيما بعد

رئيسها، وإن كان يصاحبه نوع من الدليل الحزين الصموت الذي يبرز في الوقت المناسب لكي يعطيه الأوامر ويغيب بعدها كأنما بفعل السحر. لم يكن ذلك الدليل إلا أحد مسؤولي التشكيلة الخاصة التي ترأس الفرقة الفدائية والتي ما انفكت شبكتها عن الامتداد إلى التراب الفرنسي كله مثل نسيج لامرئي يتراص يوماً بعد يوم. على أنه كان يخشى ألا تتمكن عمليات الضبط المتعددة من التحكم في طغيان هذه الآلة المندفعة أو التخفيف منها ولو لبعض الوقت حتى يستجمع ذهنه ويحوصل ماضيه وحاضره ومستقبله. ذلك أنه لا يريد أن يكتفي بإدراك معنى هذه الثورة التي انتمى إليها منذ البداية بل يريد أن يفهم أيضاً معنى الدوار والدوامة والحيرة التي تغرق حركاته كلها وأدنى إيماءاته بل وحتى أحلامه المضببة الغائمة ببلور التاريخ وبذكرى مدينته الأصلية. . . يا لتلك المدينة المصفرة المحصورة بين البحر الأزرق وسلسلة التلال المغبرة التي تحمل على قممها نخيلات كثيراً ما تراها مرسومة على علب كرتونية تستعمل لاحتواء تمور طولقة ذات المذاق المعروف أو راحات الحلقوم المرشوشة بالسكر أو الحلويات المسماة بالتركية والسورية وفقاً للبلاد التي تصنع فيها من حبوب السمسم والسكر وغيرها من المواد الطبيعية الأخرى. وقد تقع أنظار الإنسان أيضاً على تلك العلب وقد ارتسمت عليها عذارى مقدودات من الرصاص أو من الجص أو تماثيل العذراء وهي تبارك البحر وقد تدلى نهداها وصوبت عينيها نحو

المحيط لكي تحمي الصيادين الصقليين والمالطيين. وقد نشاهد عليها كذلك صورة تلك الحلوى الضخمة التي تدعى كاتدائية القديس أوغسطين وتطل على المدينة مثل ديكور مشبوه من عجين الورق تختلط فيه أساليب عجيبة، ويتعين فيه على كل مغترب أن يعثر على جزء من كنيسة قريته الساردية أو الأندلسية أو الصقلية أو اليونانية أو أي جزء آخر من الكنائس الواقعة على أطراف البحر المتوسط.

مدينة مصفرة بمرفأ صغير لا تستقر في بحيرته إلا بعض البواخر الهزيلة من ناقلات الحوامض والفوسفات بعارضاتها المتداخلة المنتشرة مثل قطعات القماش في سماء الخليج.

أما بداخل المرفأ فالأرصفة ضيقة تهدد بالسقوط في حين تناثرت قباب المساجد وظهرت غارقة في حمرتها الحريرية الفاقعة مقولبة بطريقة ساذجة ودون أي خيال هندسي، وقد تجذمت جدرانها ونهشتها حموضة ذلك العنف المكبوت الذي ينفجر بين الوقت والآخر بصورة عفوية ليقمع بسرعة على أيدي الجنود السنغاليين وذوي القبعات الحمراء المستطيلة والصبايحيين وغيرهم من الذين يوجدون على قدم وساق لارتكاب الجرائم وإراقة الدماء وخنق كل ما من شأنه أن يضر بالثراء الفاحش في الجانب الخلفي من المدينة حيث ينبسط السهل الطيني الخصيب ويزخر باطن الأرض بالمعادن المختلفة... لكن المدينة ظلت مصفرة مختومة، وما أسرع ما صارت موئلاً للصعاليك والمتاجرين بالجنس، وازدحم شارع «برتانيا» بخليط متكاسل شرس من

العرب والإيطاليين والأسبان والمشارقة إلخ. . . لقد عجز عن العثور على عمل بمدينته على الرغم من شهادة التأهيل المهني في حرفة الترصيص، واضطر إلى أن يغادرها إلى ستراسبورغ حيث ابتلعه ذلك المصنع بصفائحه التي تدور حول اسطواناتها المغروزة بالحديد لتتحرك في خط عكسي فتسحق الصلب وترققه وتمدده في الحرارة المجففة التي تجعل من فتحتي الأنف جرحاً متيبساً. وغرق في ضجيج الكتل الحديدية المنسحقة التي تقذف الشرر، وفي أفرانه الضخمة التي تلتهم الكوك والفحم باستمرار، وفي آلاته المعقدة التي ينبغي الدخول معها في سباق حرون، مكرراً نفس الحركات التي تأتيها، ونفس الكلمات التي تخدش الدماغ. وجابه رؤساءه ذوي النبرات التي تكشف عن خيانتهم على غرار ذلك الذي يتبختر الآن إلى جانب رئيس الجمهورية الفرنسية، في قلب المنصة الشرفية بزيه التقليدي، ورأسه المحاط بألف لفة من شاشه الأبيض الناصع، وبرنوسه ونعليه الصحراويين. الملعون! لقد تصنع الاهتمام بالمقابلة الكروية في حين أنه يجهل أبسط قواعدها، مثل هؤلاء الرسميين من ذوي البطون المنتفخة وحافظات النقود أو الوجوه العابسة. أجل، لقد ابتلعته الساعات الجدارية المنكفئة على شكوكها الحسابية في ذلك المصنع، وأجهزة توقيت العمل وتوبيخات الرؤساء وقذارات المهنة، والأتعاب والأحزان والهموم والعزلة والضرر والصخب والمرض والعنصرية والحقد والاحتقار والجرحى

المتضررون والأموات الذين لم يمسهم إحصاء. وخاطر بحياته في نفس المصنع، ثم إنه اكتشف مع رفاقه ماهية السياسة والتاريخ، وبوجه أخص تلك الآلة الرئيسية التي تحرك هذه المفاهيم التجريدية: العمل، الممارسة الثورية النضال إلخ... وراح يمضي سحابات نهاره وهو يخشى أن يفقد أصابعه ويديه وساعديه وساقيه ودماغه ورئتيه وأطراف جلده التي قد تظل عالقة بأسطوانة ما أو بقطعة أخرى من الآلة. وتعلم السكر والتدخين والولع بالكتب السياسية والمجلات الثورية والقضايا القومية... ولما لم يرق ذلك المصنع في ناظريه، غادره لكي يجرب حرفة البهلواني فكاد يسقط من أعلى رافعة من الرافعات نتيجة لتشقق يديه بجليد الألزاس لولا أنه دفعهما إلى الأمام بحركة غريزية حتى لا ينشرخ عموده الفقري على الأسمنت المسلح الذي كان قد صبه بنفسه خلال النهار الفارط رغبة منه في اتقان عمله وفي تخريب الورشة الموبوءة في نفس الوقت. ولم يكن الهدف من تلك الورشة سوى بناء مجموعة من الجحور حتى يقحم فيها رجال وقعوا مثله تحت وطأة الاستغلال، وأغرقوا عجزهم وأحزانهم في ضباب البيرة والكحول فكان أن عقد العزم على هجرة ستراسبورغ على متن قطار ليلي متجه إلى باريس.

بقي في مكانه هادئاً يلقي على الجموع الهاذية نظرة يشوبها نوع من الاحتقار، ويحدق في الحركات الجماعية التي يأتيها الفريقان. لعل رباطة جأشه تلك عائدة إلى

المسدس الذي في جيبه وإلى الطمأنينة التي تسري عبر عروقه مثل الماء المثلج. فريق تولوز يهاجم خصمه باستمرار. ما أشد رغبته الآن في أن يبادر أحد اللاعبين الجزائريين إلى تسجيل هدف... هدفين... ثلاثة أهداف... وحتى يفهموا أننا قادرون على أي شيء... بما في ذلك القتل... حديد مسدسه بارد تحت يده الندية على الرغم من الحرارة الخانقة، الخوف يجمده... فريق تولوز يهاجم بواسطة إبراهيمي.. يخاطب نفسه: «إبراهيمي هذا.. استراتيجي حقاً.. لن يروه بعد اليوم في ملاعبهم... إنها المرة الأخيرة..» لكنه ليس متيقناً.. السياسة ليست من اختصاصه.. لقد اختار المبادرة...

«.. ينطلق في مبادرة من يوزع الأوراق ويعرف شغله. يمرر إلى الجناح الآخر، الفنلندي ريتكونين رقم 10 الذي يمرر بدوره إلى بوشوك رقم 11. بوشوك يعيد الكرة بقذفة متقاطعة إلى إبراهيمي فيعاود الانطلاق ويندفع وحده ويصل إلى مربع الخطر فيصوب الكرة إلى الأرجنتيني دي لوريتو رقم 9 الموجود في مكان قلب الهجوم، ويقذف هذا الأخير الكرة غير أن سابروجليا يبرز من حيث لا يدري أحد ويدفع الكرة نحو الزاوية في حين أن فراجاسي حارس مرمى أنجي يجري وراء ظله تاركاً مرماه وراءه. إنها الدقيقة الرابعة والعشرون. ركنية لصالح فريق تولوز. دي لوريتو يسدد ركنية قصيرة صوب ريتكونين الذي يأتي حركة

متأرجحة ويراوغ اثنين من الفريق الخصم ويمرر بكل هدوء إلى بوشوك الذي لا يراقبه أي لاعب. لكن هذا الأخير لا ينجح في تصويب الكرة وسرعان ما يستعيدها زميله درودر رقم 8 ليقذفها فوق رأس فراجاسي ويسجل الهدف تحت أنظاره...

فريق تولوز: 2 ـ فريق أنجي: صفر

... إنه راضٍ كل الرضا، لكنه يتمالك نفسه. ما أعظم سروره بما حققه كل من بوشوك وإبراهيمي! يلتقط من ذاكرته لحناً أندلسياً يتصاعد إلى دماغه ويستعيد صورة «ريمون» المغني اليهودي الذي أعدمته المنظمة لأنه ما انفك يدفع مستمعيه على الأخذ بأسباب التراخي والخنوع، لقد امتلك أسطواناته كلها، لكن يا للخسارة! أنذرته المنظمة ثلاث مرات.. وبعدها كان من الضروري أن تعمد إلى التنفيذ. أوقفت اللازمة الموسيقية في حنجرته.... «الخانة على السرة، والوشم على العانة، والعانة مشطوبة، بغرام مغارمية، عشقوا لي رومية». ريمون هذا كان مغنياً حقيقياً! غير أن الأوامر كانت صارمة. لقد خدروا الشعب زمناً طويلاً. وما أسرع ما نضب نبع الغناء. حتى العصافير كفت عن الغناء عند الأصيل. وأقفلت المواخير أبوابها بأمر من المنظمة ومنعت من فتحها مرة ثانية. وأمر القوادون بالتزام الاستقامة في سلوكهم بينما تحولت البغايا إلى نقاط اتصال، ومنع الكحول والحشيش والسجائر وفرض انضباط

صارم على الجميع. وحاول «ريمون» أن يكون فوق ذلك كله معتمداً على شعبيته فلم يقو على شيء لأن القاعدة كانت مطبقة على الناس جميعاً. وكل حكم بالإعدام يصير قابلاً للتنفيذ إذا لم يعتبر المحكوم عليه بالإنذار الذي يوجه إليه ثلاث مرات متتاليات... إنه يوجد هنا لهذا السبب بالذات... في هذا الملعب المكتظ عن آخره، الغارق في الهذيان.. الغناء ينطوي على الموت والرعشة.. إنها مجرد آثار ثانوية من الحرب الثورية.. لقد قتل «ريمون» «كراهة».. وبقي صوته: «وشام السرة والضرة مرة...» إنها حالة حرب، حالة حصار. أجيال بأكملها راحت ضحية لهذه الحالة... أبيدت عن آخرها.. ويظل الموت والرعاش يجوسان خلال الغناء.. شعر بالارتياح وهو يخاطب نفسه: «ليس بيني وبين «ريمون» أي شيء.. فأنا على أية حال لم أقتله.. وليس لي أي شيء ضد الباشاغا أيضاً. قد يكون ودوداً لكنه اتخذ خطأ معاكساً وصار متعنتاً...» أهو بهلواني أم قرصان؟ ليس يدري. الموج يتضخم. لوح التسجيل يلتمع وما أسرع ما يتحول رقم 1 إلى رقم 2 بفعل السحر. تولوز: 2 أنجي: صفر. كيف لا يكون راضياً عن نفسه؟ لكنه محكوم عليه ما في ذلك شك. ما العمل إذن؟ لن أطلق الرصاص من هذه المسافة. مستحيل! ينبغي أن أنتظر.. عليَّ أن أشاهد هذا الخليط من الألوان. الطقس لا يكون بمثل هذا الصفاء دائماً بباريس، هذه المدينة الممغنطة بتاريخها، المشاركة في نهب العالم

في وقت لا يقوى فيه المستعمرون ببلادنا حتى على بناء كاتدرائيات حقيقية. محطة للسكك الحديدية بعنابة، يا لذلك الهذيان الأرعن! ويا لذلك الخليط من الفن المعماري السوداني، ومن ناطحات السحاب النيويوركية! ومع ذلك فإن كل شيء يفضي إلى بناء أشبه ما يكون بعلبة سردين يضطلع طرفها بدور صومعة هزيلة. أهي ضحكات أم نوبات من الضحك، أم غضب مكبوت؟ لكن تمويهات هذا الكونشرتو من الأحداث تكنس ردود الفعل لبعض الوقت وتفسح المجال أمام آلات النفخ والصنوج والأيادي المصفقة. ويجن جنون هذه الأوركسترا من الأصوات البشرية فيتولد عنها جو لزج دبق تطلق فيه الوحشية الإنسانية العنان لمسلكها ولمصائرها، وتمدد هذه الميلودراما الكروية إلى ما لا نهاية. الرجال يبكون والنساء يغمى عليهن. أما هو فيظل جامداً لا يتزعزع! لكن الشرخ يتسع شيئاً فشيئاً بمرور الوقت وكلما ارتسمت في ذهنه تلك الخطوط الفحمية عن مسلسل الأعمال النادرة التي يتعين عليه أن يرقمها. وعلاوة على المقتضيات البديهية لهذا التاريخ الذي صار سيداً عليه وعبداً له في نفس الوقت فإنه يرضى بأن يتحمل هذا الصيحات التي تمور بكلمات لا يعرفها جيداً ولا علاقة لها البتة بهذيان هذه الجموع المنطلقة. إنه في حاجة إلى أن يجمع شتات أفكاره. في أي يوم نحن؟ (الأحد 26 ماي 1957). ما الذي آل إليه «جون»؟ (هذا الأمر لا يهمك. إنه من شغل المنظمة). هناك كلمة واحدة

تفرض الآن نفسها: الانتظار. ومع ذلك فهو يشعر بأن نسغ الحياة يعبر أقطار نفسه رغماً عنه. أما الباقي فليس إلا عبارة عن باليه بلاستيكي لا ينبغي أن يختلط في ذهنه بمسألة التحكم في العملية التي هو مقدم عليها. المقابلة الكروية، ليست إلا ذريعة، حكاية مزركشة الألوان بطبيعة الحال، لكن لها حدودها، ذلك أن المسألة الجوهرية توجد في مكان آخر، وهو يدرك جيداً أن الغلطة لا تعود إليه هو، محمد صدوق المدعو ستالين رئيس فرقة فدائية ومرصص يشتغل حالياً في الورشة التي سوف تتحول إلى مركز.. «ساكلاي» النووي. أجل، ليست غلطته إذا ما كانت حركة التاريخ قد احتلت هذه المسافة كلها، وجرفته في تيارها، واقتادته عبر الدوامات والتعاريج وطبقات الطمي وعقد الدم ووحل الوديان والروافد وهدير الأمواج القذرة لهذا التاريخ المجعجع في عروقه، كلا ليست غلطته إذا كان قد اندفع عبر المسالك الطينية والدروب الموحلة المحملة بمثل تلك الدلائل والأعمال والمضايقات والإعدام شنقاً في الساحات العمومية وعمليات الحجز المهولة، والجرائم المشبوهة والاغتيالات والمذابح والمشاعر المسحوقة، كلا، إن ذلك كله لم يتوقف منذ طفولته في أنحاء عنابة عن إغراق نخاعه بوشوشة الدم الذي يشق العروق المتجمدة ويحول آفاقه الذهنية الأصيلة إلى عجينة مسحوقة مسلوقة عبر جزيئات النور وذرات الغبار. ويشعر في قرارة نفسه أن ذلك الماضي لا يزال مشرباً برائحة نهر

السيبوس الطينية، هذا النهر الذي يقطع عالمه ويفرض حدوده منذ أن كان طفلاً يعايش طيور البحر ويترصدها على أطراف الميناء في قلب الشتاء ويتأمل أجواء الخليج وهي تصير بالغة الرطوبة فتحول قصبة الرئة إلى ورق شفاف والأهداب إلى غدد منتفخة متقيحة. يا للشتاء في مسقط رأسه على أطراف الشاطىء، وبين الوادي الموحل والبحر المتلألىء، ويا لذلك البخار الذي يمكن أن يلوى مثل غسيل مغطوس في مياه العذاب الآسنة قبل أن ترفع السفن مراسيها أو تنشر قلوعها تاركة وراءها أهل البلد وهم يصطفون أمام مكاتب التشغيل في ذلك الصباح الغائم. هو ذا يخاطب نفسه: «كلا، لا ينبغي أن أشعر بالذنب، رصاصة واحدة تكفي. تلكم هي القاعدة التي تطبقها المنظمة في حق الخونة. ينبغي أن أسدد الرصاصة إلى الصدغ...» وتنزلق الذاكرة مرة ثانية في الوقت الذي تتواصل فيه المقابلة الكروية. وينطلق صوت المعلق ليعلن بأن النتيجة لا تزال في صالح فريق تولوز: هدفان مقابل صفر. إنها دوخة التاريخ الذي راح يزخم أنفه وإن هو لم يكتف بقراءة هذا التاريخ، بل تعلم كيف يفك رموزه وشفراته مستنداً في ذلك إلى الروايات المتعددة المتناقضة.. لقد تخرب البلد. جاء الأتراك أولاً ثم تبعهم الفرنسيون!... كلا.. زعم الرواة أن قرية أبيدت عن آخرها.. هناك الغزاة الأسبان بطبيعة الحال.. عذرهم أنهم كانوا يريدون الأخذ بالثأر... لم يكتفوا باسترجاع

الأندلس. ضاعت ألف قرية فيما يقال... جرفها الفيضان كما تقول الرواية الرسمية... ألف قبيلة موشومة أبيدت عن آخرها.. بسبب الأوبئة.. والحقيقة أنها أحرقت حية.. دفنت في المغاور والمهاوي. ثم ماذا عن تلك الأكذوبة التي يزعم أصحابها من الأجانب أنهم عرفوا كيف يروضون الأنهار، ويطهرون المستنقعات الدبقة الموبوءة! آلاف الموتى... أجل.. في حين أن مداخل المدارس المزينة بالنقوش وبوابات القصور والبيوت استخدمت كحطب للتدفئة تحت أنظار العساكر الذين حموا هؤلاء الرعاع والأوباش. أما الذين نجوا من تلك المذبحة فقد ألقي القبض عليهم مثل السمك الساذج الذي يقع في حبائل الاستراتيجية العسكرية. وقد روضوا وسخروا عن طواعية لحفر الخنادق، وبناء الحواجز والسدود وتوسيع مصبات الأنهار وهدم الجبال وشق الأنفاق لفائدة المستعمرين من صعاليك المدن المجذومة ومن القتلة الذين أخلت المقصلة سبيلهم ومن المزارعين البؤساء الذين يتطحلبون في الغبار، ومن المقملين الذين تضج بهم عهود المجاعات الكبيرة ومن التجار الذين أفلسوا بسبب الربا وارتفاع نسبة الفائدة وغيرهم من أصحاب الكروم والدوالي التي نهشتها الأرضات والقمل ومن متخلعي إسبانيا والمشرق ومن يهود ليفورن ومرسيليا الذين نجوا من محتشداتهم ومن جشعي العالم الغربي الباحثين عن أراضي خصيبة ومن الثوار السابقين الذين أداروا ظهورهم للتاريخ ومن رجال الكومونة

المنبوذين الذين انزلقوا فوق حبال القدر. وخلاصة القول أنهم من تلك البشرية الهزيلة الشعثاء التي اكتشفت بلد الجاكارندا وزهرات العسل وسهول القمح والشعير والذرة وتلال الدوالي والكروم وقصور البلور والشاي بالنعناع. . إنه لا يزال في مكانه هادئاً لا يريم. . يلقي نظرة على المقابلة الكروية ونظرة أخرى على كتب التاريخ. لقد انتهى أمر تلك القماشة المرقعة من الحلم المنفوش. والبشرية توشك الآن على قلب مشكاة العالم القديم. ثم إن ذلك الكابوس الذي اصطبغ بحمرة الضحاضح والسيول قد دام وقتاً طويلاً. لقد آن الأوان لاسترجاع أشرعة السمت المزركشة بالضباب والبخار والأنسجة المبرقشة. وحان الوقت أيضاً لتجفيف الدماء باللجوء إلى الاستطبابات القديمة والمسدسات والسكاكين. وترسم ألواح طفولته الندية خطوطاً طويلة زجاجية على الحبق الذي تسقيه جدته وتعتني به وتخصبه. يا لتلك القراءات الكشفية عن الطمي المتجمع طبقة طبقة حيث تتسلسل هياكل التاريخ وبدايات العالم وحيث تحوم طيور هائلة ترتوي من مشاهد القيامة ومن الطوفان. . . قال لنفسه ها نحن نعود الآن بعد محاولات عديدة وضروب من الأخفاق. 1954. مدينته المصفرة. . النخيلات. . السأم الاستعماري. عنابة لا تفوح بتوابل آسيا ولا بحرير الشرق الأدنى ومع ذلك خابية حبوب، ومرفأ بحري ومركز تجاري فينيقي. ثم تحولت إلى حاضرة رومانية في «هيبونة» المتشابكة، وبعدها إلى مدينة

عربية بدروبها ومسالكها التي يحرق بها لبان مالي وصبر مدغشقر وسولان السودان. وجاء الأتراك فتزاحمت الألوان والإيقاعات والأصوات، وتمازجت في صخب الصدمة الهائلة التي يحدثها الموت عندما يأتي ليلوّن الحياة بزعفران الحداد وينسخ معاني الشرخ والانكسار وأساليب الاستيطان الأمبراطوري. وأخيراً جاء دور الفرنسيين لكي ينهشوا حدود كل ما هو بشري ويهمشوه ويغربوه عن واقعه ويخلخلوه محدثين في ذاكرة البلاد التي لا يزال أهلها قابعين في شعاب الجبال أو في الصحراء فتحات وأخاديد واسعة على غرار تلك الحيطان العارية المصقولة التي يتقوقع بداخلها جنون بارد جامد واضح التقاطيع، صارمها...

... فريق تولوز هائج في هذه اللحظات، منغمس في اللعبة بسرور غامر، صيحات الفرح ترتفع من الصدور المشربة بتهاليل المجد، قذفات كروية قصيرة خاطفة عبر مسارات عادية، علائم جديدة ومسح شامل لأرضية الملعب، ضربات متقاطعة، ضربات بالرأس، تمريرات سريعة، قذفات بهلوانية، تصويبات بين الأقدام وعلى الجوانب، تغيير للكرة والأمكنة، صعود وهبوط، حركات مقحمة، دوران في عين المكان، مخادعات ومخادعات مضادة. لم يعد الجمهور يحتمل. النتيجة لا تتغير والرفيقان رقم 7 ورقم 11 أي إبراهيمي وبوشوك يتمازحان بضرب النظريات الكروية الصارمة وتفكيكها جاعلين الكرة تأتي لتلتصق بقدم اللاعب كأنما هي ممغنطة. النتيجة لا تتغير!...

الدقيقة الثالثة والعشرون من المقابلة. لا يزال هادئاً في وجه هذه الأهواء العاصفة. المسدس كامن في مأمنه. يتساءل كيف ينبغي عليه أن يوجه ضربته لهذا الباشاغا الذي ظن أنه من السهل الاستهزاء بالمنظمة. خدعوه حينما رحوا يجلسونه بكل أبهة إلى جانب رئيس الجمهورية وحرمه. ليس إلا صرصاراً صعدوا به متخابثين إلى قمة التكريمات الزائلة، وزينوا صدره بألف وسام، واشتروه بمبالغ طائلة، ونقلوه من وسط الرعاع إلى الرسميات الجمهورية مثل مومياء داخل تابوتها وبلفائفها المتعاقبة. لقد جمدوه ومعدنوه وهفهفوه ودوخوه وتركوه يذهب حتماً إلى نهايته مثل تلك الجعران التي تنزلق قوائمها في لعابها الدبق. صدر عليه الحكم بالإعدام بعد الإنذارات الثلاثة. وها هي الآن اللحظات التي تسبق التنفيذ الإجباري في حين أن الدوائر فوق أرضية الملعب تتجمع وتتكسر في جو من البيارق المحمولة والأناشيد المندفعة من الجموع الراعدة كأنما هي أغانٍ دينية يتردد صداها تحت إحدى القباب فتشدخ الأعمدة الفقرية. ويتسطح ضوء النهار أمام ظلال اللاعبين المهاجمين ويلتصق بأبدانهم وبالقمصان التي لا ينقصها إلا أدوات الشد التي تستخدم لجذب عضلات هذه الأجساد المنطلقة من عقال، المتفجرة، السكرانة، المحبوسة، المرتعشة البهلوانية، المسرنمة، وينزلق ذلك كله عبر الفرج والمجالات المعشوشبة التي تدوسها أحذية

اللاعبين العنيدة في قلب هذا الضياء الذي يتحرك ويرتعش وينكمش في خشونة وجفاء عند حدود الألوية المنصوبة في زوايا الملعب الأربع. وتصطفق هذه الألوية مثل موسيقى عسكرية تصم الآذان وتجلدها أو مثل تحدٍ للتقسيم الزمني ولقياسات الأنواء ولكل ما هو منضبط، ثم تتداخل خطوط القدر الخيالية منها واللاواقعية مثل قطعة من الحرير المزيف نتيجة لانعدام اليقين في حين أن المغلوبين يبادرون على حين غرة إلى احتلال أرضية الملعب في وجه المنتصرين. وتنقلب الأوضاع والهندسة المعهودة في المحيط ويصير من الممكن التطفل على ما هو واقعي وتنظيم التحول في هذا الواقع نفسه من مبدأ اللاتوازن نفسه ومن انعدام الجاذبية ومن الهذيان. غير أن الساعة الجدارية ما فتئت تنهش وقته الثمين، في حين يظل موزعاً بين الرغبة في تركيز فكره والبحث عن مخرج من هذه الوضعية التي لم تكن منتظرة ولا متوقعة والإجابة عن السؤال الذي بقي مستحوذاً على ذهنه: لماذا تراجع «جو» في آخر المطاف وغرق في بحران الغياب؟ عين تمسح أرضية الملعب وعين أخرى تترصد المنصة حيث يبدو له بين الوقت والآخر جذع الرجل الذي يتعين عليه أن يقتله. هذا الجذع يظهر ويغيب تبعاً لتحركات الرسميين الجالسين على كراسي وثيرة مذهبة الأطراف مفروشة بالمخمل الأحمر. ويميل بين الفينة والأخرى بطريقة مجاملة إلى جانب رئيس الدولة الذي يغيب وجهه تحت ظلال قبعة زوجته ذات الأطراف الواسعة المرشوقة

ببنفسجة وحاشية معقودة تمثل بلا شك طائراً أو زهرة أو ريشة أو شيئاً سخيفاً لا يستطيع أن يميزه على هذه المسافة لا سيما وأن أنظاره تصطدم بشعر امرأة فتية جالسة بصورة مائلة وبقفا رجل رياضي ضخم الجثة أنيق الهندام قابع وراء كرسي الشخصية الرئيسية في هذا المجتمع المتقادم، وقد بدا عليه أنه واحد من الحراس دون أدنى شك. ثم إنه سمع جاره يطلق صرخة في حين أن الجمهور تمالك أنفاسه لأنه حدس ولا شك أن أحد الفريقين يوجد في وضعية التسجيل لكنه أحجم عن التحديق في أرضية الملعب وركز أنظاره على المنصة الرسمية المكتظة عن آخرها بالموظفين السامين والضباط المتثاقلين تحت سلطتهم وأوسمتهم. والكونتيسات العجائز المشروخات بتقلبات الزمن الذي عبرنه من بدايته إلى نهايته. والنسوة الجميلات ذوات الظهور البرونزية العارية اللائي يشعرن بسأم قاتل دون أدنى شك وإن كن يتحفزن لمجرد أنهن في قلب السلطة قريبات من القوة ومن المال، وقد جئن إلى الملعب مع أزواجهن لكي يضطلعن بأدوارهن في المراكز الشرفية وكأنهن زهور للتزيين أو أشياء ثمينة مبهرجة حتى يسمحن لأزواجهن الفتيان الجشعين ذوي الشعور المصبوغة بأن يحصلوا على مناصب في السلك الديبلوماسي والإدارة والشؤون وغيرها...

تساءل في قرارة نفسه عن الشيء الذي يدفع الإنسان إلى الخيانة وخاصة عندما يدفع إنساناً آخر إلى رفضها وإلى

إرجاع الحق إلى نصابه. وما أسرع ما سيطرت عليه الرغبة في أن يروي حكايته لنفسه ويعيد تشكيل ذاته حتى تكون له رؤية واضحة عن الأشياء والتي يتعين عليه أن يضطلع بها والأعمال التي سيقوم بها والحركات التي سيتخيلها، ويضع خطوطها قبل الإقدام على إنجاز مشروعه. وهكذا يتعين عليه أيضاً أن يستند إلى بعض المقابلات اللفظية حتى يقولب فكرة مبهمة يريد تحقيقها مهما كان الحال كأنما هو يخشى أن يفيء إلى نفسه قبل أن تنطلق الرصاصة وتهشم صدغ ذلك الشيء البشري الملفوف في أثوابه الفضفاضة وفي برنوسه الصوفي الخام، أو أنه يخشى من أن يجد نفسه وجهاً لوجه مع ذلك الشيء الغامض الذي لا علاقة له البتة بالخوف بل بتلك الحركة التي تتمثل في إطلاق رصاصة من مسدسه على إنسان غارق في كتلة بشرية من 43125 متفرجاً ومن بعض المئات من الرسميين والمدعوين ومن العشرات الذين يتعاملون مع المنظمة ومن اللاعبين الاثنين والعشرين ومن الحكم ومن مساعديه فضلاً عن المحتالين الذين لا مفر منهم والذين هم أضخم عدداً مما قد يخطر على البال في مثل هذه المقابلات على الرغم من تقوية صفوف الحراس ومن سد جميع المنافذ. ولأنه يخشى ألا تخلف تلك الحركة أكثر من الآثار التي يخلفها حلم يعجز عن استعادته في يوم من الأيام. اللهم إلا أن يكون الأمر كله قائماً على رغبته في تأمين حياته ومن ثم فهو يدفعه إلى التفكير في مثل تلك الأشياء مؤملاً أن يتسع

نطاق عمله وأن يفرض وجوده بعد أن يكون قد تقولب في شكل حكاية داخلية صميمة بالكلمات التي يكون قد اختارها دون حاجة إلى حركاته وسكناته، بل إلى خياله فقط وإلى جسده المهترىء بسبب الترصيص المجفف بنيران التذويب وعظامه الهشة وقامته القصيرة. لكأنما يريد بذلك أن يقذف بعنفه كله، ذلك العنف الذي لم يتراكم منذ بداية الانتفاضة فحسب أو منذ انضمامه إلى فرقة الفدائيين بل منذ عهد بعيد، منذ طفولته أو ربما قبلها، وقبل أن يدرك أنه منفي في بلاده، مهمش في كوخه القصديري، منبوذ من المجتمع الغربي ومسحوق بتطاولاته وعنجهيته. بدأ الأصيل يزداد صفاقة بغشاوته المتهدبة قبل أن يجن الليل، بل وقبل نهاية الشوط الأول من المقابلة، ذلك أن الساعة لا تكاد تتجاوز الخامسة واثنتي عشرة دقيقة. المقابلة في الدقيقة الثالثة والعشرين والنتيجة لا تتغير: تولوز: 2 ـ أنجي: صفر. اللاعبون يواصلون مراوغاتهم ومقالبهم في حين أنه يسبح في جفاف يساهم إلى حد كبير في نحافة العامل الواقع تحت وطأة الاستغلال. على أن الشمس وهي تغرق في المدرجات في هذه اللحظات تبعث ببعض الحيوية إلى بشرته وهذا ما يجعله جامداً في مكانه بل ومستعداً لكي يمرر تلك الحيوية عبر شفافيته وشفافية العمل الذي هو مقدم عليه بعد أن جزأه إلى حركات متعاقبة مفصلة إلى أدنى حد، وجمعه ضمن عناصر متوافقة قاطعة محددة، وقرر أن يسير به رغماً عن أنفه إلى النقطة النهائية التي تعيد

إليه توازنه وكبرياءه، وصفاءه الذهني. وإذا كان عقله الشارد يتذبذب بين الفينة والأخرى فإنه مع ذلك يواصل التفكير بطريقة ذكية صميمية في آن واحد كأنما قد وضع في جسده رصاص التوازن الذي يقحمه الإنسان داخل مخه في معظم الحالات. أما عن كتله الدوائر والأشكال الإهليلجية التي تتداخل أمامه فوق أرضية الملعب فإنها تتفتح في أشكال حلزونية مطاطية تغرق في طبقات ذاته المتعاقبة المبهورة بما يراه من فرحة غامرة، الواقعة تحت رحمة الطمأنينة واليقين في حين أن الفريقين لا يزالان يتابعان مخاضهما الجنوني الداحر. ومع ذلك فإنه متأكد من أن الباشاغا البدين المقروح المرعب لن يستعيد وعيه أبداً إلى أن يموت، لا ولن يرى الخلود ثانية، لأن الوشم يكون قد ارتسم على صدغه ولأنه يكون قد عبر مراحل الغيبوبة والاحتضار. لكن نتيجة المقابلة لا تزال على حالها. وصوت المعلق في الراديو القريب منه ينكسر وهو يردد أن النتيجة لم تتغير وأن فريق تولوز لا يزال يسيطر على المقابلة بهدفين مقابل صفر. وهما الهدفان اللذان سجل أولهما «درودر» في الدقيقة الحادية عشرة وثانيهما نفس اللاعب في الدقيقة الرابعة والعشرين.

4

تولوز: 3 ـ أنجي: صفر

كان السجين رقم 1122 منطرحاً في مضجعه ينتظر المحاكمة. حدثت بلبلة حين وصوله إلى السجن، ذلك أنهم نقلوا الأثاث والسجناء لكي يمنحوه أكثر الزنزانات عزلة وأشدها انغلاقاً على العالم الخارجي، وما ذلك إلا لأنه يعرف الترصيص وما إليه. وحولوا ألمانياً عجوزاً عن مكانه إلى جهة أخرى. وكان هذا فيما مضى مختصاً في التقتيل الجماعي وجلاداً يعشق الحلويات والسكريات. زنزانته موضوعة تحت حراسة مشددة. إنها الزنزانة التي نقش «بييرو لوفو» قصائد الحب الأخيرة على جدرانها قبل أن يفصلوا رأسه عن جسده. ثم احتلها بعد ذلك الإعدام المشهور في الحوليات القضائية، ذلك النازي العجوز الذي تضايق لكونهم حولوه عن مكان تعود على مساحته الصغيرة الهادئة التي كان يقضي بها سحابات نهاره في مطالعة الكتابات الهتلرية وفي الاستماع إلى اللازمة الموسيقية التي تنشدها ليلى مارلين، وأفسح بذلك مجاله المفضل لرجل

من الجنس السامي ومن أصل عربي عريق. يا لسخرية التاريخ! ويا للجنون البيروقراطي الأرعن في هذا السجن الذي لا ينكفىء على ذاته بل ينغلق انغلاقاً تاماً على طريقته في تجسيد مصائر البشر حيث لا يحق للتناقضات أن توجد على الإطلاق ولا للاستغراب أن يفرض نفسه. حقاً، هناك فرق كبير بين «بييرو لوفو» هذا الصعلوك العبقري وبين العجوز الألماني الذي يضع حبة من الحلوى في فمه باستمرار، لكن وجب التحايل عليه لإدراج السجين رقم 1122 الذي لم يفعل أكثر من أنه نفذ حكم الإعدام في خائن بدأت تحركاته تطرح بعض المشاكل. انقلبت المواقيت رأساً على عقب، واتخذت الحيطة لنقل فونوغراف قديم معقد يزدرد المقاطع الموسيقية التي تحن إلى عهد ليلى مارلين. والحقيقة أن السجين رقم 1122 كان ضيفاً مرموقاً وإن تجاوزته الأحداث حتى أنه لدى وصوله إلى زنزانة «بييرو لوفو» السابقة نام ثماني وأربعين ساعة دفعة واحدة. وما أسرع ما حظي بتقدير سجانيه وفئران الزنزانة وصراصيرها، وصعاليك السجن والمحكوم عليهم بالإعدام وأعضاء منظمته الذين تجندوا حين مقدمه وأقاموا الأفراح بينما ظل غارقاً في نومه، بعيداً عن عالمهم، مبحراً مع رؤاه في دنيا من الفخفخة والصخب.

«ولد محمد صدوق المدعو ستالين سنة 1931 بعنابة، وكان عضواً في الكشافة الإسلامية الجزائرية، وهو يحمل شهادة

التأهيل المهني في الترصيص. جاء إلى فرنسا لأول مرة سنة 1955، وبالضبط في الثالث من شهر مارس. أقام بستراسبورغ قبل أن يستقر به المقام في باريس. كان يعمل عند «ساركلاي» إلى يوم أن ألقي عليه القبض. مقره الثابت: فندق جرجرة رقم 17 نهج سان جاك، باريس الدائرة الخامسة. أدى خدمته العسكرية في عنابة سنة 1949. ونظم وهو في الخدمة إضراباً للاحتجاج على ذهاب الجنود الجزائريين إلى تونس، ثم أرسل في فيلق تأديبي إلى تلمسان سنة 1950، ينكر أية مشاركة له في منظمة إرهابية، ويعلن أنه قام بمبادرته من تلقاء نفسه ويعترف بأنه قتل برصاصة من قالب 7,35 الباشاغا محمد شكال في ملعب كولومب يوم الأحد 26 ماي على الساعة السادسة وسبع دقائق». انتهى التقرير الذي وضعه محافظ الشرطة المحلي.
ظل السجين 1122 متمدداً في مضجعه بالزنزانة رقم 63 من سجن «فرين» منتظراً أن تبدأ محاكمته في حي السجناء الموضوع تحت الحراسة المشددة حيث لا يوجد إلا المحكوم عليهم بالإعدام. وما أن سمعت والدته بنبأ إلقاء القبض عليه وأدركت هول الفاجعة حتى أغمي عليها، ثم إنها جلست تحت شجرة الزعرور، وقر رأيها على ألا تطلق العنان لدموعها بل أن تحسب حساباً للأهمية التي نالها وحيدها. وطفقت تنتظر التابوت المختوم الذي سبق العديد من جاراتها وأقاربها ومعارفها أن استقبلوا مثله. ولم تبارح

شجرة الزعرور التي تضرب بجذورها بين صفائح الحي القصديري حيث ينتصب كوخها الموبوء نتيجة لقربه من نهر السيبوس. وراحت تنظم نفسها لنفسها ليس إلا، ضاربة صفحاً عن تلك التضاعيف القاتلة التي توجد عليها ذاكرتها المشربة بالبؤس والعمل المرهق. ونشأ في عالمها ما يشبه لعبة من لعب المرايا والأدراج، ومشاهد الحنان والعطف والذكريات التافهة والحركات التي يأتيها طفلها الذي ما فتئت تربيه، هذا الطفل الذي ابتز منها ابتزازاً، وأقحم في الثكنة ثم نقل إلى تلمسان في الطرف الآخر من جغرافيتها الشخصية. ذلك أنه ما كان في استطاعتها أن تتخيل عالماً آخر وراء حدود الحي القصديري الذي ما تجرأت يوماً على اجتيازه حتى في الأيام التي زاغت فيها بقرتها وانطلقت لتشرب من مياه الوادي. ولما كانت تخشى هذا العالم الغريب الذي يحمل في أطوائه جميع أشكال الشراسة والعداء، فإنها آثرت الجلوس على صخرة منتظرة عودة بقرتها «رابحة» المهووسة، الحلوب. لقد كان لها الكثير مما تعمله داخل تلك الدائرة المتليفة الجريحة التي تتألف من تلك الأكواخ المتراكمة المتداخلة بصفائح الزنك والمنغنيز والقصدير. وكانت تقضي سحابات نهارها في الجري وراء بقرتها، ذلك المخلوق الوحيد الذي يعيش بكل حرية وسط تلك النفايات البشرية دون عائق أو رباط. ثم إنها تلهث وراء الزمن دون أن تقوى على حصره ضمن

حدود صارمة لأنها تفتقر إلى القدرة على جعل الجغرافيا مقصورة على معالم لا ينبغي تجاوزها. وفضلاً عن بقرتها، انشغلت بغسيل الآخرين وبفتل الكسكسي وبفلاحة تلك المساحة الضئيلة من حديقة محدبة جدباء معشوشبة خلفها لها زوجها مع ابنها الوحيد. حقاً لم يسعفها الوقت لكي تراه يعود من الثكنة ذلك أنه سرعان ما انطلق على متن باخرة، وما كان في وسع تلك الباخرة ذاتها إلا أن تعيده إليها جثة هامدة داخل تابوت مختوم. وما أن انتشر الخبر حتى صار ابنها بطل الحي القصديري والمدينة والبلاد كلها. وحملت النساء صورته في قلادات تتأرجح بين أثدائهن بينما قص الرجال صورته من الجرائد التي لا يحسنون قراءتها...

ما انفكت مسعودة صدوق تستعرض بقايا ذاكرتها منذ إيقاف ابنها، مسترشدة في ذلك بإيقاعات الزمن. وعلى الرغم من أنها في سن متوسطة إلا أن شعرها الفاحم قد شاب تحت ثلج الأحزان. على أنها عقدت العزم على أن تجابه حدادها ذاك، فكان أن صبغت شعرها بالحناء تاركة بعض الصفرة تنعكس على خديها وعلى رأسها عندما ينكسر النور على ضفائرها المنسرحة ويجدلها بخشونة مما يعطي لتمردها ذاك نوعاً من العظمة التي تنظر بعين الاحتقار إلى ما سواها. وقررت ألا تبكي وألا تبرح شجرة الزعرور إلا لتخيط نفسها بأشيائها الخاصة التي تذكرها بعض التذكير برائحة ابنها وبأنفاسه عندما يقهره سلطان النوم. وكانت

الأواني وصور أسلافها وزوجها وابنها تبدو وكأنها تحتل أمكنتها الملائمة في كوخها، ذلك أنه قد بدا لها أن الزمن تنصل من تسلسله وطبيعته المتعاقبة وتقاطعاته يوم الأحد 26 ماي لكي يساوق طغيانه المقطر في مغاسل التاريخ، المرقق، المعصور كالأثواب المهترئة التي تعودت غسلها لكي تقوم بأودها، لأنها ما كانت في حاجة إلى أن تتحدى الساعات الجدارية ثم إنها لا تعرف كيف تقرأ الزمن عليها، وهي ساعات ما كان يوجد منها إلا نسختان أو ثلاث نسخ وسط هذه القاذورات البشرية. لكن تقلبات التاريخ حشدت تلك الإنسانية المغلوبة على أمرها في حين أن الإدارة الاستعمارية أطلقت عليها اسم «الأندجين» وامتنعت مسعودة عن استبدال شخصيتها، ذلك أن نسوة الحي اقترحن عليها ذلك بكل لطافة ومودة، وكأنما أرادت بموقفها ذاك أن تضع حداً للتيه الذي وقعن فيه وتكفيهن شر التمعش والنقلات التي لا تنتهي. ولم يعد للأموات والأحياء من كثافة أكثر مما كانت عليه فيما مضى حتى في ذلك اليوم الذي خدعها حانوتي غبي وباع لها قطعة من حجر الشب ولفها في ورق صحيفة تحمل صورة ابنها. أما وأنها لم تعد تبتعد عن شجرة الزعرور النابتة في فناء مغبر قذر تسفعه الريح والعفن، فإن بروز الأحياء والأموات في ذاكرتها لم تكن له أية علاقة بعنف الماضي الذي يجتاحه الألم واليأس، إلا أن صور أسلافها، واللوحات الفحمية الساذجة التي تمثل صحابة الرسول وصور رجالها الثلاثة الذين مات

منهم اثنان واستعد ثالثهم للموت ما زالت تخلف في حياتها بعض الانطباع الذي يسمو على الهشاشة التي آلوا إليها. وعلى الرغم من أن كل شيء جعل يلوب أمام ناظريها، إلا أنها ما كانت تشعر بأنهم أشباح بل أشياء ملموسة لا تصدأ ولا تبلى بمرور الزمن مهما كانت الآثار والندوب ومهما كان القرار الذي يصدره الجلاد في وقت لاحق. وما أسرع ما كتب ستالين بأنه فخور بزي السجين الذي يرتديه وبرقمه 1122 وبزنزانته رقم 63 على الرغم من كوابيسه وأحلامه التي يرى فيها الرجل الذي نفذ فيه حكم الإعدام وهو يشكو من شدة البرد في مقبرته الفرنسية، ومن ثم فهو يحب أن يأتيه أحدهم ببرنوسه الشتوي. أنهى كتابة رسالته الأولى إلى أمه مستذكراً أيام كان يجلس على عتبة كوخهم لكي يرقب هبوط الليل إلى أن يدق ناقوس النوم دقاته المغبشة المتباعدة. وعاد بأمه إلى سنة 1940 عندما مات والده من أجل فرنسا في وحل «الأردين» دون أن يتجاوز هو التاسعة، وبالضبط إلى سوداوية الأيام الثلاثين الممطرة التي أغرقت قدميه العاريتين في الطين على الدوام، ذلك أنه مهما فعل ومهما كان الطقس فإن قدميه تخوضان في الوحل حين يذهب إلى المدرسة أو حين يلعب بالخذروف. وتقبله أمه حينئذ حتى لا تعلن عن حدادها على زوجها وتغتنم فرحة الطفل المداهم بسبب رداءة الطقس فتكبت ذكرياتها وتتمالك دمعها بالكبرياء المعهودة فيها فتبدو رهيبة أمام أنظار الأرامل اللائي فعلن المستحيل منذ انتفاضة تلمسان

سنة 1911 لكي يحلن دون سقوط أزواجهن وأبنائهن في شراك التجنيد الفرنسي. على أنها في حقيقة الأمر تمسح من ذاكرتها كل ما من شأنه أن يعيد الزمن إلى الوراء ويرجعها إلى السنين السالفة، وكل ما من شأنه أن ينفخ الذكريات ويردها إلى تلك الرؤى المصطرعة بالأجساد المشوهة الغارقة في أوحال السهول المترامية وحيث السماء تبدو وكأنها تتهاوى على الأراضي الطينية من شدة المطر وسيطرة اللون الرمادي. أما وأن فرنسا تستعد الآن لكي تقتل وحيدها بعد أن غرست عظام زوجها في مستنقعات الشرق وأعدمت أخاه الشيوعي وهو يتفتح مثل الحبق، فإن الزمن قد تحول في ناظريها إلى قناع جلاد تنبعث منه كلمات مختنقة لتعرض عليها نعيم الخلود. حتى الميدالية التي منحت لزوجها بعد وفاته جعلت منها جرساً في أعناق البقرات التي ربتها الواحدة بعد الأخرى. واستعدت في انتظار الحكم أن تكيل الصاع صاعين إذا ما تجرأ أحدهم وأرسل إليها ذات يوم ميدالية تمجد بطولة ابنها. ليست من طراز النسوة اللائي يعشقن مثل تلك الترهات وليست في حاجة إلى وسام لا يعمل إلا على تحجير الأحداث وتجميد آثار الأحياء. أقصى أمانيها هي أن يظل ابنها نشيطاً ممتلئاً حيوية ترن ضحكته مثل لآلىء تصطدم بفقرات ظهرها. ذلك أنها أعجز ما تكون عن رؤية زوجها يعود إليها مع ابنها الذي افتقدت حتى غبار عظامه. وراح الزمن ينشرخ في فمها بينما جعلت الوقائع والأحداث تجرجر نفسها عبر

المساحات المشققة لهيكلها العظمي المتداعي، في انتظار المحاكمة التي ما كانت ترغب في حضورها على الرغم من إلحاح جيرانها وإلحاح المنظمة نفسها. وتواتر الزمن في ناظريها وفقاً للحركات البطيئة التي يأتيها لاعبو الورق الصامتون الذين كانوا يجلسون قبالتها منذ الصباح الباكر لكي يؤانسوها في حين أنها تكون قد اتخذت مكانها عند طلوع الفجر تحت شجرة الزعرور ذات الجذور العريضة المعقودة. وتتأثر حينها لقلة الأحاديث بين هؤلاء اللاعبين الشيوخ الذين آلمهم حزنها ذاك فشق عليهم أن يقلقوها بسبحاتهم وبكلمات المؤاساة وبتلاوة الآيات القرآنية الدالة على الصبر والمصابرة وبأقاويلهم عن حتمية الموت وخلود الشهداء، وما ذلك إلا لأن الشيوخ يدركون أنهم في وضعية لا تؤهلهم لنشر مثل تلك السخافات عن حزنها وشقائها في وقت بلغوا فيه آخر المطاف وما عاد في صالحهم أن يضيعوا الحيوية التي ما زالت تصطخب في أعماق فتاها ذي الخمسة والعشرين ربيعاً. وما تجرأ أحد منهم على أن يتفنن أمامها في تفصيل بطولات الآخرين أو المتمردين على السيطرة الأجنبية بدءاً بـ 1830 ومروراً بـ 1849 و1871 و1881 و1911 و1945 و1954. لأنها ما كانت تريد أن تجمع العديد من الأشباح، بل اكتفت بشبحي زوجها وابنها ووافقها على ذلك جميع جيرانها. وعملت المنظمة على إيصال رسائل ابنها إليها والمبالغ المالية الضرورية للقيام بأودها. وجاءها ذات يوم مبعوث من

المنظمة ليخبرها بأن رئيس الحامية العسكرية يتهمها بإخفاء الأسلحة، ومن ثم فإن عليها أن تغادر شجرة الزعرور لكي تخصص استقبالاً لائقاً لذلك الخادم الاستعماري ولأعوانه القذرين. وفعلاً جاءها ملازم من فصيلة الرماة متخرج من مدرسة ضباط الأهالي يرطن بالعربية ويصحبه ضابط آخر يدعى «لاشوميير»، وما لا يقل عن ثلاثين عسكرياً من الفتيان المرد، واستأذنها في أن يفتش الكوخ. وكان صوت مسعودة حين انطلاقه أشد وأقوى من أية صفعة، لكأنما اندفع من حنجرة نحاسية صلبة. واصطف جميع العساكر عند رؤيتهم لتلك العجوز التي تجسد الصرامة والعزة: «أنتم في داركم، ولكن لمدة قصيرة فقط. اسرعوا!» الملازم وحده هو الذي أدرك الخشونة الكامنة وراء تلك الكلمات. وأحس كأنه يفرك من داخله بالرمل والليمون تماماً مثلما سبق له أن رأى الأواني النحاسية تفرك في الجزائر حتى يعود إليها بريقها ولمعانها. وشعر العساكر بالحرج أثناء التفتيش وهم يقلبون الأثاث القليل ويدنسون نظافة الكوخ المدهشة، ووضعوا أياديهم على صفحة الزجاج التي تحفظ صور زوجها وولديها، وجسوها جساً، كأنما أرادوا بذلك أن يستخرجوا منها ما ينطوي عليه ثلاثتهم من نوايا سيئة. لكن الملازم زجرهم وقد أرعبهم تراكم أحجام الضوء والظلال على خشب الصندوق العتيق وعلى المائدة. أما النباتات والأعشاب الممتدة على مساحة ثلاثة أمتار فقد سبرت بمرجاف في حين أن طيور الكناريا توقفت عن

الشدو عند الجيران وانقطعت أصواتها بسبب رائحة الثكنة المنبعثة من جزمات العساكر. واضطربت عادات الدجاجات الهزيلات والبقرة التي علق في رقبتها وسام البطولة ولم تسرح بعيداً عن الكوخ في ذلك اليوم، وقطع الأطفال ثرثرتهم حين رأوا أن العساكر يحملون سيوفاً بالإضافة إلى أسلحتهم. وفكرت مسعودة في أن تقدم لهم مشروباً بارداً لإرواء عطشهم. غير أن الملازم أدرك هذه المرة أيضاً أنها تعبر عن استعدادها لكي تسقيهم بولها بعد أن تصب فيه قنطاراً من سموم الفئران وقنطاراً آخر من الكريستو لإزالة الصفرة عنه. بل إنه أحسن صنعاً حين رفض أن يشرب الأنخاب مع أم البطل على الرغم من أن جفاف «جوان» لفح حلقومه ويبسه. على أنه في حقيقة الأمر ما كان يشعر بالاعتزاز ثم إن معرفته المحدودة بالعربية زادت من الكابوس المسيطر عليه. واستعد لمغادرة الكوخ غير أن قطاً مشاكساً قفز نحوه وخدش وجهه. فبادر أحد العساكر إلى شطر الحيوان المسكين بضربة من سيفه. ولم تفقد مسعودة هدوءها. بل هنأت العسكري المقدام على سرعته. لكن الضابط المخدوش الوجه لم يتحمل رؤية دماء القط وهي تتجمد في أعلى بزته، فسارع صوب الباب، وما كان من الواقفين الساكنين إلا أن أفسحوا له الطريق ولعساكره وسط حاجز من الصمت والجمود القاتل.

وفي تلك الليلة اشتد لهاث السجين، لكن دون أن يكون هناك أي داعٍ للقلق أو سبب للندم وبعيداً عن أي احتقار

أو ضياع. اكتفى بأن ينظر إلى شحوب قاضي التحقيق وعصبيته ليطلع على ردود فعله كلما وقع في روع هذا الأخير أنه لمس في صوت المتهم بعض الانزعاج أو تلميحاً إلى شيء ما أو إهانة قد تختفي في حديثه أو في عينيه أو تحت بشرته وتنطوي على بعض الاستخفاف من منزلته كقاضٍ من القضاة ومن مرتبته واعتزازه. تمالك نفسه على الرغم من رطوبة الليل والنهار، ونوبات السعال التي تهزه الآن بعد أن أدى واجبه. ورخص لنفسه بأن يملأ رئتيه بما يعادل دخان ثلاث علب من السجائر التي وصلته من مسقط رأسه حيث انخفض معدل بيع هذا المنتوج وأوشكت وكالة التبغ أن تصفي حساباتها. لم يكن يدخن ليتحايل على الحيرة المستبدة به، بل في انتظار أن يتوجه عما قريب إلى المقصلة ضارباً صفحاً عن مساعدة الجلاد حين يضع قدميه القذرتين على قميصه الناصع البياض. والحقيقة أنه ما انفك عن العيش في حمى الملعب الذي أدى به مهمته: هدير التصفيقات والدم المندفع عبر عروقه، التذاذه بسماع الحراس وهم يشكون من أمطار «جوان» الخانقة، ساعات كاملة قضاها في رؤية أسماك خياله وهي تسبح في تهاويلها الجنونية المتموجة، صيحات الفزع المندفعة من أحواله النفسية المندحرة وكأنها مطعمة بندف الثلج، ذهول ومفاجآت مختلطة معقدة في قلب خلاياه العصبية كأنما هي فتحة من فتحات عبقريته الخلاقة أو حكمة أو نفاذ بصيرة

أو وضوح أو تحجر في الحواس بل وكأنما هي مجمدة بهدوءٍ مبهم ينكمش في أعمق أعاميقه منذ وصوله ويكاد يدفعه إلى الترفيه عن قاضي التحقيق الغارق في ملفاته وفي أسمائه الطنانة التي لا يعرف كتابتها وإلى التسامح والتغاضي عن اتهامات الحرس لرؤسائهم وإلى الإشفاق على اليأس المسيطر على محاميه الذي يجتر عجزه في إبقاء زبونه على قيد الحياة وما ذلك الزبون إلا هو بالذات. وقد كان يغرق في نوم يدوم اثنتي عشرة ساعة في حين أن سجانه المنتفخ بالكحول واللحم الرديء يشكو من الأرق المزمن. وما كان يفهم اندهاش الآخرين لا سيما وأنه لم يدرك تمام الإدراك من أين جاءه ذلك الصفاء الروحي وتلك الدعة في حين أنه ما خطر بباله ولو لحظة واحدة أنه صار بطلاً. مم جاءته البطولة يا ترى؟ كان ينام اثنتي عشرة ساعة ويطالع طوال ساعاتٍ ويمارس رياضته كل صباح ويرفض حتى الركون إلى السهولة بالاعتماد على سند روحي أو ديني ذلك لأنه لا يدري ما إذا كان مؤمناً أم غير مؤمن. ثم إنه ينزلق في أعماق النوم المعتمة الصاخبة وينسرب عبر أنسجة دثاره الذي أمحت رسومه بمرور الزمن، وعبر خيوطه التي تضعضعت خلال لياليه الطويلة بغرفة ذلك الفندق الحقير، وهي الغرفة التي ما عاد يسكنها وإن كان يحتفظ بها لكي يجمع أعضاء فرقته ويكون له مقر ثابت لدى صاحبه «بيل» ذلك الذي يتسقط المعلومات لصالح

المخابرات العامة ويستفيد من دوره ذاك لكي يلعب مقالبه على المنظمة نفسها ويتاجر بالنساء وينتزع منهن مبالغ معينة.

حين يخلد إلى النوم يعرف كيف يشحن أحلامه حتى لا يسقط في ذلك الصفاء الجلي الخارق الذي لا يعرفه إلا من يوجد على شفاء الموت وحتى لا يقع في أحابيل تلك الأرداف السابحة في سماء العشق لأنه يدرك تمام الإدراك أنه لن يلج امرأة أبداً ولن يغرز أقباس شهوته المتأججة الغائرة وسط أمواج صخابة تحمل في أطوائها دفء الأعماق واللذة لا ولن يتمالك أنفاسه فوق مهاوي الخصور والأفخاذ الملساء المنصوبة مثل أسلحة أو تروس قديمة أو جدران حقيقية أو مثل قلوع بحرية في قماش الشنتز أو من الكتان المطلي بالقار، ثم إنه يعلم أنه لن يقذف عصارته في جرح العالم الذي يمثل في آن واحد أصله وفجيعته، موئله وتمزقه. وكانت الأصوات تبلغ مسمعيه من الزنزانات الأخرى، لكن أصحابها لا يعرفون كيف يشحنون أحلامهم وكيف يلتصقون بين أغشية النعاس السائبة، على أنهم كانوا يتقوقعون في وحل أحاسيسهم ورغباتهم مهووسين بأشباح مرعبة بدلاً من أن يعمدوا إلى رسم حدود أجسادهم كما هي عليه وإلى موضعتها وفقاً لحركاتها، وإلى سحق ما يبعث فيها اليأس والشفقة، وإلى محو فتحاتها الفائضة بالقذارات والقيء والمني وسواد المنافي الذي يبقعها. أما هو فيعرف كيف يستريح وكيف يستعيد أنفاسه، ويركز

تفكيره فتندفع حينئذ أحلامه الطفولية في كل اتجاه ولا يرى سوى الفراشات وهي تهوم حول أطراف المصابيح الكبريتية المركبة على قواعد نحاسية، وطيور السنونو المتواكبة في ساحة الكوخ حيث كان يكتفي باستنشاق الهواء لكي يدرك أنها ذاهبة لتوحد طيور الوادي. وتتراءى له أيضاً خطوط الالتقاء بين زبد البحر وطحالب الحديقة والبوابات التي يرتادها شبح والده، ويبصر بنفسه من خلال فرج المراهقة وهو ينتظر شيئاً ما وسط الصقيع وتعود إليه صور المقابلات الكروية أيام أن كانت للغيوم معانيها، والمنشورات المتعثرة المتلجلجة التي يبثها عمه العجوز الماكر. ثم إن هناك تلك الصداقات المعقودة في أعقاب بعض الكلمات البسيطة التي سرعان ما تغيم في أفواه الرفاق المخمورين، في الوقت الذي تتناطح كؤوسهم بين أياديهم الضائعة في منفى الغرفات المليئة بالبق. وهناك أيضاً الرفاق المنغلقون على غيابهم، الغارقون في مناجاة أنفسهم، وارتحالات التوق والحنين عبر سراديب المدرسة الابتدائية حيث كان مشغوفاً إلى حد الجنون بالألوان المطرزة على الأطالس التي يجيل عليها طرف سبابته، وكذلك ذكرياته عن تلك المعلمة الرائعة التي أرادت منه أن يخلع قبعته في القسم، وهو الأمر الذي لم يقم به أبداً بل دخل معها في حرب استنزافية إلى يوم أن علم بمرضها فكسر شحيحته واشترى بعض الورود وذهب يطرق باب دارها لتتأثر لذلك أيما تأثر لأنه كان الوحيد الذي فكر في زيارتها. وتصالحت معه

دفعة واحدة وسمحت له بأن يحتفظ بقبعته على رأسه إلى أن أتى يوم قرر فيه أن يرفع راية الاستسلام البيضاء بحلق شعره تماماً ويعرض رأسه منذ ذلك الحين كما هو دون أي غطاء، وهناك أيضاً النساء اللواتي أحبهن كل الحب متعثراً في البداية لأنه لم يكن قد تعود على ذلك بعد ثم عشقهن بكل جدية وعمق، وآيته في ذلك، تلك الترسبات المتجمدة في عروقه التي قطعها ذات يوم من أيام الخيبة. على أنه كان الحب الأول والأخير ذلك أنه انتمى بعدها إلى المنظمة ووضع الرتاج على أوجاعه حتى أنه عندما يحلم بتلك المرأة لا يقوى على ذكر اسمها: أهو سيلين أم آلين.. كان اسماً من هذا القبيل.. وعاش معها بضعة أشهر هنيئة كل الهناءة وعاصفة وحافلة بالأعمال في نفس الوقت، وعلمته خلالها العزف على بيانو حقيقي. ثم إنه قرر فجأة أن يعلمها مبادىء الخط وفقاً لتعاليم مدرس القرآن الذي كان مختصاً أيضاً في كتابة الحروز والطلسمات والرسائل للأميين من أهل الحي. إنها سيلين أو/ آلين التي هام بها عبر حديد الغرف الصدئة بعتمة النهار الرصاصي الجامد، وكانت هي تستلقي وراء حجاب ياباني وساقاها بين نهديها، متقوسة في شكل هلال مكتمل. وهو يذكر في أحلامه أيضاً تلك الأمكنة التي جال بها ورأى الزمن ينقلب على أعقابه فيها وينبسط في شكل فضاءات بنفسجية مخدوشة، ويذكر الإضرابات السياسية الأولى، وهو في الخدمة العسكرية لأن السلطات الاستعمارية انتوت إرسال

عدد من أبناء وطنه إلى تونس. وكيف لا تعود إليه أيضاً صورة أمه وهي تربي طيور الكناريا التي تقض مضجعه بحدة غنائها (في حين أن السجن يرشح خوفاً، وفي حين أن حيرة أحد المسجونين معه تنفجر فجأة حوالي الساعة الثالثة صباحاً وتجعله يقفز من فراشه ويسارع إلى العودة إلى الأقفاص التي تلقي بها والدته دروساً في الموسيقى على مسامع المواليد الجدد) وكيف لا تعبر خياله سنوات البؤس بعنابة وستراسبورغ وباريس، والسعال الذي هد جسمه ونوبات الضحك التي استبدت به على الرغم من شذرات الحديد المترسبة في رئته اليسرى واللعنات المصبوبة في جيبه الأيمن والحروز التي يقبل تعليقها في صدره إرضاءً لأمه المسكينة التي تبادر في كل زيارة من زياراته إلى إراقة الماء وراءه حين انطلاقه حتى تستعجل عودته. . لقد عرف إذن كيف يشحن أحلامه، وعندما كان الباشاغا الذي نفذ فيه حكم الإعدام يدخل زنزانته من حين لآخر ليستعير منه برنوساً شتوياً من وبر الجمل، كان يعرف كيف يحرك ذلك اللولب في أعماقه لكي يطرده بكل تأدب، ويقفل أبواب الأفق دونه. حينئذ يسارع بالعودة إلى أزقة طفولته المهفهفة بالحرير والأنسجة البراقة، والمخمل الدمشقي والقطن الفارسي وغيرها من الأقمشة التي تحميه من قرصات البرد ومن عذاب الخنادق المعتمة حيث يتململ شبح والده ويهدد بالتفتت. لكن عندما تزداد زنزانته ضيقاً، يعرج على موانئه المحبوبة بكل ما تنطوي عليه من حبال وصواري تشدخ كبد

السماء وتشرخ نوافذ الحلم والحرية. لكنه ظل يقضي لياليه أيضاً وهو يعايش، خلال نومه، وقائع ذلك اليوم الذي غير مجرى حياته فيما بعد. وظلت المقابلة الكروية مثل ذكرى عالقة في مكان ما بين اندفاعات الكرة وتمايلاتها وانحرافاتها، في حين أن زنزانته ما عادت تمثل شيئاً في تلك الأوقات، وصار كل شيء يلوب أمامه. حتى أصابعه التي شدت المسدس ذات يوم، أصيبت بداء النسيان. وانشرخت ذاكرته وتوقفت عند فعلة الموت، ولم تعد أرضية الملعب إلا مساحة شديدة الصفاء مثل غشاء مخضر يجري فوقه لاعبو الفريقين ورجال التحكيم الثلاثة. وغرق هذا المشهد كله في هدير لا يحتمل، خاصة وأن الضربة المباشرة التي قذفها «بوشوك» في الدقيقة الثامنة والعشرين استحوذت عليه أكثر من أي شيء آخر، ذلك أن الأمور انقلبت رأساً على عقب في تلك اللحظة بالذات، وعقد العزم حينها على القتل، لكن اشترط أن يقوم اللاعب الجزائري «بوشوك» بتسجيل هدف... **نحن إذن في الدقيقة الثامنة والعشرين من المقابلة. المدافع الأيمن «كوالسكي» من فريق أنجي يحاول أن يمنع بوشوك من المرور ويعجز عن ذلك فيعرقله... بوشوك يسقط. الحكم الإنجليزي م.أ. كلو يصفر ويعلن عن الخطأ البين الذي ارتكبه كوالسكي في حق بوشوك على مسافة ثلاثين متراً من مرمى فراجاسي الذي سبق له أن تلقى هدفين، وبكى بعد الهدف الأول الذي سجله «درودر» بتمريرة من بوشوك نفسه**

صاحب الانطلاقات المفاجئة المذهلة التي بثت الهلع في صفوف أنجي. الملعب كله يتمالك أنفاسه. الجمهور واقع تحت وطأة الفزع. لاعبو فريق أنجي يعجزون عن السيطرة على المقابلة، بوشوك يتمهل، يضع الكرة بكل هدوء على الأرض قبالة مرمى فراجاسي. ويتحرك هذا جيئةً وذهاباً لكي يحدد موقع كوالسكي، وإن كان يلوم هذا الأخير، فهو يعلم أنه ما من أحد يستطيع أن يعرقل بوشوك دون أية عقوبة. ويحدد موقع باسكيني المدافع الأيسر في حين أن سابروجليا قائد الفريق وقلب الدفاع يحاول بهدوئه أن يتحكم في الوضعية. لاعبو فريق أنجي يصعدون جميعاً لحماية مرمى فراجاسي باستثناء اللاعب «لونكل» رقم 11 واللاعب تيزون رقم 9، قلب الهجوم الذي يضطلع بمسؤوليات ثقيلة. «لونكل» اختصاصي في الهجوم المضاد. بوشوك لا يستعجل الأمر. إنها حرب أعصاب. استنزاف حقيقي. اللاعب رقم 11 من فريق تولوز يتراجع وينتظر الإشارة من الحكم الإنجليزي الذي يؤدي عمله أحسن أداء، ولا يتدخل إلا لماماً نتيجة لانضباط اللاعبين ومثاليتهم وهو الأمر الذي يسهل مهمة ضيوفنا البريطانيين الثلاثة. السيد كلو يعطي الإشارة لبوشوك الظهير الأيسر الذي يوجد في موقع الظهير الأيمن. يقذف قذفة مباشرة معتمداً على حاسته وسط الكتلة المتكونة مما لا تقل عن ثمانية عشر لاعباً. الكرة تندفع اندفاعة رائعة. فراجاسي ينطلق إلى جهة اليمين لكن الكرة تنحرف نحو اليسار.

حارس مرمى أنجي ينخدع بالمسار الذي تتخذه الكرة ولا يستطيع إيقاف القذيفة إلا داخل الشباك. هدف رائع من بوشوك، هذا الشيطان الذي يعمق الهوة لصالح فريق تولوز. النتيجة الآن ثلاثة أهداف مقابل صفر...

تولوز: 3 ـ أنجي: صفر

... الخسارة ثقيلة حقاً.. حظوظ تولوز في انتزاع كأس 1957 كبيرة جداً. الروع ينتاب أنصار الفريق التولوزي، بل هناك من أغمى عليهم. وسرعان ما ينقلون إلى مركز الإسعاف بالملعب... الجمهور ينال مقابل ما دفعه من ثمن.. لاعبو تولوز يهنئون بوشوك الذي يظل هادئاً في مكانه، لا يريم. هل يفشل لاعبو أنجي أمام هذه الآلة الدقيقة المتمثلة في الفريق التولوزي؟ أمر ممكن جداً. فراجاسي مرتعب متحجر، بدون ردود فعل. أما أنصار فريق أنجي فقد ضاعت منهم أصواتهم. انطفأت حقاً وصدقاً. النتيجة إذن كما يلي: تولوز: ثلاثة أهداف ـ أنجي: صفر. فريق أنجي يستأنف اللعب في الوسط. كل لاعب في مكانه. أنتهز الفرصة لكي أعطي تشكيلة الفريقين لمستمعينا ولمتفرجينا الذين فاتتهم بداية المقابلة. فريق تولوز الذي يسيطر على المقابلة بثلاثة أهداف مقابل صفر يرتدي قمصاناً بيضاء وزرقاء وتبانات زرقاء مع جوارب زرقاء وبيضاء. فيما يلي تشكيلة هذا الفريق الذي يدربه جول بيجو..

«تيزون» يستأنف اللعب ويمرر إلى «لوجول». قذفة جانبية من «لوجول» صوب «بيانشري» عيران بليملدنغ قلب الدفاع في فريق تولوز يتدخل ويستعيد الكرة ثم يضعها بين قدمي إبراهيمي الذي..

سوف يقدم على ما هو مقدم عليه لكن بشرط أن يصوب بوشوك الضربة المباشرة... إنه لا يعلم ما إذا كان جاداً في ذلك الزمن. لكن، ها هو بوشوك يسجل الهدف! سوف أنجح أنا أيضاً. وماذا عن صاحب رباط العنق الحريري؟ إنه باعث على الحرج حقاً. لم هذا الخطأ في سحب التذاكر؟ لو أنني بقيت مع فرقتي لكان ذلك أفضل... من الجنون حقاً أن يهاجم المرء تجمعاً من المظليين بستة رجال غير مسلحين بما فيه الكفاية. لكن للمنظمة دواعيها وأسبابها. أتمنى إلا يرتكب القسيس خطأ من الأخطاء.. إنه عصبي جداً وشديد التهور، أفضل «ڤيسبا» فهو ذو ذكاء خارق. ينبغي أن أحسب حساباً للأمر مع زاباتا ويوكاتان فهما من الرماة الحقيقيين. لكن هذه المسدسات الصغيرة لا تفي بالغرض. أما مسألة الباشاغا فهي أمر مفروغ منه.. سوف أرى كيف ينبغي أن يتم ذلك في الوقت المناسب، وفي الدقيقة التاسعة والعشرين من المقابلة أي ست عشرة دقيقة قبل نهاية الشوط الأول دون حساب الأوقات الضائعة بطبيعة الحال! الشمس عنيفة الوقع... إنها تبهر عيني... من الأفضل لي أن ألتزم الهدوء.. لقد قضي الأمر.. وسيّان أسجل بوشوك الهدف أم لم يسجل، فهذا لن يغير

من الأمر شيئاً. قطعت العهد على المنظمة ولم يجبرني أحد على ذلك. لماذا يا ترى قرروا أن يضطلع يوسف بالعملية؟... إنه وسيم حقاً ويحمل العديد من الأسماء المستعارة.. لكأنما هو لا يكتفي بواحد منها. أما «جو» المهندس المتعالم.. فقد أصابه الروع.. على أية حال، كانت طريقة لاختباره وها هو يتخلى عني... لن أفكر فيه مطلقاً.. الشمس تنهال على وجهي.. كأنما هي مشطبة والملعب غارق في ضيائها... هناك إشارات تتعالى من وراء الملعب. دور ومصانع وعمارات ومرافق للمجذومين. مدينة كولومب ترتمي وراء الملعب. الشمس تمخض هذا المشد كله وتشقق حمرة البناءات الفاقعة. ويشعر بأن رأسه فارغ مثل قربة من جلد الماعز مطلية بالزفت (يا لتلك الأماسي العبقة بروائح النعناع والمردقوش التي تقرص أنفه بعذوبتها! وآهاً لتلك النجوم المحمرة في الخبز الذي تعده أمه كل صباح! ويا لزمن الطفولة المصفر بالحبر وبالمقالب التي يلعبها على معلمته الكورسيكية الجميلة الآنسة «بيريتي». وواهاً ثم واهاً للبشرات المخططة بالملح بعد السباحة في حوض الميناء، وللأزقة المبقعة بالكمون عندما تتعالى منها روائح السردين المقلي وتغرق الحي القصديري كله! ويا لذكرى تلك الخطوط الموشومة بالقلم فوق صدغ والدته وعلى الألواح القرآنية! وأين أنت أيتها الأحياء المحرمة على العرب وعلى كل من يدنس المقدسات! وأين أنت أيها البحر الذي يسهر على ذلك كله ويفتح دونه

أهداب الأرق...) على أنه حين يضع يده اليمنى (اليد اليسرى لا تزال في جيبه) أمام عينيه لكي يقي نفسه وطأة الشمس التي تحرمه من رؤية تحركات اللاعبين، ترتسم عبر أصابعه صورة تكشف له مصيره.

5

تولوز: 3 ـ أنجي: 1

وهكذا تنثال الصور وتتسارع وتتباطأ ثم تسقط في مهاوي الذاكرة التي تخبو شعلتها لبعض الوقت. وما أسرع ما تطفو هذه الصور على السطح في شكل فقاعات تطقطق عبر ملوحة العزلة ثم تندفع خارج الزنزانة لكي تتفتح على الأفنية المجوفة التي تسيطر عليها طقوس الألاعيب المائية والتلميحات والتكرار وغيرها من الترجيعات المتمازجة مع انطباعات معينة توجد خارج الأفنية ولا تكاد تفهمها الأذن التي لم تتعود عليها. ويرى نفسه مرة ثانية في نفق المترو الذي تحول إلى مكان مفضل لعقد اللقاءات ونقل المسؤولية من شخص إلى آخر، وتوزيع المنشورات والمهام، وتتراءى له عمليات نصب الأحابيل وإعدام الخونة، وإخفاء الأسلحة، وتلقي الأوامر في شكل كلمات أشبه ما تكون منتزعة من الحلوق أو لكأنها حجيرات من الصوان، أو حبات مسبحة، أو أقراص أو حبيبات من النور تنتشر فوق الأهداب إلى غيرها من الرؤى التي تسلسل صفاقة الهواء من حوله في هذا الضياع الليلي البهيم. بل يخيل إليه وكأن

هناك حصاة تقرع دماغه المثقوب بصفير الصمت أو كأنه يسمع تنهدات الأجساد الواقعة على شفير التفسخ والتفتت، وما أسرع ماتعبر أقطار نفسه جمل مهومة، منغلقة، ودوامة من المقاطع المدقوقة المبتورة، وأرقام وشفرات بالغة التعقيد، وأصوات مشوشة تند عن النائمين، وجعجعة الخطوط المقطوعة المتأرجحة التي أمحت هنا وأعيد نسخها هناك. ثم تعاوده صورة الأزقة والمسالك وروائح البخور بين مضاجع المحظيات، والتلاوات القرآنية. كان الباشاغا يسبح في بركة من الدم، ورجال الشرطة ينهالون على الفدائي من كل صوب وبأعداد كبيرة، وقد توترت أعصابهم واستبد بهم الهلع خوفاً منه، بينما استسلم لهم ليخرج سليماً دون أية خدوش حتى صاح فيهم صوت محافظ الشرطة بنفسه ـ وقد علم هذا الأمر فيما بعد ـ وقال لهم بأنه يريده حياً. وما أسرع ما توقفت عملية النهش، وتجمدت غرائز القتلة فيهم مثل مجموعة من الكلاب المروضة؛ أما صدغ الباشاغا فهو موشوم بالنجوم إلى الأبد، وقد فرغ من دمه وسال مخه فعفر الأرض، وانتشر على الأسفلت وما عاد يصلح لشيء أبداً، هذا إذا كان قد صلح في يوم من الأيام، ذلك أنه لم ينطو على التبصر والحكمة وإلا لكان أدرك أنه لن يقوى على الإفلات من المنظمة حتى وإن واتاه الحظ بأن يستقبل في الدواوين الوزارية ويدعى إلى حفلات أرباب الحلفاء والكروم، ويجلس إلى جانب رئيس الجمهورية. . .

حقاً، هي رؤيا دامية تذكره بأعراس الحي القصديري فيغطس إصبعه من جديد في الحبر الصفيق المندفع من الرخويات التي طاردها في بحيرات طفولته (الحروف تندلع هاهنا. التمرس على الخط نزولاً عند الأمر الرباني. التهاويل تغلق النوافذ وتمنع النسوة من الذهاب بأنوثتهن إلى أقصى حد. ذكريات أفنية الجوامع التي زارها في وقت لاحق، قبل أشهر من انتمائه إلى المنظمة.. الصيف الذي أمضاه في محاولة العثور على جذوره... رحلة بين عنابة وتونس، ثم القاهرة فدمشق، وعودة عن طريق فاس. لم يعد هناك ما يراه في بلاده... الجحافل جاوزت حدود الوحشية... الأتراك أولاً ثم الفرنسيون، تعرف على مسجد تلمسان في الفترة التي أبعد خلالها عن مسقط رأسه، وأرسل بعيداً عن أناه المعهودة، ضمن فيلق تأديبي... أفضل مدرسة للوطنية.. خاب ظنه أمام قباب المسجد ومحرابه الذي شيده عبد المؤمن، قرر حينئذ التوجه إلى تونس، إلا أن جامع الزيتونة لم يستطع إرواء غليله، لأنه ظل يتصوره واسعاً شديد الاتساع، منغماً، مصقولاً، حيوياً، مفروشاً بزرابي صوفية سميكة تعود إلى ألف سنة. لكنه وجد به حبكات أحلامه وثريات خياله، وأحس بما يشبه هجوماً يعمي الأبصار ويعنف عليه بأنواره المنكسرة التي تعددت عبر السنوات الضوئية، وارتدت شرائح متجلية من الحضارات الجنوبية والشمالية على حد سواء. ثم القاهرة، فالأزهر حيث توقف والده لبعض الوقت. شهادة

قاطعة أخاذة. لقد بني هذا الجامع في قلب الحي الشعبي للسيدة زينب وخان الخليلي. دفعات متنوعة للعديد من الدول التي خضعت للكتاب وحاولت أن تفكك الأهرام من فاطميين وشراكسة ومماليك وخديويين وكلهم كانوا مناهضين لأي اضطراب، لذلك أقروا التقليد القاضي بقطع رؤوس أعدائهم في الباحة الواسعة التي أعيدت اليوم إلى دنيا الرعاع لينهشها جذام التسول. وجاء دور الجامع الأموي الذي هو أجمل الجوامع في رأيه وعبارة عن درة محاصرة بالأسواق وبالأنوار حيث يقحم التاريخ انتصاراته ومواكبه الجنائزية، ويجمع بذخه كله بها، وطقوسه الباعثة على التأثر نتيجة لتمازج الأشكال. الجامع الأموي مبني على أنقاض كنيسة بيزنطية لا تزال آثارها قائمة بفضل معماري ماكر وهي تبرز إلى الجانب الأيمن من الساحة المبلطة بالرخام الشبيه بحجر الشب وبالثلج الاصطناعي. وفي آخر المطاف، مدينة فاس بجامع القرويين حيث يطغى غبار الخشب المسحوق المتآكل عبر القرون على كل شكل من الأشكال الملصقة على الأبواب والأروقة، وعلى عيون الماء والساحات التي يفرض بها العميان قوانينهم بفضل مدائحهم المبقعة بالعسل والحماس. دم مراق. عودة من الرحلة. بمجرد أن انتمى إلى المنظمة لم يعد في مقدروه سوى أن يفضي إلى كل ما يقذف ويدور ويتجمد ويتخثر ويرسم النجم ويكشف عن الاضطراب الذي يستولي على السلطة القمعية. . . تنمل ساعده من جراء انقباض يده التي

تضغط على المسدس منذ ساعة ونصف. أطرافه مقطوعة بسبب تلك الهجمة الوحشية، لكن هيكله العظمي الهش متماسك، وقد خرج سليماً مزهواً بالدم المحيط بجثة الباشاغا المصفرة... أعراس الحي القصديري والمدرسة القرآنية حيث سهل عليه دائماً وأبداً الانتقال بينهما والمرور إليهما. وهناك الحبر الذي يجف مثل دم فتاة لا يزال يذكرها لأنها أثارت فضيحة ليلة عرسها... لقد انشرخت أنوثتها مثل قنبلة خلال ليلة عنيفة تمزقت فيها عروقها في حين راح زوجها يشخر راضياً عن نفسه. وجدوها ميتة في أكفان الغيبة ولم يجرؤ أحد على إظهار إزار العذرية لأنهم لم يستطيعوا أن يميزوا دم العروق من دم فرجها. كان طفلاً في العاشرة.. والد العروس أنكر بنته بعد وفاتها وأمها حرمت على نفسها دخول الحمام المجاور. لم تستطع أن تحيط نفسها بأية هالة لأنها ماتت ميتة العار. دفنوها خفية في مقبرة محدبة نازلة صوب البحر بفضل حفار قبور يعرف معنى الدنس والإنسانية في نفس الوقت. لكن الإمام رفض الترحم عليها وتأوه من الكفر وانقلاب الأزمنة. أما الزوج فلم يحزن على شيء.. بل سارع إلى كتابة رسالة بحبر الصمغ إلى قريته. يقول فيها إنه يبحث عن امرأة جديدة تلائم ذوقه، وطلب من معلم المدرسة أن يدون أسماء أسلافه بخطه الجميل. أما العجوز الذي تعود تدبيج مثل تلك الرسائل فوجدها فرصة سانحة للارتحال في تضاعيف الكتابة الطينية وتعاريجها، ذلك أنه جعل فن الخط متناغماً

مع التجويد القرآني. كان له أسلوبه الخاص، سواء في رسم الكلمة أو في اختيار معناها بعيداً عن أي تكرار أو قوقعة. وكان مجنوناً والناس يعلمون ذلك. لكن لم يتجرأ أحد على أن يجابهه بذلك، لا، ولا خاطر بألا يعهد إليه بأطفاله أو يتشجع فلا يخوله مهمة كتابة الحروف والرسائل على حد سواء. كان نسيج وحده حين يقولب على لوح الكتابة تلك الشرائح الحياتية التي ينسجها خياله ويضعها في أسمى مقام بدلاً من أن يحكيها، وما ذلك إلا لأنه يتأفف من العمل السهل وينتشي أيما انتشاء بالخطوط التي تنحفر على رقوق الوهم حيث تنسحق الأصول والأنساب وتندثر الإشارات والدلائل وحبكات السرد وآثار النص المكتوب. وما كانت الظواهر لتشغل باله كثيراً، بل إن كل همه انصب على جسد الخط المنسوخ أمامه وهو يضاء في دم المادة التي يصنع منها المواد، والتي كان يذهب بعيداً للبحث عنها في مستنقعات لقي العديد من أمثاله حتفهم فيها. ولا يبقى في آخر المطاف إلا ذلك الندب الذي يحدثه قلم الخطاط فوق الورقة، أما مسألة الوفاء للمعنى ولدقة الأفكار المعبر عنها فهي قليلة الأهمية في نظره. ذلك أن جوهر الأمور يوجد في مكان آخر. وهو خليط من التآمر والتحايل واللباقة المفرطة. الخطاط يحتكر الإشارات ويقذف بالمعاني في مزابل الحكايات لا سيما وأن الأداة التي تنقل قوله هي مبضع من القصب يقطع بشرة التاريخ الحية ويسحق الكلمات ويفتحها ويغلقها ويربطها حتى لا

يفضي توتره كله إلا إلى تنظيم شبكة مكثفة سميكة بقدر الإمكان من الإشارات والخطوط التي هي أقرب إلى الهذيان منها إلى فن التراسل، وتصير المسألة في ناظريه تدنيساً لقداسة الكلمة وإسفافاً بالإلهام الرباني...).

الآن وقد أتخمته السكينة لم يعد يصدق عينيه أمام بروز تلك الحفنة من الذكريات بعد أن ظن أنها قد اندفنت إلى الأبد في أطواء جسده. لكنه كان محاصراً بالحاشية المصغرة التي تترى عليها مواكب الأشباح المنسية منذ عهد بعيد. مدائن زارها، انتحار جارتهم ليلة عرسها. رؤيا معلم المدرسة والخطاط المؤهل. انبجاس هندسات الجوامع المتراصة. حاشية مصغرة إذن تتواتر مثل خنفس يتبختر على هواه وإن كان مصاباً بتشنج يثقل مشيته ويحورها، عبر السراديب والحوامض، وعبر الأقمار وأسماك المجرات عندما تجلس أمه في باحة الدار وتذوب الرصاص وتغطسه في الماء المجمد ثم تقرأ المستقبل على الحراشف وعلى تضاريس الدوار. وينكمش على نفسه لا يكاد يشعر بالاستدارات الراعشة على الورق الصقيل ويعيش فوق المحيط البشري، مستعداً لأي شيء، ولا يخرج عن طوره إلا عندما يفكر في تهرب «جو» المهندس، وفي حكاية التذكرة الخاصة بالمدرجات مع أنهم وعدوه بتذكرة تعطيه حق الدخول إلى المنصة الشرفية... وفي حالة التعذر والامتناع يظل هادئاً لا يريم. حاشية الذكريات الناصلة واللزوجة التي تغرق جو الزنزانة بسبب شهر جوان الرطب

الماطر وبسبب القيظ الذي يبلغ 35 درجة في الظل. وبمرور الأيام، خيل إليه أن الواقع صار أكثر رخاوة إلا أن نوافذه الداخلية ما كانت تغيم. بل على العكس من ذلك، ظلت مسفوعة بزوبعة الإرادة الفولاذية لكي لا يقع في فخ الموت والخرافة. ورسخ في نفسه أنه سوف يذهب إلى المقصلة شامخ الرأس وأنه لن يمنحهم الفرصة لكي يجروه إليها جراً.

وما كان ينسى مجموعته المجزأة إلى خليتين من ثلاثة أعضاء مستعدين لكل شيء وعاقدين العزم على التماسك والتلاحم فيما بينهم. لذلك شعر بالرقة والعطف حين استيقظ ذات صباح فقرر بينه وبين نفسه أن «جو» المهندس قد جابه ظروفاً قاهرة دون شك وليس له أن يحكم عليه طالما أنه لم يعرف بدقة ما حدث يوم الأحد 26 ماي 1957 بين الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة والساعة الواحدة وخمس عشرة دقيقة بمحطة «أوديون». لقد ألغي الهجوم على ثكنة المظليين وهو يعلم أن الأمر تأجل ليس إلا. وفي خلال ذلك، لا تزال مجموعته تواصل نشاطها الفدائي وتقوم بالعمليات في عدة أماكن من المنطقة الباريسية. «فيسبا» هو الذي خلفه على رأس المجموعة، وهناك عضوان جديدان جاءا لإكمال العدد بعد إلقاء القبض عليه، وبعد غياب «جو» المتعالم، ذلك الذي تخلى عن مدرسة الفنون الهندسية وعن بشرات النساء الحريريات ولذائذ الحياة ليسكن قبواً ويتحول إلى عتال في مصنع

بضواحي باريس حتى يخدع رجال الشرطة ويستطيع الانضمام إلى الخلية التي يقودها القسيس. وعين «زاباتا» رئيساً للخلية الأولى وبقي القسيس قائداً للخلية الثانية. وقد حصل بواسطة محاميه على عدة أخبار جاءته مشفرة وذكرته على الدوام بالخطوط التي رسمها معلمه العجوز المشاغب المزكوم. فعلم أن الخلية التي سهر عليها «زاباتا» مؤلفة من «يوكاتان» الذي كان وفياً لمكانه ومن عضو جديد يحمل اسم «علي لاندوشين»، في حين أن خلية القسيس كانت مكونة من «بازوكا» الذي لا مفر منه ومن رجل آخر يدعى «فيليب لودينغ». وكانت هذه المجموعة التي تشكلت من جديد تحت رئاسة ذلك الرجل الذي لا اسم له ولا لون وإن كانت له علامة وحيدة تميزه عندما ينظر الإنسان إليه، وتتمثل في شغفه بأربطة العنق الحريرية التي يختلف لون الواحدة منها عن الأخرى. وعندما يصير السجن مملاً أثناء ساعة الترويض التي يقضيها في باحة صغيرة مفصولة عن الباحة المشتركة بجدار عالٍ جداً، يسائل نفسه ما إذا كان لرئيسه المباشر وجه حقاً. ويحاول أن يتذكره لكن جهده يضيع أدراج الرياح. ويغضب ساعتها ويحرق نفسه لبعض الوقت في محاليله المائية، ويعبر عروقه جيئة وذهاباً، ويهوم في شرايينه، ويمطر في صلب كلماته، ويبقر بطنه في شقوق الشفوية، وفجأة تنتابه الرغبة الجامحة في أن يجيء أحد العرافين لكي يتفرس في خطوط يده. ضعف مؤقت. وجوه الآخرين تسكنه: القسيس بقلنسوته الإسلامية كأنما

يحمل ختانة على دماغه! «قيسبا» الولوع بالميكانيكا، وبالدراجات النارية التي يستخدمها لتوزيع المنشورات وكلمات السر وطروده الملغمة. «زاباتا» بعينيه اللوزيتين كأنه من نسل الصين والأنكا، وهو لاعب شطرنج مدمن، ومقامر لا يكف عن التراهن على جياد السباق على الرغم من الأمر الذي أصدرته المنظمة في هذا الشأن وحرمت بمقتضاه القمار والمراهنات والربا. «يوكاتان» ملاكم سابق، وقواد سابق، ومجود سابق في مسجد باريس، وقد أنهكته التقلبات التي طرأت عليه وكفر بكل شيء، ولم يعد يؤمن إلا بالمنظمة التي استحوذت عليه بهيكلها المعقد وبسريتها، وصار يبصق، عند مروره، على الزمن المتأرجح بين المآذن والقباب. «بازوكا» هذا الذي يرتعش من البرد على الدوام، غارق صيفاً وشتاءً تحت العديد من الأثواب: صدارات صوفية وبضعة قمصان وسراويل وزوجان من السراويل الداخلية من القطن بالإضافة إلى مشكلته مع قدميه اللتين لا يقوى على تدفئتهما على الرغم من الجوارب الصوفية التي يلبس الواحدة منها فوق الأخرى وعلى الرغم من اسمه المستعار لأنه يتأفف من استخدام المسدسات والرشاشات والبنادق، ولا يكف عن ترداد نفس اللازمة زاعماً بأنه يكفيه الحصول على مدفع «بازوكا» لكي يسحق باريس وفرنسا ويذهب الناس بعدها إلى النوم وقضاء أوقات القيلولة والعودة إلى البلد لرفع أعلام الاستقلال. ثم «جو»! «جو» المهندس المتعالم، هذا الذي تحول إلى لغز كان

مهموماً به. أين يا تراه يكون؟ لن يقوى على الإفلات من المنظمة ولا من الفرقة الخاصة ولا من مجموعة الفدائيين ولا حتى من الخلية التي ينتمي إليها. وما استطاع أن يتخيله في جلدة خائن. كان وسيماً جداً. نعم، كان وسيماً... وصدر الأمر ذات يوم بإعدام الحاكم الذي تحول اسمه في الشفرة السرية إلى «برتي نص ساعة» بسبب ربع الساعة المعروف عنه والذي يثير الكثير من الضحك. مسألة كبيرة أن يعدم الحاكم العام للجزائر المستعمرة! تعقبته المنظمة وتابعت حركاته وسجلتها. كانت له عشيقة في الدائرة السادسة عشرة. امرأة نحيفة ذات عينين واسعتين. وطلبت المنظمة من «جو» استمالتها حتى يستطيع الوقوف على ذلك الذي يسمونه «برتي نص ساعة». لم يجد «جو» أية صعوبة. زعم أنه إيرلندي، فوقعت في هواه وتخلت عن عشيقها الحاكم العام. لكن المسألة اتخذت طريقاً مغايراً فحزن «جو» لذلك أيما حزن. وضاعت آثار الرجل الذي كان شديد الحذر، يغير سيارته ست مرات في اليوم عندما يوجد بباريس، ويغير مقر سكناه بعدد المرات التي يغير فيها رئيس الفرقة الفدائية الخاصة أربطة عنقه في كل يوم. ورغب «جو» في أن يتدارك خطأه فاقترح على المنظمة أن يعدم مدير صحيفة «ليكود الجي» المدعو «دوسيرنيي». ووافقت الفرقة الخاصة على اقتراحه ذاك غير أن المسؤولين في الجزائر اعترضوا لأسباب ظرفية. وظل «جو» مشدوهاً. والحقيقة أن الحظ ما كان ليجانبه في مثل

تلك العملية... وبقي في القائمة «بلاشيت» ملك الحلفاء والكروم... «وسوستيل» ذلك الذي يتباكى على انقراض «الأنكا»، وارتكب مجزرة حقيقية أثناء تحكمه في الجزائر. أراد «جو» تدارك الأمر، بل إنه قرر أن يقتل عشيقة «برتي لا دومي هور» التي هي سبب شقائه. وفقد ميله إلى الفكاهة والتندر. وأصدرت المنظمة الأمر إليه بالتخلي عن تلك الأفكار. لكن صاحبته ظلت مستمسكة به، واقعة في غرامه، وتضايق «جو» في آخر المطاف. فقد رأى أنه وسيم جداً وأنه يفقد اعتباره حين تشغف به امرأة بشعة كل البشاعة. وجعل أفراد المجموعة يهزأون به. وحكى ذات يوم أن تلك المرأة حدثته كثيراً عن تباطؤ عشيقها السابق في القذف. لذلك سمته «روبير ثلاثة أرباع الساعة» لأنه كان في حاجة إلى تلك المدة كلها وإلى الكثير من الجهد والعرق لكي يبلغ غايته ويلتذ.. وانطلقت الضحكات والتعليقات الساخرة من أصحابه المعروفين بانضباطهم وبسرعتهم في إطلاق الرصاص... وتعالت جعجعات من صدور أولئك الرجال الذين يجابهون الموت في كل يوم... كان «جو» وسيماً حقاً، تدمع عيناه من شدة الضحك قبل أن يفرغ من حكايته. أما القسيس الذي كان أقلهم حيلة فلم يفهم شيئاً من مقصود «جو» حين روى بأن الحاكم في حاجة إلى تلك المدة كلها لكي ينتهي من العملية فتساءل قلقاً عن مضمون الانتهاء. وتضاعفت حينئذ نوبات الضحك فتضايق منها واحمرت قمة رأسه، وصفق

الباب وانطلق، وفي تلك اللحظة بالذات، بادر «زاباتا» الصموت إلى تسميته بـــ: القسيس المدعو بالخاتمة..

بيانشري رقم 10 من فريق أنجي يتوصل أخيراً إلى تسجيل الهدف! نحن في الدقيقة الخامسة والثلاثين من المقابلة. هذا الهدف يحفز المقابلة، لقد تغيرت النتيجة. يا للعاصفة! نحن لا نزال في الدقيقة الخامسة والثلاثين ومع ذلك فقد سجلت أربعة أهداف. إذن، فريق تولوز: ثلاثة أهداف. فريق أنجي: هدف واحد. هل سيسمح له فريق تولوز باللحاق به.. لم لا؟ أرباب الكرة لا يتوقعون مثل هذه الأمور مطلقاً. إذن، هدف من بيانشري الذي استطاع التسجيل بعد تبادل طويل للكرة وبعد هجوم خاطف من فريق أنجي. مرر سابروجليا الكرة إلى كوالسكي فردها إليه. ثم مرر سابروجليا الكرة عن يساره إلى قلب الدفاع باسكيني فقذفها هذا إلى «هناتو» الظهير الأيمن لفريق أنجي وصوبها بطريقة جانبية إلى «بوريجولت» زميله إلى اليسار لكنه لم يتمكن من استقبالها: اللاعب التولوزي «بوشي» يحاول استعادة الكرة لكن الجناح «شندلر» يبرز مثل جني من قمقمه ويراوغ بليملدنغ قائد الفريق التولوزي، ويتقدم والكرة أمامه، ويبحث عن زميل له غير محروس فيجد «لوجول» اللاعب رقم 7 الذي مرر تمريرة قصيرة إلى بيانشري الموجود في موقع جيد. وقذف هذا الأخير الكرة بقدمه اليسرى فانطلقت بين لاعبين من تولوز وسجل الهدف ـ وأخيراً... المقابلة كانت تتجه إلى هزيمة ساحقة لفريق أنجي... ثلاثة أهداف، نتيجة ثقيلة جداً.. فريق أنجي يقلل من الفارق إذن..

6

فريق تولوز: 3 ــ فريق أنجي: 1

أنصار تولوز يفقدون صوابهم لهذا الغبن الذي حل بهم. لعلهم يظنون أن هناك خطأ في التحكيم أو خطأ في الذوق... ومهما حدث الآن وحتى وإن انتصر فريقهم فإن عشاق القمصان الزرقاء والبيضاء يشعرون أن فرحتهم قد تبددت بسبب هذا الهدف. لكن، حذار، إنني أرى هناك بيانشري وهو يعطي الانطباع بأنه يريد تكرار ما فعله، لكن، لا! «بوشي» يقذف الكرة فتذهب جهة التماس. تماس لصالح «أنجي» يؤديه «كاهوزاك» رقم 6. «شندلر» لا يبدو في لياقته البدنية الكاملة. الدقيقة السادسة والثلاثون من المقابلة. بقيت تسع دقائق قبل نهاية الشوط الأول. يا لهذه المقابلة الجنونية! أربعة أهداف تسجل بعد خمس وثلاثين دقيقة من اللعب. «شندلر» يعاود قذف الكرة. «تيزون» يستعيد الكرة. يندفع نحو مرمى «روسيل» الذي سبق له وأن وضع أنفه في الرغام بملعب «أيف دي مانوار» حيث تجرى مقابلة نهائي كأس فرنسا لكرة القدم. هدف بيانشري.. يمنح فريق أنجي القدرة على التحليق. تيزون يحتفظ بالكرة، يحاول أن ينفذ لكن صفوف تولوز تزداد

متانة عند مرمى الحارس روسيل الذي لم يحتج إلى بذل جهود كبيرة باستثناء الهدف الذي سجل في مرماه قبل بضع دقائق. مدرب فريق أنجي يقذف بتوجيهاته. يبدو وكأن هذا الهدف قد شحذ قواه أيضاً. لم يسمعه كثيراً. أما إلى الجهة الأخرى فإن «جول بيجو» لا يريم. يمضغ لبانة بكل هدوء. على دكة الاحتياطيين التولوزيين ثلاثة لاعبين: روسيني ولوتريك وفرمين. اللاعبون الاحتياطيون في فريق أنجي هم: ديبون وداجير وبيجو. تيزون يصوب الكرة وروسيل ينطلق في الهواء فوق الجميع ويستعيد الكرة بكل سهولة. على أية حال، لم يكن هناك ما يقلق في القذفة التي صوبها قلب الهجوم من فريق أنجي. الدقيقة الخامسة والثلاثون من المقابلة. روسيل يدفع بالكرة. بليملدنغ يستقبلها. يمرر إلى إبراهيمي بكل لطافة. قائد فريق تولوز يرغب كل الرغبة في الفوز بالكأس. لقد صرح لنا في غرفة الملابس قبل بداية المقابلة أن الكأس هدية رمزية يقدمها لوالدته في عيد الأمهات. التفاتة لطيفة من بليملدنغ قلب الدفاع. المقابلة تتواصل وها أنذا أسارع إلى إغلاق أقواس الرقة والحنان. إذا كانت والدة بليملدنغ في الاستماع فإنها ستكون راضية كل الرضا بهذا الابن البار. لنعد إلى المقابلة. يبدو أن اللاعبين متعبون وهم ينتظرون فترة الاستراحة التي لن تتأخر كثيراً. اثنتان وأربعون دقيقة من اللعب بالضبط. هذا ما يسجله الكرونومتر أمامي. لوح التسجيل يشير إلى نفس الوقت. بقيت ثلاث دقائق. النتيجة هي هي: تولوز: 3 أهداف ـ أنجي: هدف واحد. اللاعبون التولوزيون يحاولون تجميد الكرة. أنصار فريق

أنجي يصفرون. جميل جداً أن يكون أحد الفريقين متفوقاً على خصمه بثلاثة أهداف مقابل هدف واحد. إبراهيمي يمرر الكرة إلى بوشوك فيتلاعب بها هذا ويعيدها إلى درودر. تمريرة عمودية من درودر إل دي لوريتو الذي لا يوجد في المكان المناسب. اللاعب الأرجنتيني يتباطأ. كوالسكي يريد أن يخطف منه الكرة لكنه لا يفلح. وأخيراً يصوب دي لوريتو الكرة إلى الوراء نحو ريتكونين الذي يدفع بها إلى جهة التماس. لقد انتهت الآن الدقائق الخمس والأربعون القانونية. الحكم م. كلو يعوض الأوقات الضائعة. في الحقيقة، ليس هناك إلا القليل منها وذلك عائد إلى انضباط اللاعبين الاثنين والعشرين الذين ينبغي تهنئتهم على ذلك. حقاً، أن هذه المقابلة النهائية جميلة جداً! نحن نتجه الآن نحو فترة الاستراحة والنتيجة لم تتغير: ثلاثة أهداف مقابل هدف واحد لصالح الفريق التولوزي بطبيعة الحال..

المطر يهطل على سجن «فرين» ويلف كلماته بغشاوة البرد. يتذكر صوت المذيع أكثر مما يتذكر الصور التي ظن أنه اختزنها جيداً. لقد تعجب دائماً وأبداً من منظر المتفرجين وهم يتابعون المقابلات وينصتون في نفس الوقت إلى نقلها على جهاز ترانزستور... لم يفهم أبداً سبب ذلك التحميل كله. وهذا ما دفعه إلى إعمال فكره حتى يمحو من ذهنه جميع التشكيلات الكروية المتمثلة في مختلف مراحل المقابلة ويحتفظ بالانطباع الصوتي الذي بقي منها. وتوصل إلى النتيجة التالية وهي أنه لم يشاهد أرضية الملعب خلال

المقابلة وأنه أمضى وقته كله في ترصد الباشاغا وتقدير حظوظه في إصابته على تلك المسافة. . . وساءل نفسه، وهو يظن أنه يتفرج على المقابلة، إذا لم يكن من الأفضل له أن ينتظر نهايتها ويصوب ضربته للخائن عند مغادرته الملعب. على أنه كان يعلم أيضاً أن الخطوط الفضائية والمسارات الخطية المنحنية التي ترسمها الكرة مشدودة إلى المد الزمني، ذلك المد الذي يحول تلك الكتل من الحركات المطبوعة في الهواء إلى وحدات أو صور مجمعة حيث الدقائق والثواني والساعات تروح وتغدو على شريط الواقع المصفر فتفتت الفضاء وتقلصه وتجعله أثراً ثانوياً بل عملية في بداية النشوء. ولم يبق له من ذلك اليوم المشهود سوى سلسلة من الصفائح ومن الصوان وحجر الكوارتز وقواطع الزجاج بالإضافة إلى ذلك النوع من الانكفاء على النفس حيث قرر أن ينغلق على العالم ولا يتحدث إلا لماماً إلى محاميه الذي لم يكن مهذاراً متاجراً بل مناصراً للقضية التي يحارب في سبيلها. لقد أخلد إلى الصمت حتى أنه ما انفك عن سماع صوت المذيع المخشخش في حين أن صفحة خياله وأحلامه راحت تعرض عليه أشباح طفولته ومشاهد مدينته وصور الوقائع الحاسمة في حياته. وفي بعض الأحيان، كان جسد آلين أو سيلين يعبر ذهنه بسرعة خارقة. لكن صور المقابلة كانت قليلة جداً. لقد أضاع همزة الوصل بينه وبين النطق وتشققت شفتاه بأملاح فمه. وعاود السقوط مع حبال المطر في ليالي «جوان»

الفوسفورية التي تضج بها طفولته. المطر ينهال على السقوف: إنه الوقع الوحيد على هذا الشرخ من الحياة الضيقة التي يسيطر فيها صمته على غرار مدائن التبت حيث يكمن الوجد في تلك الخشخشة المبهمة التي تحدثها العروق المغبشة تحت البشرة المزبدة. وعندما تنكسر أصوات الحراس يعلم أن الليل قد جن ويتثبت مرة ثانية من أن ساعة يده تشير إلى التاسعة وخمس وأربعين دقيقة. كل يوم يفصله عن المحاكمة وعن الحكم وعن التنفيذ يبدو في ناظريه مثل منشفة إسفنجية ألقيت بلا مبالاة في أدراج الطفولة وذلك لطول ما نهش من الثواني وغيرها من الأوقات التي لم يبصر بها وهي تتراءى أمام عينيه. على أن ذلك ينقله من أجواء المراهقة الطائشة حيث كانت الكرة تسكن عروقه في الساعات التي تضطرب فيها طيور السنونو وتتبلل أصوات المؤذنين ببصاق الطفيليات. أصداء أخيرة من الأيام المصقولة بضباب الميناء. مرور بالقرب من المواخير والكرة بين اليدين. بغايا لطيفات مسلولات ينادين على بضاعتهن قائلات: «تعال يا صغيري! المس. لا تخف. فرجي حريري مزغب أملس. لن تندم على قروشك. انظر إلى هذه الأعجوبة المشقوقة...» أما هم أطفال الحي القصديري فيضحكون من تلك البذاءات ويفضلون الذهاب لسرقة الحلويات من المدينة الأوروبية حيث تبدو الواجهات مثل توابيت مصرية تفننت التفاهة اليومية في صنعها. ويتحايلون لتسلق الترام أثناء انطلاقه

صوب أعالي المدينة. ومن هناك يستبد بهم الدوار بسبب ذلك الجرف المليء بالحموضة السائلة. لكن القباب كانت تمتد إلى ما لا نهاية له... هياكل... ثقوب... حمرة السقوف الفاقعة وبياضها وزرقتها. إنشداه أمام الأفنية الممدودة فوق الفراغ. ورق أملس مخصص للكتابات العاطفية. أوراق ملونة لتغطية وجوه رواة الجاراجوز. وتغرق المدينة بسبب البحر والوادي في غموض نباتي يعجل في نفوسهم شقاوة الطفولة ويحكم عليهم بالأرق في زاوية درب من الدروب أو قوس من الأقواس الشديدة الزرقة. وما أن يتجاوزوا تلك الأمكنة حتى ترن فلزات النور والخلاعة التي توحي بها كل دار عربية أو يهودية منفتحة على النهار ومنغلقة على ظلمة المسامير السوداء التي تزين الأبواب وعلى خطوط التهاويل الملتفة بالنوافذ.

ذلكم هو الوجد الذي يبعثه على الهدوء عندما تنكسر حدة النور في الصباح بالآلاف من أشكال التردد في بداية هذا الصيف المتراوح بين لون البرتقال ولون الليمون. ولا يتوصل ذلك النور إلى التسرب من النوافذ السميكة المجصصة والعمياء بطبيعة الحال، ذلك أنه يتوافر في قرارة نفسه على كل ما من شأنه أن يسد منافذ الخوف. الاسم المستعار الذي يحمله لم يمنح له ولم يغتصبه أيضاً. استعاره لفترة محدودة من خاله العجوز ليس إلا. وكان هذا قد عبر العالم كله في خدمة شركة السكك الحديدية وعاد بعد غياب طويل لكي يستريح لدى أخته. كانت تحضر له

حماماً لقدميه بواسطة الأعشاب والنباتات والقراص. وعندما يضع أصابع قدميه في الماء يتأمله الطفل ويبصر به فجأة وقد استبدت به ارتعادات القاطرة. على أن هذا العامل الماكر يجد اللذة كل اللذة ويترك الماء المحمى يعبر نخاعه ويملأ رأسه بزبد الالتذاذ والارتياح. وفي تلك الأثناء يخرج من حقيبته الحلويات القادمة من البلاد البعيدة ومنشورات يضعها أمام ابن أخته فينطلق هذا في تهجيتها. وعندما يفرغ من قراءتها ينفجر ذلك الرحالة ضاحكاً وقد اندفعت من قامته المديدة رائحة الكحول ويقول: «يحيا ستالين!» ويكور قبضته. وحين أدرك ذات يوم أنه سوف يعيش في السرية تذكر زيارات خاله عامل السكك الحديدية ولجأ إلى الأخذ باسم ستالين. مذاق النشوق والفستق المشوي الذي يأتيه به من عند يهود بوسعادة... ولما كان يجيئه بمنشورات الحزب مصحوبة بقطع الشوكولا فإنه اعتقد زمناً طويلاً أن كلمة «ستالين» تعني لوز الهند باللغة الروسية. أما الآن وهو يعرف ما تعنيه هذه الكلمة فإنه يحمر خجلاً في وحدته من إدعاءاته الطويلة لكأنما خان في قرارة نفسه ثقة خاله العجوز الذي كان ينهي أماسيه وقد تعتعه السكر ويوقظ الجيران بإنشاد النشيد الأممي. وما كان أحد يفهم معنى ذلك كله. بل إن الناس لم يحملوه محمل الجد إلى أن جاء نعيه في يوم من الأيام لكي يؤرق هؤلاء الذين تجاهلوه. عند ذاك قضى جميع الناس ليلة سيئة. ولم تذكر مسعودة شيئاً من ذلك لابنها. لقد خشيت أن يعمد

إلى تقليده. وما أسرع ما جاء سكان الحي القصديري لتهنئتها ولم يفهم هو سلوك الناس في حين أنه انتظر منهم أن يؤاسوها ويقدموا لها تعازيهم. وعندما عاد إلى البيت طلب من والدته أن تعد له حماماً لقدميه في الماعون القديم حيث تعود الفقيد أن يريح قدميه بعد أن طاف على متن القطار بثلاثة بلدان متاخمة. حدث ذلك ذات يوم أحد من فصل الشتاء. وأحس أهل عنابة كعادتهم في أيام الآحاد الأخرى بنوع من الفتور يسربل بشراتهم. ذلك أنهم ما كانوا يحسنون القيام بشيء بعد الخروج من السينما أو التفرج على مقابلة من المقابلات الكروية. كانت فترة صعبة وباعثة على الحيرة للجميع، بما في ذلك العاطلين عن العمل الذين تضخم عددهم في الأحياء العربية. وعندما كان يدفىء قدميه في الماء المغلي بالقراص يفكر في الرتابة التي لا تسيطر على أيام الآحاد فحسب بل وعلى الحياة التي عاشها إلى ذلك الحين هو وعدد كبير من الناس الذين في وضعه. وكان يومها يعمل لدى «ديرافور» بمصنع أواني الألومينيوم مقابل عشرين سنتيماً للساعة على الرغم من شهادة التأهيل التقني في الترصيص. وأدرك حينئذ أنه يتعين عليه أن يقضي على حزنه لفقدان خاله العجوز بأن يفرغه في عمل تحرري ملموس. لقد سئم ذلك السلوك الذي يقلصه هو ورفقاؤه في الحي مهما كانت مؤهلاتهم المهنية ويجعل منهم مجرد عاطلين أو مغبونين في أجورهم، ويغرقهم في سأم يومي لا يحتمله إلا ذلك الذي يجتر

مصيره بدلاً من أن يحرقه ويقضي عليه ـ وكانوا يعيشون أيضاً تحت وطأة العادة السيئة التي تجعلهم يغبطون الأوروبيين أصحاب الفتيات المتفتحات المرحات في شارع برتانيا خلال أماسي الصيف. أما هو فقد عقد العزم على الاضطلاع بعمل ما وعلى إفراغ ذلك السأم المسيطر عليه في نهاية الأسبوع وفي نهاية الشهر لكي يجابه الأفكار السائدة التي تزعم بأن الخمول منتشر بقوة في أوساط أهالي المدينة الآخرين الساكنين في الضفة المقابلة من نهر السيبوس على أن هؤلاء ما كانوا في حاجة إلى القيام بشيء لأنهم فتحوا بلاداً بأكملها؛ وإذا كانت العدمية تأخذ بتلابيبهم فإنها قائمة في الجهاز العصبي للمدينة نفسها بحلوياتها ومطاعمها وساحاتها المخصصة لسباق الجياد وحاناتها التي تنبعث منها روائح اليانسون وتصطخب بالفتيات الباحثات عن الأزواج وغيرهن من اللواتي يحضرن موعظة الآحاد. لكنه يجد نفسه مرة ثانية داخل زنزانته أو قل هو يعود إليها. ويعلم أنه على صواب حين فكر بتلك الطريقة خلال ذلك اليوم الذي جاؤوا لتهنئته لأنه فقد خاله العجوز. وأعطى لنفسه إمكانية للقيام بما أقدم عليه واضطلع به إلى أقصى حد من المسؤولية، تلك المسؤولية التي ما كان يوجد شيء وراءها سوى الموت!

7

فترة الاستراحة ما بين الشوطين

وقت ضائع. نصف الوقت. فترة الاستراحة ما بين الشوطين. فراغ قاتل. أرضية الملعب التي اكتظت وانتهبت وديس عليها وفاضت عن آخرها قبل وقت لم تعد إلا رغوة هائلة نسجت بشكل منتفخ وألقيت هناك مثل بركة خضراء راكدة قبعت إلى يمينها وإلى يسارها تلك الأنصاف من السفن الغريقة التي ليست في واقع الأمر إلا كوى الملعب المحاصرة بشبابيكها. (كل ذلك يعيد إليه صورة الأرصفة في المرفأ الصغير حيث الصيادون ذوو النبرات الصقلية والمالطية يرقعون تحت الشمس الشتوية اللطيفة شباكهم الممدودة على مدى مئات الأمتار فوق حجارة الرصيف المدورة الملساء. وعلى مقربة منهم برز الميناء الحقيقي حيث تنام بعض سفن الشحن وقد تصالبت فوقه الحبال الأسطورية والصقالات بفعل البياض الناصع في عرض البحر، المنتفخ مثل آلة السدس وإن كانت أطراف هذا الميناء تمنح حدوده ومعالمه نوعاً من السخام المتولد عن زيت التشحيم ونوعاً من المياه الراكدة الشديدة الاخضرار

مما يدفع بعضلاته وبجهازه العصبي إلى الارتخاء. أرضية الملعب خاوية مثل خواء الخريف عندما تتجمع البواخر وتفسح المجال لنداءات البحر العريض. سفن متراكمة مثل صفوف متعاقبة. حبال مطعمة بحسكات صغيرة مزبدة. رافعات هائلة تعذب الكوارتز المشع من البحر الرصاصي).
أما حوالي الملعب الفارغ فهناك تربة المنعطفات المغبرة وقد بدت وكأنها غارقة في تأمل شمسي لم يبق منه الآن سوى شعور غريب بالإشعاع المتموج الرجراج بفعل لفح الشمس، وهو إشعاع تدركه الحواس أكثر من ذي قبل بسبب هذا العري المفاجىء، والخلخلة المداهمة والثبات المنتفش بل وخاصة بسبب الصمت الذي لف على حين غرة تلك العمارة الهائلة المبنية في شكل دائرة ممدودة إلى الأمام وإلى الوراء. المدرجات المهجورة الملتوية تتعاقب في صورة مويجات فضائية لا تعرف كيف ولا متى تتطامن. ومعالم هذا التدرج المخطط بالأسمنت المسلح غير واضحة هي الأخرى بل إنها تجعل حدود الفتحات كلها تلوب أمام عينيه على غرار تلك الحجرة الواسعة التي تجمع بها الصحفيون وقد بدت وكأنها انبجست من الصخر وأشعت بواجهتها الزجاجية الناتئة مثل درج ترك مفتوحاً، وأبصر من خلالها وجوهاً مشوهة بفعل انبعاج الزجاج، رقيقة ضعيفة كأنما هي أطياف على شفا هاوية. وجعل ذلك المشهد كله يرف في الجو الصفيق الذي انطبعت عليه الألوان مثلما تنطبع في حلم نهاري صامت يذكره بعشيات بلده حيث

تعود أن يقضي وقته في لعب الدومينو والداما داخل عرين تاجر من تجار القرفة والفحم وشحم الغنم المجفف المقدد ـ ما أشبه ذلك بالرائحة العفنة المنبعثة من الجماهير الراشحة بالعرق، الغارقة في ملحها ـ على حبال تخيط حدود ذلك الحانوت الصغير. التشابكات بالغة التعقيد بفعل الخيوط المتصالبة المتقاطعة المنسربة في الفضاء المظلل الذي يهجم على الأفق كأنه صواري سفينة مهلهلة يتلاعب بها الريح في عرض البحر. وتنسد المنافذ والمشاهد ويتلطخ كل شيء بالصفرة، صفرة الشحم فتغيم أعين لاعبي الدومينو الذين ما عاد في وسعهم الارتحال بخيالاتهم والتركيز في اللعب. الآن وقد بعدت الشقة بينه وبين ذلك الزمن حين جلس على المدرجات، وحيداً، وقد تشنجت يسراه لطول ما ضغطت على المسدس، يسائل نفسه إذا لم يكن ذلك التشابك من حبال القنب وتلك الطريقة الفريدة التي رصفت بها قطع الشحم المملحة وسيلة لرؤية العدو وهو قادم عن بعد أو الدخيل أو الأجنبي وهو في زي دركي أو شرطي أو بواب. على أن ذلك كله يرمي به في تلك الرحلة الطقوسية التي قادته من عنابة إلى مرسيليا في عنابر سفينة متهالكة تريد أن تبدو في شكل ناقلة خمور. الشاشة التي تنطبع عليها الذكريات صدئة حائلة ناصلة اللون. لكن الحرارة الخانقة في المدرجات التي هجرها المتفرجون إلى المشارب ودورات المياه وغيرها من الحانات والمقاهي والأماكن العمومية وأكشاك بائعي

الذكريات والبطاقات البريدية وصور الفرق الرياضية واللاعبين أو الأشياء الفنية أو اللوحات المنسوخة التي لها علاقة ما بكرة القدم ـ هذه الحرارة ـ تحرك أمام ناظريه ذكرى مبهمة مقلوبة مقطوعة عن قطار ينزلق على عجلاته بعنف بين ستراسبورغ ومرسيليا ويلتصق بحديد السكك التي بدت وكأنها أشواك تنغرز في صدغيه المسخنين بذلك الصفير المخنوق الشبيه بصوت قطعة قماش خشنة تمزق شيئاً فشيئاً. . وتتضاعف الصورة وتتعدد وتلوب وتغيب ثم تعود تبعاً للتقوسات والانحناءات والتدرجات والمنعطفات والحدود. وتستحوذ عليه أيما استحواذ ذلك أنه قضى وقتاً طويلاً داخل القطار وسرح فيه بعينيه فانتهى به الأمر إلى الإغضاء على أنه بقي شاعراً بوجود المسافرين الآخرين إلى جانبه وقد عبسوا أو أغرقوا في الهمهمة وانغلق كل منهم في أناه المعقدة. وضاق ذرعاً بذلك، وأحس بضربات قوية على صدره أكثر انتظاماً من نبض قلبه، مخبأة تحت بشرته بخفقان لا يكاد يسمع، معقدة أكثر من عضلاته المتقلصة المشدودة إلى شرائح القلق المتعددة. لقد سبق له أن علم سبب مجيئه إلى هذه البلاد والتي ليس له ما يعمله بها، هذه البلاد التي خاطر فيها بحياته وبحياة الآخرين لأنه كان على دراية بالمطاردات التي حدثت منذ اندلاع الثورة، وبالجثث الملقاة في نهر السين، وبالرصاص الذي صوب ضد الفنادق الحقيرة، وبالاعتداءات القاتلة في حق أبناء بلده المضللين الذين يلقون بأنفسهم بين أيدي جلاديهم

سواء أكان هؤلاء ببزاتهم أم لا. والحق أن هؤلاء الجلادين كانوا قادرين على إخراج أسلحة نارية بمهارة فائقة، وأسلحة للترهيب، ومطارق، وقبضات حديدية أمريكية وسكاكين، لذلك انطلقوا بكل شراسة ليوجهوا طعناتهم بسرعة مذهلة وحقد يمحق الأعصاب ويسحق العظام والبشرات ويغطيها بجروح فاغرة ينبجس الدم منها عندما يمزقون الأوردة بضربات قاطعة. ويندفع الدم في شكل دفقة زرقاء ليجعل من أجسادهم المشوهة المحروقة المغرقة، المدفونة في مقابر السيارات، عبارة عن جثث إسفنجية ملأى بالثقوب التي ينسرب منها القلق المتراكم منذ أن وطئوا أرض هذا البلد الأجنبي. لكنه احترس الاحتراس كله واستعد لا للدفاع عن نفسه فقط بل لقتل جميع الذين لا يريدون التشكيك في وجوده فحسب بل وفي كينونته ذاتها وهويته وجوهره. وما كان يرغب حتى في تحديد موضع الصورة على أن ذلك لم يمنعه من الخوف ومن الإحساس بأن عينيه تطرفان في مواجهة الوميض الخارق لذلك القطار الذي يغرق في الأنفاق ويتسلق المهاوي، ويعاود النزول إلى السهول حتى إنه يتنضد عرقاً، ويتقاطر عرقه ذاك لزجاً مالحاً على جنبيه النحيفين في شكل خيوط راشحة تنتهي في تجويفة الكليتين. إنه على وعي بالشرخ الذي حدث داخل جسده نتيجة لقراءة الصحف ومقاطع الجمل والحداد المتواتر والتوابيت المختومة التي تصل على متن سفن الشحن... ومن ثم فهو مستعد لأي شيء طارىء. محترس

الاحتراس كله. على قدم وساق لكي يكون أول من يسدد ضرباته بدلاً من أن تنطلي عليه الحيلة. على أهبة لكي يكيل الصاع صاعين. بل إنه مستعد لاتخاذ المبادرات حتى وإن ترك رأسه يسقط داخل كيس الجلاد.. حقاً، كان خائفاً من جميع الاختلاطات والتمازجات سواء أكانت في شكل تشابكات وتداخلات أم في شكل تجمعات وتراكمات متنوعة متولدة عن ظاهرة تاريخية فريدة موحدة، وهي ظاهرة تتجاوزه بطبيعة الحال لكنه على وعي بها، وإن كان مثل هذا الوعي مبهماً غير واضح، مدركاً بغريزته الفطرية أن سر غرابة المحيط الاجتماعي والأحداث التي جعلت منه مجرد ضحية كامن في ذلك التضافر الذكي بين الكائنات والوقائع والعناصر وفي انصبابها في تلك الحزمة الضوئية القاهرة التي تسمى بالتاريخ. فترة الاستراحة ما بين الشوطين. يكاد يكون وحيداً، ينتظر بقية الأحداث في هدوء ويعلم الآن أن المنصة قد خلت من الرسميين وأنه ليس في وسعه شيء.

فترة الاستراحة إذن. يحاول تركيز فكره، لكن صدمة المدينة التي نزل بها بعد رحلته الطويلة على متن القطار لا تزال قائمة تفرض عليه نفسها مثل مشهد ذهبي انطبع إلى الأبد في نخاع عظامه... وما ذلك إلا لأنه أحس بالانغلاق الرائع الذي يتمثل في تنظيم حضري حقيقي بعماراته الفخمة الآيلة للسقوط، وشوارعه المقذوفة في مستقبل الزمن بشكل أرعن، وأزقته المنتعشة بزحمة البشر، وهو يحاول أن يشق طريقه بينهم، هؤلاء البشر الذين غرقوا

في السوداوية والبرودة وأقلعوا عن الجعجعة أو كادوا، وتبرقعوا بالملابس القطنية وبرزوا بنفس الكثافة من خلال الواجهات الزجاجية الفاخرة وبين السلع المتراكمة ووسط المارة الذين يتقدمون بحركة آلية جامدة، أو حلقات حلقات؛ منضبطين، كأنما هم مصبوبون في قوالب من الصلب أو من الأسمنت المسلح أو مجمدون داخل صقيع عيونهم المزرقة المغيمة، وقد تقلصت حركاتهم وانغلقوا دون أي ابتسامة تقترب منهم كأن هناك قوة ساحقة تحركهم حركة آلية. وهي حركة تتجسد في ضخامة المباني وفي الكتلة الهائلة المتمثلة في الكاتدرائية وفي التشكيلات الهندسية التي تفرض نفسها، وتسبح مع ذلك في ضوء باهت على الرغم من النور الكهربائي الذي يبدو أنه لا يتوافر على الطاقة السائلة الكافية حتى يشع في المصابيح ويفتح الحياة في صدور هؤلاء الرجال والنساء المقيدين وينير تلك الصقالات المعقدة من هياكل الأسمنت المسلح والزجاج والصلب والحديد. وقع في روعه أن الصدمة التي أصيب بها آنئذ لا تنطوي على أي معنى ذلك لأنه اعتقد دائماً وأبداً أن الناس الذين جاؤوا لاحتلال بلده ما كانوا بناة حقيقيين ينطوون على إرادة استشرافية تشدخ الفضاء وتفتحه وتطرحه في المدى الرجراج. على أنه ما توقع قط مثل ذلك الحراك والتململ اللذين وقعت عليهما أنظاره عبر تلك الزحمة الكثيفة المتلاصقة من البشر ساعة الخروج من المكاتب وحين إغلاق المتاجر والهبوط من عربات الترام

المكتظة عن آخرها التي لا تكتفي بأن تقطع الفضاء بخيوطها الكهربائية مندفعة مثل بروق زرقاء، بل تحدث صخباً صادراً عن الحديد العتيق فتمزق الصمت الثقيل المسيطر على الناس المنضبطين العبوسين الخاضعين، العمي وهم يعبرون الطريق في نفس المقاطع ويضبطون حركاتهم تبعاً لأضواء المرور ويقولبون حياتهم وفقاً لمبادىء العزلة الصارمة. لكن ذلك الترتيب كله كان يجابه تصنعه وتكلفه بالذات، ولم يكن ذلك ناتجاً عن تفوق عربات الترام وسيطرتها على الواقع فحسب بل صادراً أيضاً عن الصخب الذي تحدثه في الفضاء ملايين الجزيئات وهي تحمل في أطوائها بذور ذلكم الثقل الذي يتعين عليه أن يحدد ماهيته: أتراه بخاراً ينفلت من بالوعات باطنية مموهة؟ أم هو تلوث ناتج عن الغاز الفحمي المكثف الذي يتدرج في طبقات الجو؟ أم هي النتانة المنبعثة من دورات التبول حين تتراكم في بقعة سميكة لها شفافية الصوف المهترىء المنطرح على الثمار والخضراوات العفنة؟ على أنه مهما كان مصدر ذلك كله فإنه قد بدا لناظريه وكأنه يتحرك بفعل تقلصات لا مادية تصب كلها في الكتلة العملاقة المنصوبة في قلب الساحة الرئيسية بالمدينة، ووسط اللون الرمادي الراشح مثل رواسب من الصوديوم المفروش على الحجارة المستطيلة المدببة أو مثل درع مثقل بقذائفه المتعددة التي تتراص فيما بينها وتتعقد وتشهر عداءها الصارخ، وما كان ذلك إلا الكاتدرائية نفسها.

ويغض الطرف عن تلك الغواصات العائمة المتمثلة في الفنادق الفخمة ذات الواجهات العارية والكوى اللامتناهية التي تنحصر بين طبقتين من الغيوم فتضيف إلى ذلك المظهر العملاقي للمدينة بعداً إضافياً ساحقاً. لكأن تلك المدينة العظيمة في حاجة إلى أن تبرهن لعينيه المثقلتين بالحيلة وبالأحكام المسبقة، الفائضتين بالحذر والاعتزاز بأن هناك ما تضفيه من أبعاد عملاقة حتى ترده إلى مكانه وتسحقه بعجرفتها وتفنجها والتواءاتها الأسطورية داخل حواشيها المذهبة الليفية المنتفشة بفعل التقلبات الجوية وفضلات الحمائم المكتنزة التي تدهشه. سار بسرعة كبيرة مع أنه ما كان يحسن إلا التسكع وكأنما هو واقع تحت وطأة الإيماءات التقليدية التي تجعل منه مجرد آلة رتيبة الوقع، مزيتة، مضبوطة وفقاً للمعايير العالمية في هذه المدائن التي لا تنتهي. وحث خطوه حتى أنه رشح عرقاً على الرغم من البرد الذي يقرص جانبيه ويلسع قفاه وأذنيه وأنفه. وقال لنفسه: «لن ينالوا مني إن هم اعتمدوا على ذلك... أكيد أنهم لن ينالوا مني.. لن يلقوني في النهر الذي يعبر المدينة، هذا النهر الذي مدوا فوقه جسوراً من الصلب والحديد والخشب وأقواساً من الأسمنت المسلح، لأنني سوف أكون أول من يتخذ المبادرة.. ينبغي الاتصال بالمنظمة ولا أريد منهم أن يطلبوا مني مجرد كلمات... أريد أن أبادر ليس إلا...» على أنه أدرك أنه ما كان في حاجة إلى عبور البحر وقضاء يومين في القطار للأخذ بزمام

المبادرة. وتأكد أيضاً من أنه في وسعه أن ينظم نفسه هناك وأن يزرع الرعب أيضاً لكن... ما كان يخفي عن نفسه هذا الأمر البديهي وهو أنه ما كان يستطيع أبداً أن يصير فدائياً لو أنه بقي إلى جانب أمه التي سبق لها أن فقدت زوجها في الحرب وأخاه في الجبال. وجعل يذرع المدينة وينسرب عبر جماهير النسوة والرجال المرهقين الذين جحظت عيونهم وانسحقوا تحت كتل الحجارة المنحوتة المبرقشة التي تداولتها الأيادي البشرية العديدة الممزقة بفعل الأشغال الكبيرة ونتيجة لغزو أولئك الذين تعنتوا لكي يجعلوا من العالم كاتدرائية واسعة تقوم هندستها الصارخة مقام عقيدة لا ينبغي النيل منها أو تجاوزها.

ها هو الصمت يطبق ثانية. على أنه صمت نسبي بالقياس إلى ضجيج الأصوات والنواقيس والصياح والزعيق والصخب والصفير طول الوقت الذي دارت فيه المقابلة الكروية. بقي في مكانه قبالة أرضية الملعب وغرفة الصحفيين التي بدت وكأنها سفينة مقذوفة في الفزاغ، لا تريم بفعل قوة جاذبيتها وثقلها. ولما كانت يده اليسرى لا تزال داخل جيب سترة الألباجا ضاغطة على المسدس الصغير الذي أعطاه إياه ذلك الشخص الآخر، على وجه السرعة، حينما ذهب إلى محطة «الأوديون» لكي يخطر «جو» المهندس بأن الفرقة الفدائية الخاصة عينته لإعدام الباشاغا في ملعب كولومب، وهو الشخص الذي لم يجده هناك حيث تركه قبل بضع لحظات فقفل راجعاً إلى محطة

«الأنفاليد» لكي يعلن لرئيسه ذلك النبأ السيء عن تهرب «جو». اقترح بأن يخلفه لتوه فوافق الآخر بهزة من رأسه دون أن يترك أي انطباع يرتسم على وجهه الرخامي الذي انطفأ فيه بركان عينيه منذ عهد بعيد أو يأتي حركة مشجعة أو حتى أن يشكره على اقتراحه ذاك لكي يتدارك ذلك الارتداد المفاجىء المأساوي اللهم إلا إذا كان يلقي عليه بمسؤولية هذه الحادثة المؤسفة ويرى أنه من الطبيعي جداً أن يدفع الرئيس حساب الأضرار التي تسبب فيها أعوانه. بل إنه اضطر إلى بذل الجهد حتى لا ينحى عليه باللائمة ويؤنبه بنظرة شزراء ويطلب منه كشف الحساب، وهكذا اكتفى بأن وافق وأخرج من جيبه تذكرة وردية اللون تمنحه حق الدخول إلى الملعب وتمتم قائلاً: «ها هي تذكرة الدخول إلى المنصة الشرفية. إياك أن تضيع الوقت. سوف يكون الباشاغا هناك. ثم انسحب وغاب وسط مجموعة السواح الألمان كعادته دون أن يخلف أثراً أو رائحة أو رنيناً صوتياً ما لشدة ما كان كل شيء فيه محايداً، رمادياً، متعادلاً، متساوي الأبعاد، متوازناً، بارداً لا أثر فيه للإنسانية.. فإنه بدأ يحس بتصلب غير محتمل يزحف عليه تدريجياً وبتنمل مزعج ينتشر في أصابعه. وقرر أن يغادر المدرجات ويتجه صوب المشرب لإزالة الخمول والهمود عن رجليه. نزل درجات السلم المركزي بخطو رشيق فوجد نفسه وسط الزحمة المتجمعة حول مساحة شديدة الضيق يقوم إلى جانبها صف من المشارب ودكاكين صغيرة مظللة

وحانات وأكشاك لبيع التبغ والصحف. لم يشعر بالرغبة في الشرب لا لأنه لم يكن عطشاناً بل بسبب تلك الجماعات المتململة التي تتدافع هناك حيث تباع مشروبات دافئة وباردة من كل نوع. كشك الصحف هو الوحيد الذي كان فارغاً. اقترب منه وما أسرع ما انجذبت عيناه نحو الرفوف المثقلة بعلب السجائر المختلفة. وكبح رغبته في شراء علبة من نوع «باستوس» ثم أحجم عن ذلك. ها هو يتحدى نفسه لكأنما يريد أن يحدث التوازن في جيبه الأيمن الفارغ مقابل الجيب الأيسر المثقل إلى حد ما بالمسدس الصغير. أخرج ورقة من فئة الألف فرنك من محفظته المنزلقة في الجيب الخلفي من سرواله وقال: «علبة «باستوس» من فضلك، سيدتي» قامت العجوز القميئة المنشغلة بغزل صدارها على مضض ومدت يدها نحو رف وراء الطاولة، أمسكت بعلبة السجائر وطرحتها بلا مبالاة على طاولة البيع أمامها، وتناولت الورقة النقدية ووضعتها داخل درج صغير لا تقع عليه أنظاره وأعادت إليه ما تبقى من الحساب بحركة سريعة وعاودت الجلوس كأنما هي على عجلة من أمرها متابعة نسج صوفها. وهو يغادر الدكان الصغير أبصر إلى يساره بمسند حديدي دوار وقد انطرحت على خاناته بطاقات بريدية تمثل الملعب كلية أو جوانب منه. وفكر في ابتياع واحدة منها بعد أن حدس أن هذا الأحد 26 ماي 1957 يوشك أن يصير يوماً مشهوداً في حياته، وخطر له أن يرسل إحدى تلك البطاقات إلى والدته. التفت صوب المسند

الدوار، وخطا بضع خطوات وعندما وجد نفسه في متناول الصور الملونة أدار المسند، انجذبت عيناه نحو بطاقة ترتسم عليها صورة تمثال صغير واقف على قاعدة، يمثل رياضياً شاهراً كأساً. ارتبك في وقفته تلك وتناول البطاقة البريدية وتصفح ظهرها. وبحركة آلية قرأ الكتابة التالية المحفورة على البياض إلى الجانب السفلي الأيسر منها:

قاعدة مجمرة أتروسكية:

الفائز بالكأس ذو القدمين المجنحتين وهو يشهر قصب السبق.

بداية القرن الخامس ما قبل الميلاد.

برونز، ارتفاع 18,7 سم.

أما في أسفل البطاقة فهناك كتابة مطبوعة بأحرف أصغر بكثير. قال في ذات نفسه: «إنها أحرف جرامون رقم 7 بكل تأكيد» ذلك لأنه سبق له أن عمل بضعة أسابيع في مطبعة سرية تابعة للمنظمة:

المكتبة الوطنية.

نقود، أوسمة، منحوتات قديمة.

وإلى الجهة العلوية اليمنى من ظهر هذه البطاقة البريدية مستطيل صغير يحدد موضع الطابع البريدي. وفي وسطها ثلاثة سطور متساوية الأبعاد والفرج. ثم هناك سطر آخر مطبوع على غرار الأسطر الأخرى ويمثل الثلثين من أطوالها. السطور الأربعة مخصصة لكتابة العنوان بدون شك، أما السطر الأخير فهو لكتابة اسم البلد المرسل إليه.

لم يسبق له أن أعار اهتمامه لمثل تلك التفاصيل اللامجدية التافهة. لكنه لاحظ ذلك على نفسه وهو متعجب لطريقة رسم موضع الطابع البريدي على ظهر البطاقة ولتخصيص سطر لكتابة اسم المرسل إليه ولقبه وسطر ثانٍ للرقم ولاسم الشارع وسطر ثالث لاسم المدينة وسطر رابع أخير أصغر من الأسطر الأخرى لكتابة اسم البلد. وقال لنفسه: «أنهم مجنونون حقاً وإلا فلماذا يضيعون الوقت والمداد لرسم هذا المستطيل وهذه الأسطر الأربعة؟.. حتى الطفل الذي بدأ تعلم الكتابة يستطيع الاستغناء عنها.. لعله أثر من آثار الأمية التي كانت منتشرة في البلد منذ وقت غير بعيد والتي يصدرونها اليوم نحو المستعمرات... يا للغباء!... إنهم يسخرون من الدنيا..» وعاوده الارتباك فجأة فغير موضع البطاقة وقد انجذب نحو كتابة أدق من كتابة السطرين الأخيرين الواقعين إلى اليسار وإن كانت الحروف هذه المرة تتمدد بصورة اعتراضية:

من تصوير المكتبة الوطنية. مطبعة تاردي كويرسي.

كاهور. فرنسا.

خاطب نفسه قائلاً: «إنها أحرف جرامون رقم 5. لا شك في ذلك». وقلب البطاقة البريدية في جميع الاتجاهات مشدوهاً بذلك المستطيل، متسائلاً إذا ما كان سيشتريها وإذا ما كانت العجوز العبوس تبيع الطوابع البريدية أم لا. ثم أدار البطاقة فقرأ مرة ثانية الكتابة التوضيحية دون أن يتأمل

التمثال الصغير لكأنما أراد بذلك أن يؤجل لذة الاستمتاع إلى وقت لاحق:

قاعدة مجمرة أتروسكية:

الفائز بالكأس ذو القدمين المجنحتين وهو يشهر قصب السبق.

بداية القرن الخامس ما قبل الميلاد.

برونز، ارتفاع 18,7 سم.

المكتبة الوطنية.

نقود، أوسمة، منحوتات قديمة.

صفر ما بين أسنانه، ورفع عينيه، وأدرك أن العجوز الغازلة لم تحد بأنظارها عنه وهي تنسج بخفة وببعض الحذر مقطبة الجبين، مرتابة إلى حدٍ ما، وتظاهر بأنه لا يدري أنها تحدق فيه، وصفر ما بين شفتيه بلا مبالاة. «يا للغرابة! خمسة قرون قبل ميلاد المسيح. أحد عشر قرناً قبل محمد إذن! يا للعجب! كان لهم رياضيون في ذلك العهد..» كلمة أتروسك تربكه. يريد أن يموضعها على الصعيد الجغرافي لكنه لا يدري. يعرف أن كلمة أتروسك موجودة في أوروبا، وفي جنوبها بالذات. وانتهى به الأمر إلى أن قال: بلغاريا. (لم يدرك تفاهته إلا بعد وقت طويل من الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة حين قادته الصدفة إلى مطالعة كتاب عن الحضارة الأتروسكية. نشأت هذه الحضارة غير بعيد من روما ويقول البعض إنها جاءت من صقلية بل ومن بعض المرافىء التجارية القرطاجنية. قرطاجة

هذه التي زارها خلال رحلته للبحث عن أشهر المساجد في الإسلام ـ جامع الزيتونة، الجامع الأموي، جامع الأزهر وجامع القرويين. . لعل الأمر اختلط عليه ما بين فن الأتروسك وفن تراقيا). استمر في التصفير مخفياً يده اليسرى في جيب سترته، علبة الباستوس بين الخنصر والبنصر، والبطاقة البريدية بين السبابة والإبهام في حين أن الوسطى مصوبة عن غير عمد نحو العجوز التي تحدق فيه بجسارة. وقال في ذات نفسه: «سوف تسنح لي الفرصة لرؤيتها مرة ثانية هي الأخرى إن أنا نجوت. . . سوف تأتي لتدلي بشهادتها في المحكمة. . . سائق التاكسي أيضاً. سوف تطالب بإعدامي ولا شك. بل إنها سوف تقول: لقد ذهب دون أن يدفع الثمن واضطررت إلى تذكيره». ثم إنه قرر أن ينظر إلى التمثال البرونزي الذي تفتت بفعل عوامل الزمن وقد برز على صفحة سماوية زرقاء. قاعدة هذا التمثال عبارة عن طاولة صغيرة من الخشب الصفيق بقوائم مقوسة وثلاث حلقات، اثنتان منهما متوازيتان مع قائمتين اثنتين أما ثالثتهما فهي في شكل مائل قبالة القائمتين الأخريين. ويمثل هذا النصب الصغير فتى عارياً تماماً إلا من نعلين في قدميه وسوارين ما بين المرفقين والرسغين. وهو فتى قصير القامة ذو فخذين قويتين، وجذع رهيف جداً. أما تسريحة شعره فقصيرة في حين أن وجهه خالٍ من أي تغيير. ويده اليسرى تشهر كأساً مبتذلة، وقد فتح ساعديه دليلاً على الانتصار، وثنى رجله اليسرى فبرز

مفصل ركبته بروزاً واضحاً. وظهر قضيبه بين فخذيه مثل زائدة تافهة في ذلك البناء المعماري من العضلات. قال لنفسه حينئذ: «قد تصاب والدتي بالذهول، وقد تصدم إن أنا أرسلت إليها هذه البطاقة! لا جدوى من ذلك. لكنني أشتري هذه البطاقة لنفسي على سبيل الاستذكار ليس إلا. هذه البطاقة تحمل معنى على الأقل أما بقية البطاقات الأخرى التي تمثل هندسة الملعب أو اللاعبين فهي شديدة البشاعة ولا تنطوي على أي رمز. الفائز بالكأس ذو القدمين المجنحتين. سأشتري البطاقة. أنا جدير بها.. مع كل ما ينتظرني». رجع إلى العجوز فلم ترفع عينيها بل قالت: ثلاثون فرنكاً. طرح النقود أمامها وخرج والتحق بالمدرجات. ووضع علبة السجائر في جيبه الأيمن أثناء سيره وبه رغبة مكبوتة طوعاً، وأخرج محفظة أوراقه الموجودة في الجيب الخلفي من سرواله الرمادي وأزلق البطاقة بين الطيات الجلدية.

عندما عاد إلى مكانه وجد أن المتفرجين قد استقروا على المدرجات وأعربوا عن نفاد صبرهم مع أن ربع الساعة المخصص لفترة الاستراحة لم ينصرم بعد لكأنما أرادوا بذلك السلوك أن يبينوا بأنهم أكثر رعونة وتصابياً مما ينتظرهم منهم. جلس في المكان رقم 19 وسرعان ما أدرك أن جاريه قد تبادلا مكانيهما. فالذي كان إلى يساره صار الآن جالساً إلى يمينه منشغلاً باجتراع زجاجة من البيرة وفي يده ساندويتش ضخم من السجق فاضت دوائره، في حين

أن المتفرج الذي كان إلى يمينه تحول الآن إلى اليسار وهو يلوك قطعة شوينغوم بكل عصبية. وبعد لحظات استبد به نوع من التهيج وأدرك أنه راضٍ كل الرضا عن الجمهور الذي بدأ يدمدم دون أن يكون له هو ما يقلقه في هذا الجانب. سيخرج اللاعبون عندما يرى الحكم أن الوقت قد حان. إنه يعرف شيئاً واحداً وهو أنه سينفذ حكم الإعدام في ذلك الرجل. ينظر إلى ناحية المنصة فيراها خالية. لعل الرسميين يكرعون كؤوس الشامبانيا في القاعة المكيفة المجاورة للمنصة الشرفية. يتساءل إذا ما كان الباشاغا العجوز العنيد المغتر بنفسه، الخائن لقضية وطنه يشرب الخمر أم لا. ويقرر بينه وبين نفسه أنه لا يشرب. فهو مسلم مخلص! ها هو الآن يجده ودوداً كل الود، عجوزاً ورعاً... متهالكاً، مدللاً. لعله متزوج بأربع نساء، بالإضافة إلى الجميلات اللائي أهدتهن إليه الدولة الفرنسية ثناء له على وفائه. قد يكون له أولاد ينتمون إلى المنظمة، من يدري؟ إنه لا يعلم شيئاً عن مثل هذا الأمر وإلا لكان تثبت من ذلك قبل أن يقتله. لكن العملية جاءت بالصدفة ولم يستطع أن يتوافر على أي عنصر من العناصر ولا حتى على صورته! إنه أمام ظل ليس إلا، وسوف يتحول هذا الظل إلى شبح عما قريب. وفجأة ازداد صخب المتفرجين، فصوب نظراته إلى الأمام وإلى المدرجات الواقعة في الجانب الآخر من المرمى ثم إلى النفق الذي يدخل منه اللاعبون إلى الملعب بعد لحظات وأبصر بأعضاء الفريقين

يخرجان بقيادة ثلاثة أحصنة سوداء إنجليزية ليست في واقع الأمر إلا الحكام الثلاثة بأزيائهم السوداء التي يلبسها حفارو القبور أو التي يرتديها الرسميون أثناء حفل تتويج الملكة. أشرطة بيضاء وزرقاء إلى اليسار وأشرطة برتقالية إلى اليمين. الجمهور يصفق ويبدو عليه السرور غير أن العديد من الوجوه منقبضة خاصة منها وجوه المهووسين بكرة القدم الذين وهبوا حياتهم لهذه الرياضة وللفريق الذي يعبدونه بعد أن صارت عبادة الله نادرة في هذا البلد. الفريقان يجريان نحو الجانب الآخر من الأرضية المعشوشبة. ثم يستقر كل منهما في المرمى المعاكس لبداية المقابلة. فريق تولوز يلعب الآن في مواجهة الريح وفريق أنجي يلعب مولياً ظهره لها. رغب فجأة في أن يخرج البطاقة البريدية الزرقاء ثم تراجع عن ذلك حتى لا يلفت الأنظار إليه. يكفي أن يده اليسرى لا تزال داخل جيبه الأيسر. . المعلق يعلن بأنه ليس هناك من تغيير في الفريقين. لن يكون للاعبين الاحتياطيين في كلا الفريقين سوى أن يتذمرا أو يأملا بألا يجيد واحد من رفاقهما اللعب أو يرتكب أخطاء فادحة حتى يخرجه المدرب ويعوضه بأحدهما. إنهما جالسان على الدكة في هدوء إلى جانب مدرب تولوز «بول بيجو» ومدرب أنجي «والتر بريش» النمساوي الأصل (تكرار لا طائل من ورائه، أم هي الرغبة في جلب الأنظار أم مجرد خضوع لطقوس الملعب وعاداته؟ الترانزستور يستعرض مرة ثانية أسماء اللاعبين بادئاً بالفريق الخاسر. . أهي شفقة؟ أم

تعاطف؟ أم هو تسلسل الحروف الأبجدية هو الذي يفرض ذلك ويفترض أن يكون حرف (أ) أنجي سابقاً لحرف (ت) تولوز...)؟ وقد يذهب الأمر باللاعبين الاحتياطيين إلى حد أن يأملا بأن يصاب واحد من رفاهما بجروح خطيرة حتى يستطيعا اللعب ويتسنى لهما البروز لكي لا يضطلعا إلى الأبد بأدوار ثانوية ولكي لا يظلا مجرد مساعدين تافهين حتى وإن قدر للاعب الجريح المستخلف أن يتجمد طوال أشهر ثلاثة بكل ما يفترضه مثل هذا التوقف من دخول إلى المستشفى وعملية جراحية في الغضروف أو في الركبة أو في العضلة ومن تدريب للمفاصل ومن آلام وعذاب...

أهداف فريق تولوز الثلاثة من تسجيل «درودر» اللاعب رقم 8 في الدقيقتين الحادية عشرة والرابعة والعشرين، وبوشوك على أثر قذفة مباشرة، بعد غلطة ارتكبها كوالسكي، في الدقيقة الثامنة والعشرين. صوت المعلق الإذاعي يتوقف. أما هو فلا يزال في مكانه، صافي الذهن على الرغم من الخوف. هادئاً وسط هيجانه المكبوت، واثقاً كل الوثوق من أعصابه. على قدم وساق. الحكم يؤخر انطلاق المقابلة. اللاعبون في مواقعهم. الجمهور في موقعه هو الآخر. المنصة الرسمية تمتلىء شيئاً فشيئاً. لا يحيد عنها بعينه اليمنى. يوجد في موقع جيد لحسن حظه. ليس في حاجة إلى أن يدور أو يميل أو يشرئب بعنقه. له نظرة خاطفة. المتفرجون قلقون. رئيس الجمهورية مصحوب

بزوجته المهيبة ذات القبعة الخارقة وهي تدخل المنصة معه وإلى يسارها الباشاغا شامخ الأنف ببرنوسه الأبيض الخفيف المصنوع من قطن الحوز. أنظار الحكم الإنجليزي مسمرة هي الأخرى على المنصة، ذلك أنه بمجرد أن اتخذ رئيس الدولة وحاشيته أمكنتهم حتى أعطى الإشارة لانطلاق الشوط الثاني من المقابلة.. الكرة الآن إلى جانب أنجي. **«تيزون» قلب الهجوم في هذا الفريق ينطلق في اللعب ويمرر الكرة إلى الخلف صوب «شندلر». تمريرة جانبية من «شندلر» إلى «لونكل» الذي لا يتمكن منها، لكنه يجري وراء الكرة ويعرقل بعض الشيء اللاعب «بوشي» رقم 4 من تولوز. ليس هناك أي خطأ. الحكم م. كلو يترك المقابلة تتواصل... ومع ذلك فإن الكلمة الأخيرة للاعب «لونكل». ها هو يراوغ «بوشي» الذي جاء لمجابهته** و...

وهو يدرك أنه تعين عليه أن يسارع إلى مغادرة ستراسبورغ والاستقرار بباريس حتى يسهل عليه الاتصال بالمنظمة. لكنه جوبه بمدينة أكثر رعباً، مدينة متشعبة فسكن عند «بيل» بنهج سان جاك رقم 17. «بيل» هذا من مدينة البرج. أما اسمه الحقيقي فهو محمد. إنه مثل الآخرين دون شك. وجهه برونزي اللون وشعر رأسه ضارب إلى الشقرة مدعوك بزيت «الكاد» في كل يوم. لن يستطيع أن يخدع أحداً بمثل هذا المظهر. لكنه كتوم للأسرار ولا يقطع صمته أبداً. وقد تهرب من الأسئلة التي طرحها عليه كأنما حاول بذلك أن يقطع عليه كلامه أو على الأصح أن يقضي على ثرثرته لكي

يدفعه صوب النهر حتى يذرع أرصفته وجسوره ويكتشف المدينة بكل ما لها من لطائف ويخطف الخطفة من تلك البناءات المعمارية المتوترة المثلومة المنظمة مثل شبكة عروق وأنوار تجري داخل حدودها الصارمة، تلك البناءات التي ترسم الحمائم أبعادها بفضل تحليقاتها المهفهفة وتتطامن عند ساحة كنيسة «نوتردام» الفخمة الأمبراطورية بمجرد أن يعبر المرء جسر «سان ميشال» ويعبر جسراً آخر ويستند إلى حاجز من العصر الوسيط ليتأمل برجي سجن «لاكونسيير جوري» حيث انتظر العديد من الملوك والملكات لكي يحين موعد فصل رؤوسهم عن أجسادهم. وهكذا تسكع وتجول في حضارة احتقرته كل الاحتقار حتى ذلك الحين ثم بدأ يحب المدينة شيئاً ما إلى أن وقع بالصدفة ذات يوم على سيلين أو آلين في حديقة مزهرة معطرة بماء الورد. وما وقع أي منهما في مثل ذلك الفخ. على أنه وهو في غمرة السعادة التي اكتشف خلالها الأنوثة وتدرب فيها على الموسيقى والخط قابل بالصدفة زميلاً سابقاً في المعهد بالسوق الواقعة في نهج بوسي. وأدرك لتوه أنه أمام شريك جاد. لم يتحدثا في السياسة لكنه وجد نفسه في اليوم الثاني وجهاً لوجه مع واحد من أبناء بلده، يبدو عليه المرح، وقد سأله إذا ما لم يكن يرغب في إحراق مكتب شخص يدعى «سوستيل». أسر إليه بعنوان من العناوين، وبعد يومين من ذلك اللقاء شب حريق في نهج تلسيت رقم 23. لكن الشرطة أعلنت بكل فتور أن الأمر يتعلق بعمل

إجرامي ليس إلا. وفجأة أدرك أنه توجد منظمة سرية ذات تركيب هرمي الشكل. وحين توجه إلى العمل صباح اليوم التالي التقى لأول مرة بذلك الشخص الذي أسماه منذ ذلك الحين «الرجل الحريري» بسبب أربطة عنقه ونتيجة لعجزه عن معرفة اسمه الحقيقي.

8

تولوز: 4 ـ أنجي: 1

استطاع أن يرضِي كبرياءه منذ البداية حين أرغم الشرطة على احترامه، فما كان ينبغي له أن يفسح لهم المجال للشتائم العنصرية ولرفع الكلفة بينه وبينهم. بدا أهدأ منهم. يجابههم وجهاً لوجه. الكبرياء درع، ثم إن التاريخ يقف إلى جانبه. وما استطاع محافظ شرطة كولومب النيل منه، ذلك أنه بعد محاولات عديدة أضاع غطرسته وسخريته بل ونطقه الباريسي المتقعر. أما هو فقد تحصن بكل بساطة للدفاع عن نفسه وظل متشبثاً بتحصنه ذاك لا يحيد عنه قيد أنملة. ميزان القوى في مكتب المحافظ المغبر المضطرب غير متوازن على الإطلاق لشدة ما كان هدوء الفدائي يخلخل أعصاب الموجودين في الغرفة الضيقة، الواقفين جميعاً باستثناء المحافظ (المرتمي داخل أريكة من الجلد المنتفش، وقد شحب وجهه بفعل الضوء الكابي الذي ينير الغرفة ويجعلها ناضحة بروائح الأشياء العتيقة والخمول واليأس الأخلاقي والانحلال البشري، والصغار بوجه أخص وضيق الأفق لا في العقول فحسب بل وفي الأشياء

المشكوك في جدواها وفي تضعضع الأشكال والحدود مما يبرز حدة القصور النفساني لدى خصومه...) والضارب على الآلة الكاتبة (الذي يطبع التقرير في الجانب الآخر من الغرفة فيأتيه وقع أصابعه على الملامس من وراء ظهره، ويتخيل في آن واحد، آلة كاتبة عتيقة من نوع «رومنغتون» دون شك بسبب الجعجعة الحديدية التي تحدثها العربة عند طباعة كل حرف والأصوات الطفيلية الصادرة من الملامس مثل سعال مخنوق). الجميع واقفون وراء ظهره وقد شبكوا أذرعهم بلا شك على صدورهم الرياضية والخمود مسيطر عليهم لطول ما غرقوا في متابعة اللصوص الصغار والجنح التافهة وحوادث المرور وسرقات الحقائب اليدوية، وأعمال النهب ورعونة الأحداث إلخ، لا يكاد الواحد منهم يتكلم إلا لماماً، بل إنهم يقلعون عن الحديث أمام منطقية كلامه الموجز الذي تذرع به منذ أن طلبوا منه أن يشرح لهم عمله ذاك. وهو كلام كرره على مسامعهم طوال تلك الليلة دون أن يغير فاصلة منه، وبنفس الصوت الرتيب الذي يفرض الاحترام حتى انه ما تجرأ أحد منهم على رفع الكلفة معه، بل إن المحافظ تجنب ما أمكن له تلك النظرة الهادئة التي تفصح عن أشياء كثيرة بل وعن احتقاره لهم. وكان هناك بوجه خاص ميلهم إلى إغلاق كل شيء والفراغ منه وإدراجه ضمن مجموعة من المخططات التقليدية البالية التي حاول المحافظ تجسيدها بضربة قلم على ورقة من الأوراق وبخطوط مستقيمة ومنحنية، على أن يحصن ذلك كله داخل

حدود خشنة قاسية التضاريس لا ترحم وتكشف في نفس الوقت عن موقفه الذهني وعن رغبته المسعورة في أن يكون على صواب، في حين أن الفدائي أدرك عجز خصمه ومحدوديته. وكانت تلك التضاريس التجريدية تعيد إلى الذهن صورة المناطق المحرمة المسيجة بالأسلاك الشائكة التي نسجوها حول البلد وانعكست على الورق في شكل نقاط متتابعة أو خطوط مشطوبة أو متقاطعة، وما أسرع ما طوف بالحلقة المتكاملة التي أوحى لهم بوجودها منذ البداية كأنما ليجنبهم الكثير من الفشل والخيبة والتوتر العصبي، بل إنه عاد إلى الطواف حول ذلك الشكل الإهليلجي (الذي زودهم به لأنه شعر بالتعب يدهمه وبالنوم يجتذبه ويزحف عليه مما دعا إلى أن يزدادوا احتراماً له) ذي الاستدارة الكاملة التي عرضها عليهم بالتركز والتركيز على جميع الاتجاهات. وهو الشكل الذي ضبط ضبطاً نهائياً الهندسة المتعلقة بإعادة تمثيل الحكم بالإعدام وإن كان مثل هذا الحكم مضبوطاً مسبقاً، لا بسبب المنطق الداخلي المتلاحم الصارم والحجج القاطعة التي يمكن للمرء أن يستعملها كيفما شاء، بل نتيجة لهندسة مدققة ملموسة عبر تسلسل تاريخي يقطع عليهم أنفاسهم ويزرع الشك فيهم بل ويدفعهم إلى الإحساس بالذنب. وقد كان مستعداً لكي يجسد أمامهم مثل ذلك التسلسل ويخططه ويرسمه تبعاً لاختيارهم بالاعتماد على مجرد نقطة خشنة حمراء فاقعة ترمز إلى الخراب الذي تتطلبه في مثل هذه الأحوال إعادة تمثيل

الحكم بالإعدام في حق خائن مع اللجوء بطبيعة الحال إلى استخدام العناصر الثانوية التي تمثل ما سمي بالمحيط من حركات وقذفات ومسارات تتخذها الرصاصة ومن أمكنة عمومية، وآثار وبصمات ومن سلاح ومن تفاصيل عديدة صغيرة لم يرد حتى أن يستذكرها. لكنهم ظلوا في أماكنهم مشدوهين، فاغرين أفواههم، مشوشين، مقطبين ما بين حواجبهم، مثقلي الأهداب التي ازرقت بفعل التوتر والانشداه المتزايدين وإن حاولوا التحكم في نفوسهم ناهيك بالرعب المندفع عبر صدوغهم وأعصابهم كأنما هم منقوعون في محلول من الزئبق أو كأن عيونهم اتسعت بفعل آلة من آلات التعذيب (ولم يصدقوا أعينهم بأنهم إزاء مثل تلك القضية السياسية وقد أرعبتهم جرأة المتهم الذي أطلق طلقة نارية بكل هدوء دون أن يخرج مسدسه من جيبه بل ودون أن يصوب. وأرسل قذيفته بكل خمول وفتور عبر سترة الألباجا وأصاب الهدف على بعد العشرات من الأمتار بمسدس صغير جداً، بل إنهم لم يصدقوا أعينهم وهم يجدون أنفسهم مقذوفين دفعة واحدة في تيار التاريخ في حين أنهم استعدوا في تلك الليلة، ليلة الأحد، للعشاء بكل هدوء وسط عائلاتهم مع التفرج على فيلم بوليسي) التي تمثل أجنحتها خطوطاً منكسرة تعيد إلى الذهن التضاريس الإجمالية والرؤى الكابوسية لذلك السرداب التاريخي بتعاريجه المتينة والهشة في نفس الوقت بسبب التجريدات واللذعات والتيارات المضادة والمذابح والحرائق والنهب

إلخ. لقد دوختهم الحادثة فأضاعوا مفهوم الزمن ونسوا أن يهتفوا إلى زوجاتهم وصديقاتهم لكي يخطروهم بأنهم لن يعودوا إلى دورهم في تلك الليلة. أما هو فقد ركز ذهنه، وأبعد عنه كل ذلك التيه العقيم من التفاصيل والمسالك التي بدا وأنها تستهويه، وارتحل نحو الأبد لطول ما سمر عينيه في المجال المنداح أمامه دون أن يفكر في شيء ولا حتى في والدته مسعودة التي امتنعت فيما بعد عن حضور المحاكمة، ولم يخالجه أي شعور بسوء النية، بل أحس بالارتياح بعد تلك الارتحالات المتعددة عبر الأزقة والمدن والقارات، المكرسة كلها للمنظمة ولنجاح ما يقوم به من أعمال. ورفض أن ينجر وراء أسئلتهم المبهمة (ما الذي تعنيه هذه البطاقة البريدية التي تمثل النصب الأتروسكي للفائز بالكأس ذي القدمين المجنحتين؟ وما الذي يمثله هذا النموذج المصغر المرسوم لمعمل التكرير بمدينة روان؟) الغامضة أو يقع في فخاخهم المضحكة الطنانة لذلك اكتفى بأن ردد نفس الكلمات الواضحة القاطعة البسيطة، وقال في نفسه إنهم يضيعون وقتهم وأنهم في غير حاجة إلى أن يستخرجوا من محفظته تلك البطاقة البريدية الزرقاء التي قد تنشرخ تحت أياديهم الخشنة المشعرة، فهو مستمسك بها ويكاد يلومهم لأنهم أعطوا الأهمية لتلك الصورة وأرادوا أن يجدوا علاقة مع مخطط معمل التكرير بمدينة «روان». واستغرب غباوتهم وحماقتهم، وسخر من طريقتهم في إمساك البطاقة البريدية كأنما هي تخفي بعض الرموز

الهيروغليفية المستغلقة خاصة وأنه كانت للأتروسك ـ وهو أمر عرفه فيما بعد ـ كتابة لم يتوصل العلماء إلى فكها في مجموعها كأنها هي ملغمة أو سحرية. وشعر برغبة جامحة في النوم وفي تركيز ذهنه، فتركهم تائهين في استنباطاتهم الغريبة وتخميناتهم الطائشة وثرثرتهم العقيمة وجدلهم العابث، محصورين داخل عقولهم الضيقة المتعودة على رتابة القضايا الصغيرة والصعاليك الصغيرة والأشياء التافهة التي تزخر بها حياة محافظ شرطة في ربض من الأرباض الباريسية. وانتظر أن يفرغوا من شطحاتهم تلك، فراح يحدق في المجال المقتحم أمامه بأشكال شاقولية قاهرة تلفحهم من كل صوب وتعذبهم بشتى الطرق وتخدش مآقيهم المرتحلة الشاحبة التي أضاعت عند انعطافة القرن العشرين حيويتها الخارقة المتمددة أبداً المنتشرة عبر تركيبة اجتماعية مجننة ولكن مطابقة للمتطلبات الإنسانية، تلك الحيوية التي تنوم بحدتها جميع الذين يهونون من شأنها ويمرون عليها مر الكرام ويلوكونها بطريقة آلية فتبعثهم على الصداع وتقطع أنفاسهم وتعصرهم عصراً. وعندما يبلغ التاريخ ذروة التجسد فإنه يجعل من جميع الذين ضربوا به عرض الحائط وتظاهروا بعدم الاهتمام به مجرد مسرنمين، زائغي الأنظار، باهتين، مخدوعين على الدوام وقد تجاوزتهم خطواتهم نفسها، تلك الخطوات التي تفسح المجال دون المرارة والحيرة والنعاس والتراخي.

والحقيقة أن عامل الشرطة الباريسية لم يتوقف عن

مكالماته التلفونية لكي يذكرهم بأنه يريد الحصول على التفاصيل، والتشعبات، والتواطؤات، والمشاريع، ونوعية المنظمة، والهيكل المركزي، والهياكل الموازية أو المتفرعة عنها، وأماكن المواعيد، وأسماء القادة الكبار وأسماء المنفذين، وأماكن الاجتماع، ومخابىء الأسلحة، والاتصالات والتموينات، والمطابع السرية، ومراكز التجمع، والمعلومات حول بعض الفرنسيين المشكوك في وطنيتهم، وأسمائهم، وعناوينهم، وشفرات الاتصال المختلفة بين أعضاء الشبكة. وقد أراد منهم أيضاً أن يقوم الرجل الذي أعدم الباشاغا بإعطاء جميع التوضيحات الممكنة، لكنه منعهم من النيل منه، ناهيك عن ضربه أو إذلاله. طالبهم بملف كبير مفصل مزود أحسن التزويد، مليء بالإحصاءات المتوقعة، والمنحنيات المتشابهة، والمشاريع المحتملة، والخلاصات المدعمة بالحجج، والافتراضات المتينة والنتائج القائمة على أسس قوية. وصاح فيهم عبر التلفون بأنه لا يريد منهم أي غلو أو خطأ في التقدير لأن العالم أجمع على اطلاع بما حدث ولأن الصحفيين توافدوا من جميع البلدان نظراً لخطورة تلك القضية ثم لأنه لا يريد أن يقف مكتوفاً أمامها أو تنفجر بين يديه؛ فالإنسان لا يعرف ما يفعله أمام التقلبات السياسية المفاجئة لا سيما وأن البلد غارق في أزمة وزارية ولا يريد هو أن يحمله أحد تبعة ذلك كله. «حينئذاك يقع كل شيء على عاتقي: لجان التحقيق، إنابات قضائية، صحف

ثرثارة، مهرجانات تضامن، لوائح يوقعها هؤلاء المثقفون الأغبياء، مظاهرات التأييد، إضرابات الجوع، تساؤلات في الأمم المتحدة، مساعي الصليب والهلال الأحمر وغيرها. أعرف ذلك كله، فعلكيم إذن أن تقوموا بعمل جيد وتحترموا مهلة الأربع والعشرين ساعة المفترضة للحراسة... إنني أمهلكم إلى غاية الغد... وبعدها سوف يحال على النيابة العامة، ولا يمكن لنا أن نعتمد عل قاضي التحقيق فلديه جيش من المحامين الذين يرغبون في الدفاع عنه... هيا! عجلوا! لكن إياكم والضرب.. أريده سالماً. إليكم بهذه النصيحة: اقرأوا خريطة المترو بإمعان، ومخطط معمل التكرير بمدينة «روان» وتأملوا جيداً صورة التمثال الأتروسكي أو التراقي. أو البيزنطي أو لست أدري إلى أية حضارة ينتمي... ثم ابحثوا لي عن هذا المدعو «سليمان» الذي يكون قد اتصل به..».

لكنه بقي مستمسكاً بصيغة وحيدة للوقائع ولم يرد أن يحيد عنها. لقد سعى بمفرده وبمبادرته الخاصة لا أكثر ولا أقل. ذات يوم أعطاه عامل يعرفه معرفة سطحية ويشتغل في مصانع «رونو» منشوراً من منشورات المنظمة مع صورة للباشاغا، وكانت المنظمة تطلب من جميع الجزائريين إعدام ذلك الخائن للقضية الوطنية. أما الرجل الذي سلم له ذلك المنشور فيدعى «سليمان». وقد زعم أنه يكون قد تعرف عليه في تلمسان حين كان يؤدي الخدمة العسكرية في فيلق تأديبي. ذلك هو كل ما في الأمر. أما بقية العملية فقد

اتخذ قراراً منفرداً بشأنها ونظمها ونفذها وحده. وماذا عن السلاح؟ زعم أنه اشتراه في باريس من شخص مجهول. كيف عرف إذن بأن الباشاغا سيحضر المقابلة؟ علم ذلك من الصحف. هذا صحيح. فالصحف ما كانت تضيع أية فرصة لإبراز أدنى حركة تصدر عن هذا الصديق الحميم لفرنسا. ومخطط معمل التكرير بمدينة «روان»؟ قال إنه عمل به ورسم مخططاً عنه بالاعتماد على ذاكرته. لأي هدف؟ لكي يشعل النيران فيه بطبيعة الحال. إجاباته الموجزة، الهادئة، المنطقية تبلبلهم وتطرحهم أرضاً. ما استطاعوا أن يجدوا ثغرة فيها. وماذا عن البطاقة البريدية؟ قال إنه اشتراها لكي تكون له ذكرى عن عمليته الفدائية لأنه كان معزولاً ومقطوعاً عن أي اتصال بهياكل المنظمة وعاجزاً عن الاندماج في مجموعة ما أو في حركة من الحركات. واعترف بكل تواضع أن ذلك راجع إلى فردانيته. لم يكن لوالدته أي ضلع في هذه القضية، ولهذا السبب ارتأى من الأصوب ألا يقول لهم بأنه فكر أول ما فكر حين اشترى البطاقة في إرسالها إلى مسعودة احتفاءً بذلك اليوم المشهود غير أن قضيب الرياضي دفعه إلى أن يحجم عن ذلك خوفاً من أن يصدم والدته العجوز (ثم ذلك الآخر، المدعو بليملدنغ، قلب الدفاع وقائد فريق تولوز، ألم يصرح في الإذاعة وأمام الصحفيين قبل بداية المقابلة وبالذات في قاعة الثياب الناضحة بالعرق الحامض المنبعث من تلك الأجساد المسخنة بصراخ الجمهور الذي يصل إلى

اللاعبين من المدرجات وبالرعدة المستبدة بهم نظراً لأهمية المقابلة، خاصة وأنهم يوجدون في المرتبة السادسة، بعيدين جداً عن فريق «ريمس» الذي سيطر على البطولة ـ ألم يصرح ـ بكل عفوية بأنه سوف يبذل قصارى جهوده للفوز بالكأس حتى يقدمها كرمز لوالدته بمناسبة عيد الأمهات الموافق ليوم 31 ماي الجاري أي بعد خمسة أيام ليس إلا..) التي بقيت في القرية أو على الأصح في الحي القصديري، في الجانب الآخر من النهر... لكنهم رفضوا مسايرته بخصوص هذه النقطة، ذلك أنهم تعودوا مشاهدة الأفلام البوليسية الملغزة المبنية على حكايات التماثيل الملأى بالألغاز أو أفلام الجوسسة التي يريد مخرجوها أن يثبتوا لمشاهديها أنهم يتوافرون على رسائل وأنهم يعرفون تاريخ الحضارات عن ظهر قلب، ومن ثم فإنه في مقدورهم الاعتماد على الغرابة المحيطة بهذا التمثال أو تلك القطعة الأثرية العتيقة ونسج حكاية خيالية يصدقها الجمهور الساذج الشغوف بهذا النوع من الأفلام مع تصوير مذابح مرعبة هنا وهناك وسلسلة من الجرائم ومجموعة من الجثث المفرغة من أحشائها الموضوعة في خزانات البيوت البورجوازية أو المقطوعة في مخازن المحطات.. هنا أدرك فجأة أنهم سوف يتعقبون آثار الحضارة الأتروسكية ويجرون بخيالاتهم في جميع اتجاهات التاريخ ويحسبون أنفسهم ماكرين كل المكر، ذوي حاسة لا تخطىء وحينها يقعون في هذا الفخ الذي ما فكر أبداً في مدى قدرته على التحريك ويكون قد

أعطاهم ذريعة تبعدهم عن الموضوع الجوهري الأساسي، وعن المنظمة وسراديبها وهياكلها وتعاريجها؛ هذه المنظمة التي لا يعلم شيئاً عنها. وسوف يضعهم بذلك تحت رحمته بفضل تلك البطاقة البريدية الإلهية التي اشتراها دون أي احتراز لكي يعلل بها نفسه خلال فترة الاستراحة التي طالت أيما طول، ووجد نفسه بعدها وحيداً على المدرجات... لم يبال بهم إذن، فتركهم ينزلقون في ذلك المأزق وإن خشي بعض الشيء أن يمزقوا تلك البطاقة البريدية بأصابعهم الخشنة المتعثرة.. على أنهم في عشية اليوم التالي بعد أن تخبطوا في عقدهم النفسية الساذجة، وانسحقوا تحت وطأة التعب والأرق ووقعوا في الفخاخ التي نصبوها له وفي شبكات التذبذب والاضطهاد، أعادوا إليه بطاقته البريدية ومخططه وبطاقته التعريفية المزيفة، ثم وضعوه داخل عربة من عربات الشرطة واقتادوه إلى قاضي التحقيق ونفضوا أياديهم منه مسرورين بالغنيمة، فرحين لكونه لن يظل في مكاتبهم، راضين عن أنفسهم لأنهم أفلتوا من نظراته السحرية النفاذة الهادئة في آن واحد. ثم عادوا من حيث أتوا وغسلوا أيديهم اللزجة الدبقة.

ها هو الملعب يكتظ عن آخره مرة ثانية. ها هو بهيكله الذي يتحدى قوانين الهندسة المعمارية والتوازن، وبذلك البعد السديمي المتثاقل المثقل، المنفوخ في آن واحد، ويمرقب الحراسة ذي الطابع المغربي، والسقف المخطط بالقرميد الأخضر، وبفروع العليق التي تغطي السياج في

الداخل، وبمدرجاته المتقدمة الدائرة حول نفسها في تناسق مذهل مثير، وبمنصته الشرفية المبلطة المبهرجة بحواشي مذهبة مزيفة ناصلة اللون، وبحديقته المخضرة ذات الخطوط المتفاوتة الألوان وفتحتي المرمى بالشبابيك ذوات الحلقات التي لا تكف عن الصريف... نعم، ها هو بممراته المخصصة للعدو والقفز والمدرجات وقد تناقضت بحمرتها مع الخضرة الحانئة للأرضية المعشوشبة، وبجمهوره المتململ المرغي المزبد بكل هستيرية، هذا الجمهور الذي يتقد غيرة على الوطن ويجعل من نفسه وقوداً للمذابح الحربية، ويستعد لكي يقع تحت وطأة الاستغلال دون أن يكون له أي رد فعل. لقد جاء إلى الملعب لكي ينفس عن نفسه ويفرغ كبته السياسي والاجتماعي والنفساني على حد سواء ويتذوق في نوع من الانتشاء هذا الأفيون المتمثل في كرة القدم التي يتبادلها اثنان وعشرون لاعباً في حين أن لوح التسجيل يشير، أو على الأصح، يدق الدقة الستين أي ساعة بالضبط على بداية المقابلة، ويسجل الأهداف:

تولوز: 3 ـ أنجي: 1

وفي الوقت الذي راح فيه المعلق الإذاعي يعلن بأن فريق تولوز هو الذي يسيطر على بداية الشوط الثاني أي منذ ربع ساعة، صوب هو نظرة جانبية مسترقة فوقعت عيناه على الباشاغا وهو يغادر المنصة الشرفية. ترنح من مكانه وقال لنفسه: «لن يلعب عليَّ هذا المقلب، لن يخرج من الملعب

دون أن يحمل معه ذلك الوشم المزرق على صدغه أو بين عينيه أو في أي مكان آخر يصيب منه مقتلاً. كلا، أنا لم أجيء إلى ملعب كولومب لأعود خاوي الوفاض في حين أنني تركت «بازوكا» و«زاباتا»... كلا، يكفي المرء أن يسوء حظه مرة واحدة في اليوم لا مرتين.. القذر.. أين يا تراه ذهب؟» لعله ذهب يتبول أو يتوضأ ليستقر بعدها وراء المنصة ويبحث عن جهة الشرق وينشر زربيته الفاخرة من صوف جبل «عمور» التي يضعها أحد خدمه تحت تصرفه في إحدى السيارتين اللتين يستعملهما حتى لا يستطيع أحد تعقب آثاره ويضاعف بذلك من حظوظ السلامة والنجاة والخلود. لكن الشخص الآخر قرر أن يضع حداً لذلك كله. (ذلك الآخر الذي تعود أن يطلق عليه أسماء مستعارة لأنه لا يقوى على استذكار تقاطيع وجهه ولأنه استحال عليه دائماً وأبداً أن يعثر عليه على الرغم من محاولاته المتكررة. ذلك الرجل الحريري الذي فهم منه بمجرد اتصاله الأول به أن رئيسه المباشر شخص عنيد، صلب المراس، جلف، لطيف في أعماقه، مصفح بالنحاس من الخارج، عاجز عن إظهار أية عاطفة، صارم، قاطع، يابس، معقد. وخلاصة القول أنه شخص لا يرحم). يبسط زربيته بحركة ظاهرة ويبدأ صلاته (الرابعة من نوعها خلال هذا اليوم بعد صلوات الفجر والصبح والظهر) ويعرض نفسه على الأنظار، ويقرد، وينشر تقاه وورعه أمام عيون

حلفائه الساخرة المزدرية، هؤلاء الحلفاء الذين يغرقون في نوبات الضحك بمجرد أن يدير ظهره، ويقدمون عنه أوصاف مهرج مسكين، ويشككون في القيم التي ينطوي عليها أبناء جلدته. ومهما كان الأمر فإن أبناء جلدته هؤلاء يباعون الآن مقابل بعض التعويضات، وهي تعويضات جوهرية حقاً لكنها تافهة في آخر المطاف. بل هي حقيرة وقاتلة ذلك أنها تقوده إلى الموت وتقطع الرباط الذي يشده إلى الحياة في وقت يحب فيه التمتع والتلذذ ويغرق فيه في الضعة والهوان. هذا الجنس مخدوع إذن، وقد ذهب يبحث عن هويته وبقاياه عبر نباتات الصبار والخلنجيات التي صعقتها الشمس وأحرقها الثأر والاندفاع. وها هو يلهث ويتحرق إلى استعادة قوته وجوهر كينونته المستباحة المشوهة الممسوخة المستأصلة بوجه خاص، ويلقي بكل ما يملك في هذه العملية الأخيرة، هذه المحاولة الأخيرة لكي يقوم الأشياء التي عراها التفتت والقدم. وقرر في آخر المطاف أن يقضي على الأسطورة المنفجرة المحطمة القائمة رغم ذلك كله فوق أنقاض تدهوره، وتنقلاته المعاشية، بارزاً وراء الصخور ورداءات الطقس، مترجرجاً فوق الأوبئة وعمليات التقتيل بوتيرة الحشرات المنتشرة بينه وبين ظلال هؤلاء الذين جاؤوا من بعيد لكي يحاصروه خلال قيلولة دبقة انزلق فيها بفعل أحلام الغيبوبة والانحلال. وبرز أيضاً عبر الثورات والمذابح والتمرد والتهجير الجماعي

والانتفاضات والنفي، واجتاز التاريخ فوق عظامه النخرة التي صارت معالم راسخة إلى الأبد، وكشط أرضه، أرض أجداده، وامتلأ بالندوب العميقة الملحية خلال فرجة من فرج الاحتضار الذي سرعان ما اتخذ أبعاداً مهلوسة كأنها أبعاد هاوية أو جرف، وتحدى الزمن والمكان بفضل نبتة الخشخاش التي عمدت القبيلة إلى جعل أمواتها ومواليدها الجدد يشمونها حتى يتعودوا على روائح الخراب والكوارث، وجرى عبر مسافات خلفها الأجداد الذين شقوا دروباً نحو شوارع المستقبل الواسعة، وسجل تواريخ لا تمحي على خرائط المقاومة ضد العدو 1830، 1849، 1871، 1881، 1911، 1945، 1954.. وهي تواريخ منقوشة في تكوينه التاريخي الأول ذلك أنه يعلم أن الموروثات والوصايا غير كافية وأنه يتعين عليه أمام القوة الزاحفة أن يتدبر أمره، ويعيد كتابة التاريخ دون تنويم مغناطيسي ولا طلسمات ولا حروز ولا طقوس دامية بل بخوض حرب نظيفة إلى أبعد الحدود ومفروضة عليه فرضاً. هذا الجنس الذي طرد منه منذ أن حكم عليه بالموت ومنذ أن اختير يوم التنفيذ عن قصد، ذلك أن المسؤولين الذين لم يقدر له ـ أي ستالين ـ أن يراهم أبداً لم يختاروا أي يوم من الأيام ولا أي ظرف من الظروف بل اختاروا وقتاً كانت فيه فرنسا بأكملها مشدودة إلى المقابلة النهائية في كرة القدم. إرتج عليه بعض الشيء فقرر أن يقوم ويذهب ليرى

ما يحدث وفي هذه اللحظة بالذات رجع الباشاغا متفنجاً، متعاظماً، لكن دليل الخيانة كان منطبعاً بوضوح على نظراته القذرة... أما هو فعاوده الاطمئنان وغرق مرة ثانية في التفرج على المقابلة...

... فريق تولوز يسيطر على المقابلة. جميع اللاعبين منتشرون في معسكر فريق أنجي. ودفاع هذا الفريق يعاني ما يعاني. الزميلان الجزائريان يطلقان العنان لنفسيهما في اللعب. الكرة عند إبراهيمي. يمررها إلى بوشوك الذي تسرب في أعماق معسكر فريق أنجي. حذار من خداعاته الجسدية. أجل! ها هو يراوغ باسكيني المدافع الأيمن ويذهله ثم يدور حول العملاق سابروجليا قلب الدفاع في فريق أنجي. ثم يقذف الكرة إلى دي لوريتو الذي يداعبها بقدمه ويعيدها إلى إبراهيمي. لقد عادت الكرة إلى نقطة انطلاقها. إبراهيمي يتحكم في الكرة ويحتفظ بها ريثما ينتشر زملاؤه من جديد، يا لهذه التقنية، بل أحسن من ذلك.. يا لهذا الفن!.. الفن الكبير في التلاعب بكرة القدم. نحن في الدقيقة الواحدة والستين من المقابلة. إبراهيمي يقلب اللعبة رأساً على عقب، يمرر إلى الخلف صوب الظهير الأيمن بوكشي الذي سارع في الوقت المناسب لمساعدة رفاقه في إيجاد طريق المرمى والعثور على الثغرة. تبادل للكرة بين بوكشي رقم 4 الموجود في مكان قلب الهجوم وبين «درودر» الجناح الأيمن الذي سبق له أن سجل هدفين خلال الشوط الأول. الهدف الأول في

الدقيقة الحادية عشرة والثاني في الدقيقة الرابعة والعشرين. «درودر» يمرق بين الصفوف المتراصة لفريق أنجي. أتراه سيسجل هدفه الثالث؟ كلا. يعيد الكرة إلى بوكشي المنعزل هناك في أقصى اليمين من المرمى الذي يحرسه «فراجاسي» السيء الحظ. بوكشي يقذف والكرة تنزلق على الأرضية و... نعم! هدف هدف! إنه الهدف الرابع لفريق تولوز. هدف جميل جداً وواضح كل الوضوح. انزلقت الكرة على الأرضية، وعبثاً ألقى فراجاسي بنفسه... لم يستطع شيئاً أمام هؤلاء الأرباب التولوزيين الذين يتحكمون في الملعب وفي الكرة. الكرة في أعماق الشبكة. فراجاسي مشدوه، مدوخ، ليس له حتى الشجاعة لكي يذهب ويأتي بالكرة. «بوشي» المدافع الأيسر هو الذي يلتقطها بكل مرارة. فريق تولوز يوسع الهوة من جديد. فارق ثلاثة أهداف لصالح تلاميذ «جول بيجو». استئناف اللعب عن طريق قلب الدفاع في فريق أنجي.. الذي ينطلق في الهجوم ولكن عن غير اقتناع. ما زال هناك نصف ساعة من اللعب على أية حال.. لقد سبق أن رأينا وضعيات أخطر تنقلب رأساً على عقب. لكن مثل هذه الإنقلابات لا تحدث في كل وقت ولاعبو فريق تولوز لن يتهاونوا الآن بعد أن بدأ الانتصار يرتسم بكل جدية في الأفق. خاصة وأن بينهم لاعباً ماهراً مثل إبراهيمي الذي يحسن فن التخطيط ويتوافر على حس فطري في توزيع الكرة. فريق أنجي يقتدي بفريق تولوز. يدير الكرة التي هي الآن بين قدمي «لوجول» رقم 7 الذي

كان يظن ـ وقد صرح لنا بذلك قبل بداية المقابلة ـ بأن فريقه سوف ينتصر لأن قسيس كولومب من مدينة أنجي، لكن يخيل إليَّ أن ما قدمه «لوجول» من نذور لن يساعده كثيرة نظراً للوضعية السائدة. فليعذرني قسيس كولومب، لكن، من يدري، فقد يستجيب الله لدعائه. ستحدث المعجزة حينئذ. حقاً، لو حدث ذلك فإن فريق أنجي بأكمله سوف يحج إلى «لورد» هذا الصيف. لكن الوضع الراهن يشير إلى غير ذلك. فريق أنجي يوحي بأنه لا يعرف ما يفعله بالكرة كلما كانت في حوزته. اللعب يتعثر شيئاً ما هناك إلى جانب مرمى فريق تولوز. عينا الحكم م. كلو في كل مكان، ونحن في الدقيقة الخامسة والسبعين... الكرة عند بيانشري، يراوغ «نونجسر» المدافع الأيسر لفريق تولوز ويترك في عين المكان «كاهوزاك» الذي جاء لمعارضته. بيانشري يندفع صوب مرمى «روسيل»، يقذف... ويسجل.. كلا! هناك لمس باليد. مسكين بيانشري. لقد سجل هدفاً إلا أن م. كلو هذا الحكم العجيب ألغاه لأسباب واضحة... بالفعل، لم يتمالك اللاعب رقم 10 نفسه فاستخدم يده لتسجيل الهدف... ما كان من حقه أن يفعل ذلك، لكن ما العمل؟ فعندما تحتدم المقابلة ينسى اللاعون، أبسط القواعد! «روسيل» يسارع إلى قذف الكرة صوب...

ما أن أسفر الصبح حتى انهمك «ستالين» في مشاغله لأنه كان يساق يومياً قبل الساعة التاسعة صباحاً خارج

السجن، وبالضبط نحو الشبابيك المذهبة لقصر العدالة الذي يسد السواح مداخله لكي يتمكنوا من زيارة كنيسة «سانت شابيل»، أما هو فكان يدخل من باب آخر ثم يغلق عليه في مكتب قاضي التحقيق بحضور محاميه الرئيسي الذي يبدو عليه أنه مريض لشدة خوفه من المحاكمة. فالجهاز الإداري الثقيل في عادته يأمل التعجيل بهذه المحاكمة مهما كان الثمن، ثم إنه يجتهد في تبسيط طرائقها ويحزم أموره لكي يفتحها قبل اختتام دورة الجلسات القضائية المقررة لنهاية «جوان». كان الجميع يطالبون برأسه. وما كان يخدع نفسه بل كثيراً ما عزى محاميه الذي يبدو عليه أنه يحمل الحداد قبل الأوان بسبب زيه الأسود. يستيقظ باكراً ويرتب أفكاره وتقاييد مطالعاته، ومقاطع كتاباته الشخصية ورسائل والدته وقائمة أصدقائه الذين ينبغي إخطارهم لكي لا تبقى جثته وقتاً طويلاً في مشرحة السجن، وأوراقه الإدارية وغيرها من الحاجات الأخرى التي تضفي معنى من المعاني على الأشياء التافهة في هذه الحياة وتجعلها مضحكة قادرة على إقلاق السلطات البيروقراطية سواء منها السجنية أو القضائية. باحة قصر العدالة تبدو وكأنها سوق عربية أو برج بابل أو مقر اجتماعي لحفار قبور بمسوح الدراويش الدوارين. هي أشبه ما تكون بمدخل معترك للأسود أو فرن للخزفيات بالناحية السفلى من نهر السيبوس أو مكان للتحولات نتيجة لحيرة قاضي التحقيق ورجال الدرك الذين يختلفون إليه صباح مساء (وفي بعض الأحيان مرتين في

اليوم الواحد عندما يبدو أن التحقيق يتعثر في ظن القاضي في حين أنه ليس هناك ما يضيفه أو يقوله. أما الأمر الذي يبعثه على الدهشة بمرور الأيام فهو حين يرى الملف يزداد حجماً وطولاً في حين أنه ما انفك عن تكرار نفس الحكاية دون أن يغير منها فاصلة أو نقطة...) بل ونتيجة لحيرة محاميه التي تمنحه التذاذاً لم يخطر بباله من قبل. ولا يعود ذلك إلى أنه غادر عالم الأحياء والواقع بل لأنه أحس برسوخ إيمانه في اختياراته منذ البداية حين علم بموت خاله في الجبال وقرر منذ ذلك الحين أن يناضل ضد كل شكل من أشكال الفراغ والسأم والتقاعس والهروب. والواقع أنه حين كان يساق في المساء داخل عربة المساجين بعد يوم مرهق مدوخ في آن واحد، يشعر بالراحة ولا يغبط حراسه ولا الناس الذين يمشون في الطرقات التي تمر بها العربة دائماً وأبداً. ولا يرجع ذلك إلى أنه توصل إلى فتح حوار حقيقي مع القاضي المسؤول عن التحقيق بل لأنه تغلب على نهاره ذاك، ولأنه يفكر حينئذ في مسعودة أو في تلك الفكرة أو على الأصح ذلك الأمر القاضي بإعطاء التعليمات لإجبار اللاعبين الجزائريين في الفرق الفرنسية على الالتحاق بتونس بعد نهاية الموسم الذي كان نهائي فرنسا ذروته ونقطة نهايته. وكان من المقرر أن يتجمع اللاعبون الجزائريون ابتداءً من أكتوبر 1957 بعد تشكيل فريق وطني جزائري لكرة القدم انتزع فيما بعد انتصارات خارقة باهرة في ملاعب العالم أجمع. وفكر في «جو» الفتى الوسيم،

المهندس، المتعالم الذي لم يقدر له أبداً أن يدخل معهداً متعدد الهندسات مثلما شاع عنه ذلك حينما كان في فريق الفدائيين. وفكر في أشياء أخرى أيضاً... أما مسعودة فقد كتبت له رسائل مضحكة بواسطة قريب له يجيد القراءة كأنما تريد بذلك أن تدفعه على الاعتقاد بأنها لا تتألم لما حدث... حكت له كيف أنها غادرت الحي القصديري ذات يوم وذهبت لتتظاهر مع جارتها في قلب الحي الأوروبي في شارع «برتانيا» وأطالت الوقوف عند حادثة لفتت أنظارها. وكثيراً ما قرأ تلك الرسالة، بل إن محاميه استنسخها. روت له أن النساء كن يقذفن في الهواء بقففهن المليئة بالخضراوات المتعفنة ويتركنها تنطرح أرضاً بعد أن تكون قد شقت الفضاء مثل سلاحف كبيرة فاترة فوق رؤوس العساكر الأجانب. معرفته جيدة بطوبوغرافية مدينة عنابة ويكاد يتمثل المشهد الذي وصفته بكلماتها الخاصة حتى وإن كانت الكتابة المنتظمة التي خطها قريبه تحمل في طياتها خيانة لهذا النص المقدس في نظره. وتخيل العساكر مشدوهين مرتعدين تحت لباب الخضراوات المنسحقة فوق رؤوسهم. لعل بائع الإسفنج التونسي بكى وهو يرى ذلك الزيت يندلق فوق رؤوس الكفرة الذين ما كان لهم الخيار إلا بين أمرين، إما أن يموتوا احتراقاً تحت الزيت المغلي أو يطلقوا سيقانهم للريح. وكان هناك طفل يلعب فوق أحد السطوح بقفص مليء بطيور الكناريا فأعطى الإشارة لموسيقييه بالتبول على قبعات العساكر. ثم إن ذلك

الأمونياك المائي تقاطر على رجال الشرطة الذين حاولوا حصر التمرد في حين أن الطيور رفعت عقيرتها بالنشيد الوطني الذي تعلمته عن ذلك الطفل بسرية بالغة. وثار العساكر وهاجوا وماجوا أمام ذلك التحرش فاختبأوا وراء دروعهم وبدأوا مناوراتهم التي فاجأت المتظاهرين فلم يعد لهم بد من التراجع وتشجع العساكر بفعل ذلك النجاح الذي لم ينتظروه، فراحوا يخربون كل شيء: قفف الخضراوات، قفص الكناريا، ماعون الزيت ورأس الطفل الذي فصلوه عن جسده.

عند هذه النقطة توقفت رسالة مسعودة. أتراها شعرت بالخوف وتطيرت حين روت هذه الحكاية المرعبة لابنها الذي يوشك أن يصدر في حقه حكم الإعدام ويقطع رأسه؟ أم تراها حوصرت بعاصفة من الدموع فأوقفت رسالتها عند تلك النقطة؟ ما درى شيئاً عن ذلك. وعندما عاد إلى البلدة غداة الاستقلال لم يجدها في الدار حتى تشرح له قصة تلك الرسالة. ذلك أنها توفيت من الفرح قبل أسبوع من ذلك التاريخ. فقد علمت أن ابنها يوشك أن يعود وأن عليها أن تنتظره في الميناء. لم تصمد في وجه ذلك الطلب فماتت بكل هدوء وصفاء. كان يشاهد الليل من عربة المساجين المسيجة وهو يهبط شيئاً فشيئاً ويمر عبر الساحات الصغيرة في الدائرة الرابعة عشرة حيث كانت الخادمات الأسبانيات يأتين للاستراحة من عناء الأشغال المنزلية التي يقمن بها في الشقق المواجهة له حين يرفع

رأسه نحو السماء. لكن حين تقع عيناه على العشاق وهم يتبادلون القبل في فسح المقاهي أو على أسفلت الطرقات يحيد بأنظاره عنهم كي لا يفكر في آلين أو سيلين. ثم جاءت تلك الرسالة الأخرى من مسعودة قبيل افتتاح المحاكمة: «لقد أحزنني موت أبيك لكنه لم يفاجئني. والموت الذي أقحمته في قلب إنسان سيء الخلق هزمني لكنه لم يدهشني. لم أكن أدري ما تصنعه في تلك المدينة الكبيرة، لكن منذ أن بدأت تأخذ في كل مساء حمامات دافئة لقدميك بأعشاب برية وبنبات القراص أدركت أنك ستغادرني لكي تقوم بشيء جاد كل الجدية. ويوم سفرك بدأت على حين غرة تصير مشابهاً لأخيك المسكين، ولست أدري إذا ما أدركت ذلك أم لا. لم أنخدع كما ترى ذلك لأنني وثقت دائماً وأبداً من أنه سوف يأتي يوم تنتقم فيه لفقرنا. أمك التي تحبك». وعرف أن هؤلاء الأموات كلهم بما في ذلك الخائن الذي ما فتىء يزوره بين الوقت والآخر في أحلامه، إما في الهزيع الأول من الليل أو في الأخير منه، وإما باكراً عند الفجر لكي يقول له بأنه شعر بالبرد القارس في المقبرة الإسلامية التي يحرسها الفرنسيون ـ عرف ـ أنهم ولدوا في نفس والدته فترة مبهمة خفية محكوم عليها بأن ينجلي الضباب عنها ذات يوم وتصير واضحة كل الوضوح، لأنها بوصفها زوجة وأختاً وأماً هجرها رجالها، مدفوعة إلى أن تتقوقع على نفسها في أجواء الخيال والتخيل. وكفاها شجاعة أنها عانت خبر اعتقاله عن بعد،

وسير المحاكمة والحكم بالسجن المؤبد وسنوات السجن دون أن تنزل عند رغبات جاراتها وإلحاحهن عليها لشراء تذكرة سفر بالباخرة حتى تذهب لزيارته. وفهمت بغريزتها أن طيور الكناريا التي كانت في حوزة الطفل الذي فصل رأسه عن جسده، لن تغتفر لها أبداً مثل ذلك الضعف الذي قد يسيء إلى سمعة ابنها وإلى بلدها. لقد قر رأيها على ما أراده ابنها وفعلته. وخشي هو أن تعمد إلى انتعال حذاء يؤذيها في قدميها لكي تأتي لزيارته في حين أنها ما انتعلت حذاء قط لا بسبب اللامبالاة والبؤس فحسب بل لأن قدميها صغيرتان جداً تتألمان لأدنى احتكاك.

9

تولوز: 4 ـ أنجي: 2

أيام قلائل وتبدأ المحاكمة. الآن وفي مقدوره أن يعد على أصابع يديه بقية الزمن الذي يفصله عن موته، جعل يذرع زنزانته وقد حدس أنه سوف يحط في الفراغ. لم يكن ذلك راجعاً إلى الخوف فهو ينتظر ما أسوأ منه بل هو نوع من الخليط الإسفنجي الزلق أو من التمازج بين الحنين والسوداوية الذي يعطي ذلك الفراغ لتلك الهاوية التي يشعر بها تنفتح بكل عذوبة بين عظام كتفيه. ووقع في روعه أيضاً أنه لن يتوصل إلى السير قدماً عبر المجالات السردابية لأروقة قصر العدالة إلا بالانزلاق بين الحيطان والأثاث والشبابيك والأمكنة والحراس والزوايا وما إليها. وما كان شقياً بوضعه ذاك أيضاً بل يحس أنه يرغب في التأخر وقتاً قليلاً داخل أحشاء الحياة الدافئة الندية مثلما حدث له أحياناً أن نسي نفسه مع رفاقه أثناء السكر والثرثرة في حانة من مدينة ما، وشعر بأن قلبه لا يطاوعه على الذهاب ولا على مغادرتهم أو الانفصال عنهم. لقد تعود القتيل أن يدخل غرفته في أي ساعة من النهار أو الليل بتواتر أكبر.

وما انفك عن الترداد بأن البرد قارس في المقابر الفرنسية وتضرع إلى ستالين بأن يأتيه ببرنوسه المصنوع من وبر الجمل، ذلك البرنوس الذي يكون قد نسيه عند باغية من بغايا الدائرة الثامنة عشرة، وبالضبط في نهج تلسيت رقم 23. لقد أقلع حتى عن الرد عليه. وتركه يوشوش في عتمة الحلم المبهم ذلك أنه إذا لم يكن يفهم شيئاً من متطلبات الباشاغا فإنه أدرك كل الإدراك أنه قام بعمليته الأولى في نهج تلسيت رقم 23. لقد صار القتيل أكثر تشدداً في أحلامه. له نزواته وأطعمته المحببة وأهواؤه الطفولية. ويتركه يتخذ مكاناً لنفسه في مضجعه بل لا يكلف نفسه مشقة إخراجه منها بكل لطافة، ولا يتذرع بأي عمل ولا إنشغال ولا أي تعب للتخلص منه. فما عاد القتيل يحرجه. ففي المرة الأخيرة التي زاره فيها قبل ثلاثة أيام من بداية المحاكمة التي تختتم الدورة القضائية بباريس رجاه أن يدعك صدغه الذي هشمته الرصاصة في الدقيقة التاسعة والثمانين من المقابلة، أي حين كان إبراهيمي اللاعب رقم 7 من فريق تولوز يسجل الهدف السادس. تذكر أنه ظل مرعوباً من طلب القتيل وآثر أن يعتبر مثل تلك المطالب من ترهات الشيخوخة لكي لا يغضب عليه ويأخذ بخناقه. لقد صار أكثر تفهماً وازداد حساسية واستشرافاً لما يحيط به كأنما نبت له هوائي لامرئي في قلب حنانه، ذلك الحنان الذي لا يريد له أن يفصح عنه كثيراً. وفي بعض الأماسي المشربة بالحنين إلى طيور طفولته المجنونة، يشعر بالرغبة

في البكاء على مصير ضحية ملعب «إيف دومانوار» لكنه يتمالك نفسه، فهو يعلم أن لا مكان للثعالب لدى هؤلاء الذين يعملون على صنع التاريخ وقولبته. ويحس بنفسه هشاً كل «الهشاشة»، يصاب بأدنى زكام، ويشعر برئتيه تنكمشان وتتفتتان وتنتفشان إلى حد أن يذهب به الظن إلى أن حراسه حين يجيئون لاقتياده إلى قاضي التحقيق لا يجدون أية صعوبة في رؤية شفافية عظامه عبر بشرته. ويحلم في بعض الأحيان أنه يسبح مثل طيور السنونو بالحي القصديري فوق سقوف العالم، المهروشة بتداول القرون وبسوء النية لدى السياسيين، المقتلعة برياح العالم وبتقلبات التاريخ. لكنه ما كان يشعر بالخوف. بل يحس بالطمأنينة لكونه اضطلع طوال سنتين كاملتين بالمسؤوليات التي حملتها المنظمة إياه. عمليات صغيرة محددة ضد بعض الحثالات الجزائرية التي تسيطر على أرصفة باريس وتتعلق بأذيال الشرطة والمخابرات العامة. وقد وجب تطويعها وفرض قوانين داخلية جديدة للحركة الثورية بل وصار من الضروري ضرب بعض الرؤوس منها بين الفينة والأخرى. وهكذا كان المذنب يساق إلى مزبلة من المزابل ويعدم برصاصة واحدة لأن الذخيرة غير متوافرة ناهيك بالأسلحة التي ينبغي سرقتها من الحوانيت المختصة ببيعها وتخزينها في أقبية مسجد باريس حيث عرف كيف يتسلل بحكم أنه اشتغل فيه مجاناً لإصلاح الأنابيب. هجوم مفاجىء على بعض الفنادق التي يعيش فيها أعضاء منظمة منافسة لها علاقة مع الشرطة

الفرنسية. تجميع سريع للاشتراكات المالية في أطراف المنطقة الباريسية. أوقات خجل فيها من رؤية هؤلاء العمال الفقراء وهم يخرجون من مطارحهم المهترئة مدخراتهم الضئيلة لكي يسلموها له بكلمات تشجيع واعتذار لأنهم لا يستطيعون إعطاء مبالغ أكبر. تعقبات لا تنتهي عبر السراديب الباريسية بوسائل قليلة جداً في حين أن الذين يطاردهم يغيرون من وسائل النقل مرات عديدة خلال اليوم الواحد، ويزورون علامات سياراتهم ولا يجدون حرجاً في النزول إلى قلب المترو ويخدعونه هو بعد أن يكونوا قد اكتشفوا تحركاته دون أن يتوصلوا أبداً إلى رؤيته. تصفية حسابات متوقعة لكن ضرورية لتطهير القطاع الموضوع تحت عاتقه. مدينة يعبرها في جميع الاتجاهات بمعالمها ويصنفها في أدنى تفاصيلها واحتمالاتها وتقلباتها الموسمية وغيرها من (الأشكال الهندسية وطبيعة الشوارع وما إليها من تزيينات). مواعيد معقدة تتداخل فيها العلاقات ضمن قائمة تتركز أساساً على كل ما هو جوهري مثل القضاء على الملذات الجسدية والارتباطات الإنسانية والأخوية ذلك لأن الأمر يتعلق بنجاح العملية ولأن العدو قبالتهم يتوافر على وسائل هائلة فكرية ومادية على حد سواء. عمل حقير. مجتمع راقٍ. ارتحالات مذهلة. حوادث مأساوية... استشهاد الرفاق في الطريق. تنصلات غير منتظرة (مثل تنصل «جو» الذي آلمه كثيراً). انقلاب الأوضاع. اتصالات مع الفرنسيين الشجعان الذين يجابهون بلدهم، وفي بعض

الأحيان شعبهم الذي يجهل مذابح التاريخ على الرغم مما عاناه هو بالذات منذ عهد غير بعيد من تقتيل وتهجيرات جماعية. وعندما ينطرح في مضجعه الرطب العفن يخيل إليه أنه يستريح على بساط الريح الذي امتلكه أجداده المحرومون من علومهم واختراعاتهم. حينها يتذبذب إحساسه فيبلبل السبل أمامه ويعطيه في آن واحد وسائل الصفاء الذهني الخارق المستديم. وعلى الرغم من ضيق الغرفة التي ينتظر فيها القتيل فإنه قد شعر فجأة بالقدرة على التطواف مغلق العينين في أي زقاق من العالم الكبير خلال ارتحالاته بحثاً عن كبريات المنجزات المعمارية الإسلامية. فقد تعقب ما بين تونس ودمشق والقاهرة كل ما صاحب طفولته، وامحى إلى الأبد من مشاهد مسقط رأسه. فكك الأتراك كل شيء وفعل الفرنسيون أكثر من ذلك. لكن أحواله ما كانت تدوم طويلاً، فقاضي التحقيق يحاصره مريداً أن يعرف منه لماذا تصرف على ذلك النحو وعلى الأخص لماذا كان له ذلك السلوك اللامبالي الذي يمثل لغزاً مغلقاً في نظره. ويعجل بتعليق أفكاره في أطراف أحكام مسبقة عنيدة قديمة، وينكفىء دائماً على الخطوط الوحيدة المعلقة في الجدار المجذوم قبالته، خطوط بطاقة التمثال الأتروسكي التي اشتراها من ملعب كولومب، ذلك التمثال الذي ظن أنه من أصل بيزنطي أو تراقي. ولطول ما تأمل الرياضي الذي استحوذ عليه ببرونزه المشقق، انتهى به الأمر إلى أن يعرفه بالتفصيل قبلاً ودبراً. وفي الصباح

الباكر عندما يمارس رياضته، يفاجىء نفسه باتخاذ وقفة مماثلة لوقفة الفائز بالكأس ذي القدمين المجنحتين والنعلين المقوسين وراء العقبين المدببين. ويلاحظ بمرور الوقت وباقتراب موعد المحاكمة ونتيجة لتلك الحمى التي تستبد به من شدة رغبته في أن يكون صافي الذهن في مسعاه ذاك منضبطاً كل الانضباط في تحليله للظواهر المحيطة به أو التي يتأثر بها وتتدخل في أيما وقت من الأوقات في حياته داخل السجن ـ يلاحظ ـ أن التمثال المستنسخ بطريقة رديئة يكتسب حجماً وثقلاً وكثافة على الورق الملون بالأزرق البراق، ويعطي اتجاهاً لمسيرته تلك، ومعنى لحياته كسجين معزول موضوع تحت حراسة مشددة، وبالضبط في الزنزانة التي نقش عليها «بييرو لوفو» آخر قصائده عبر عروق المادة المنتفشة وحيث استخلف فيما بعد بعجوز مستطيل الوجه أمرد، نظم مذابح حقيقية بهدوء مسؤول تيقنوقراطي يراعي معايير محددة في تنفيذ العمل وهي مذابح لم يعتبر بها أبداً قضاته وحراسه وسجانوه مع أنه وجب عليهم أن يستخلصوا منها العبرة. قال لنفسه لو أنهم فعلوا ذلك لما كنت هنا الآن أنتظر أن يطرحوني تحت المقصلة. كل شيء في ذلك التمثال يعطيه أجنحة بدءاً من الذراعين المفتوحين على سعتهما في حركة من حركات الانتصار إلى الحركة الراقصة التي ترسمها الساقان، إلى الكأس الطافحة بأشياء يستحيل عليه أن يميزها بوضوح. وحين اشتراها قبل شهر من عجوز عبوس منشغلة بنسيجها أراد أن يكون له شيء يذكره بذلك

اليوم الذي هشم باب مصيره المغلق إلى حد تلك الساعة، لكنه ما فكر أبداً في أن ذلك الرمز الذي يشير إلى الحركة والحرية سوف يساعده في تحمل مشاق السجن وتفاهته. لاحظ بكل رعب أولاً، ثم تحت وطأة العادة اليومية تلك المصادفة القائمة بين العمل التحرري الذي أقدم عليه خلال المقابلة الكروية وذلك التدفق العجيب من أشكال الفرح والسرور والاندفاع عند الرياضي الأتروسكي (القرن الخامس قبل الميلاد) الذي ينفخ عضلاته ويبرزها لا سيما وأن عمل الفنان المجهول تفتح كل التفتح بفضل تراكم الزمن على هذا الجسد الذي يتجاوز عمره ألفي سنة. النتوءات العضلية تمثل في خياله تجمعات من التفاصيل القادرة على الدخول في مدى زمني يقرب ما بين جسد الرياضي وجسده هو لشدة حساسيته (لقد صار التمثال بحكم العادة جزءاً لا يتجزأ من عالمه الصغير المألوف ربما بنفس الدرجة التي صارت عليها علبة الكرتون التي يرتب فيها حوائجه والتي تحمل علامة من الحليب السويسري تجعله يحلم طوال ساعات كاملة في حين أنه ما سبق له أن زار هذا البلد ولا رأى بقراته ولا سمع دقات نواقيسها المصنوعة بطريقة تقليدية، المصبوبة عموماً في البرونز، وبالضبط من نفس البرونز الذي صنع منه التمثال الأتروسكي) بالترسبات على المادة المتآكلة المتراكمة عبر القرون التي تتساوى فيما بينها كلما انطبق عليها قانون الجاذبية بفعل التقاطعات الضوئية وانكسارها وانحرافها تبعاً

للزوايا التي تتخذها وبفعل انثيالها على المعدن في شكل طبقة زيتية قادمة من الأزمنة السحيقة مما يعطي الأدوات العادية والأواني التافهة قيمة خيالية غير منتظرة. على أنَّ الاختلاط بين عنصري الإبداع والقدم، بين الطبع والتطبع، يكشف له عن نشأة التاريخ البشري وتنظيماته بقدر ما يكشف له عن ظهور الكتابة والاختراعات الكبرى، العلمية منها والفلسفية والجغرافية على حد سواء، هذه الصورة المستنسخة المسمرة التي بدأت في الاصفرار تعطي هذا المكان الذي ينام فيه ويأكل فيه، ويعمل به، ويتغوط فيه، ويقضي به وقته، جاذبية وكثافة تدفعانه على الانشداه أحياناً، لأنه باستثناء الرمز الذي ينطوي عليه هذا الرياضي أي رمز الانتصار الذي يعتبره هو بالقياس إلى قضيته، انتصاراً لا رجعة فيه، فإنه لا يكاد يفهم لماذا صار هذا التمثال مركز الثقل لذهنه ولأحاسيسه ولقوته. وكان يحدث له أن ينتزع الصورة ويحدق في ظهرها. ولا يستطيع عندها أن يمنع نفسه من قراءة جميع الكتابات المطبوعة على الورق المقوى، عمودياً وأفقياً:

قاعدة مجمرة أتروسكية.

الفائز بالكأس ذو القدمين المجنحتين.

بداية القرن الخامس ما قبل الميلاد.

برونز. ارتفاع 18,7 سم.

المكتبة الوطنية.

نقود، أوسمة، ومنحوتات قديمة.

ثم يقلب قطعة البريستول في اتجاه الطول:

تصوير المكتبة الوطنية ـ مطبعة تاردي كويرسي ـ

كاهور ـ فرنسا.

ها هي الطيور قادمة الآن من شجيرات الليلك والقطب ذي الأشواك المحمرة ومن القصب النابت على ضفاف نهر «السيبوس» الغضوب، الطامي المحتدم أبداً. وتقع هذه الأسراب من طيور الغطاس والكروان وأبي الحناء والقرقف والنورس والسنونو في الحبائل المصنوعة من الخيوط الكهربائية، المنتزعة من أعمدة الإنارة، وهي حبائل ينصبها هو ورفاقه عندما تحتدم أماسي الصيف والربيع وراء الشجيرات دفعة واحدة وتجنن الطيور المسرنمة التي تتمعش على الشموس الغاربة، المبقعة بالدم، والطمي. حينئذ يذهب الأطفال لبيع تلك الطيور إلى الفرنسيين المنشغلين بإرواء حدائقهم. ولا يكاد يوجد شخص واحد في الحي القصديري يجرؤ على دفع أدنى قرش لاشتراء مثل تلك التفاهات. الناس كلهم يربون تلك الطيور ولا يعرفون ما يصنعون بها. أما الفرنسيون فيشترونها لأنهم لا يحسنون الاعتناء بها. لقد كانت الأوقات الوحيدة التي يستطيع فيها هو ورفاقه الاقتراب من بيوتهم، ثم إنها كانت أيضاً الأوقات الوحيدة التي يحسون خلالها ببعض الحنان وبعض الرأفة لدى هؤلاء الفرنسيين. وبالإضافة إلى ذلك استطاعوا أن يربحوا بعض القروش دون كبير تعب، وأن يقضوا ساعات عذبة في ترصد الشحارير المتغابية وغيرها من

الزرازير المبهورة بالمرآة التي يمتلكها هو وحده، ويحسن تحريكها. سوق فائقة اشتهر بها في جميع الأكواخ القصديرية وفي جميع أحياء عنابة البائسة. لقد كانوا يجيئون (إنه يذكر ذلك كلما مر بالقرب من سوق الأزهار الواقع على الأرصفة خلال المسار الذي يتخذه من سجن «فرين» إلى قصر العدالة) لاستشارته حول فن تحريك المرآة الصغيرة التي يصقلها بكبير عناية. وما كان ينطوي على شرح مسبق ليعرضه عليهم، لكنه أبدى دائماً وأبداً استعداده للنزول إلى النهر حاملاً شباكه المصنوعة من السلك الكهربائي ومرآته لكي يقدم دروساً تطبيقية ويقوم باستعراضات في عين المكان. لقد كان ماهراً في تحريك الأصابع ولم ينته به الأمر إلى الترصيص إلا حينما حصل على شهادته وأبعد من الثانوية واقتيد نحو مركز التكوين المهني الذي صار فِيه حرفياً ماهراً. إنها موهبة مبكرة ومصير مقدر قاده نحو مصائر أخرى يلعب فيها الرصاص دوراً كبيراً. (ألم تلقنه والدته قراءة المستقبل على أسلاك الرصاص المسبوكة المصهورة المغطوسة في الماء، تلك الأسلاك التي تترسب الواحدة منها فوق الأخرى في شكل هيكل عظمي فضي تملأه التعاريج والمسارات التي تفتح مستغلقات العالم الخفي وتضعها في متناول الناس؟) حقاً، كان عليه أن يضطلع بدور هام في الحياة والموت على حد سواء وإن كانت النبوءة التي حصرتها والدته وانهالت عليها بالأسئلة لم ترد أن تفصح جيداً حول هذا الموضوع

بالذات. عندما جاوز الثامنة من عمره اتضح له أن الفرنسيين لا يتوفرون في أدمغتهم على لوالب شيطانية تمكنهم من أن يكونوا أقوى الناس وأذكاهم وأغناهم. وفهم خلال هذه المرحلة الزاخرة من طفولته حين كان يبيع لهم العصافير وطيور أبي الحناء والكناريا أنهم يقفون على هذا الحد من السكين في حين يقف هو مع بني جلدته على الحد الآخر منه. وأدرك إدراكاً مبهماً أنهم الأقوى لأنهم صنعوا الأسلحة التي توجد في حوزتهم في وقت تقوقع فيه بنو جلدته على الماضي الذي أثار غيظه لأول مرة في الرابعة عشرة من عمره عندما قام شيخ هرم بإحصاء جميع ما قدمه العرب للإنسانية. لقد أقحم الشيخ في إحصائه ذاك كل شيء. بما في ذلك البوصلة التي يعرف عنها أنها صينية. وسمح الطفل لنفسه بأن يعلق على الشيخ الوقور قائلاً: «لكننا مع ذلك لا نصنع القنبلة الذرية. أما هم فإنهم يصنعونها». إنه يتذكر تلك المرحلة من الرعونة حين كان سليط اللسان مع جميع الناس. وقرر يومها ألا يبيع الطيور للأجانب ولا حتى أن يصطادها لإرضاء أهوائه وأن يكون الأول في اللغة الفرنسية والرياضيات في السنة الرابعة وأن يتخذ مسافة بينه وبين الدجالين من العصر الذهبي ومن الانهزاميين على حد سواء. ودفعه تحرشه ذاك إلى إغواء بنت المدير وإلى المثول أمام المجلس التأديبي لانتهاكه حرمات التقاليد المدرسية. كان يراجع دروسه وسط تلك الأمتار الثلاثة المخضرة التي تعتني بها والدته ويظل هناك

حين تجمع الشمس ظلالها وتلقي بها على الفزاعات الهشة في الحديقة من صفائح الواجهة المتقادمة المنسحقة المعوجة المنتفشة ومن أجزاء السياج التي تنقلها أمه في كل ليلة بكل دهاء ومسالمة لكي تستحوذ على بعض السنتمترات الإضافية ومن فرج القصب الواسعة المفتوحة على السماء ومن الحبال الخشنة الشبيهة بسلم يتيه في السحب ومن تراكم الأشياء المختلفة التي تأكلها الصدأ البحري، ومن الجلود المهترئة مثل غرابيل سودها العفن ومن قرميد مغسول بندى البؤس ومن دلاء خشبية مرقعة تستعملها مسعودة لحلب بقرتها ثم تلقي بها وسط قراص الحديقة. في تلك الفترة بالذات بدأ شغفه بكرة القدم.. كرة القدم هذه مخادعة في حقيقة الأمر، ففي الوقت الذي بدا فيه أن مرمى تولوز غير مهدد، فاجأ سابروجليا المتفرجين باستعادة الكرة الممغنطة في قدم دي لوريتو اليسرى بسهولة محيرة ناتجة ولا شك عن بعض التقاعس في صفوف فريق تولوز المتفوق إلى حد الآن بأربعة أهداف مقابل هدف واحد، والذي يبدو واثقاً من نفسه كل الوثوق في حين أن اللعب لا يزال مفتوحاً. سابروجليا يتحفز إذن. ويفتك الكرة من «دي لوريتو» الذي يبقى متحجراً في مكانه. لكأنما هو مصدوم بذلك العبث والتراخي من جانب قائد فريق مسحوق على جميع المستويات بتلك الأهداف المسلسلة. «سابروجليا» يقذف إلى «شندلر» فيعيد هذا الكرة إليه. قلب الدفاع في فريق «أنجي» يأتي حركة مخادعة ويجتذب نحوه «بوشي» قلب

دفاع «تولوز» ويترك له الكرة. المدافع الأيمن ينجرف انجرافاً ويقذف الكرة بعنف بنية أبعادها لكنه يسجل ضد مرماه في حين أن «روسيل» الحارس لم يقم بحركة واحدة ظناً منه أن «بوشي» في موقع جيد يمكنه من توصيل الكرة إليه بتمريرة دقيقة أو من تصويبها نحو منطقة الأمتار الثمانية عشرة أو نحو الزاوية أو منطقة التماس. فريق أنجي يسجل هدفه الثاني بفضل كرم «بوشي»، لكن الحقيقة هي أن «سابروجليا» حسب حساباً جيداً لقذفته تلك ودفع «بوشي» إلى أن يرتكب خطأ لا يغتفر.

تولوز: 4 ـ أنجي: 2

سجل هذا الهدف في الدقيقة الثالثة والثمانين بالضبط من قبل حارس الدفاع التولوزي ضد مرماه. الفارق لا يكاد يتجاوز الهدفين الآن. إنه يضيق إذن. قد تؤدي هذه الضربة إلى قلب اللعب رأساً على عقب. . . فريق تولوز لا يستأهل ذلك. و«جول بيجو» يتململ هناك من الغضب. لقد حق له أن يغضب. حذار من التراخي! نحن في الدقيفة الرابعة والثمانين. فريق تولوز يهاجم في قوة. الجو مكهرب والمقابلة جميلة جداً. يا للعب المتوافق هناك ما بين إبراهيمي ودرودر. بوشوك يراوغ جميع اللاعبين الذين يحاولون اعتراض طريقه أو افتكاك الكرة منه. يتوقف فجأة. «سابروجليا» يندفع نحوه لكنه يصل متأخراً. بوشوك ينطلق بحركة مذهلة. ويترك سابروجليا مسمراً في مكانه.

ويفعل نفس الشيء مع «باسكيني». يحين دور «كوالسكي» الآن. ما أسرع اللعب! ها هو مرمى أنجي يحتدم. فراجاسي يتململ هناك. لقد كان «لوجول» على حق حين قال بأن هناك علامة خير في أن يكون أصل قسيس كولومب من أنجي. من يدري! ينبغي التصديق بالمعجزات عندما يلعب الإنسان كرة القدم. لقد كانت دلائل الشؤم وراء الهدف الذي سجله بوشي ضد مرماه. هدف حقيقي معجزة. لكن لا يبدو أن لاعبي أنجي يحسنون الاستفادة منه. فريق تولوز هو الذي يهاجم من كل صوب وحدب. إنني أشم رائحة الهدف والمطر. هناك غيوم بدأت تتلبد في السماء الزرقاء. الكرة عند اللاعبين التولوزيين الآن. يخيل إلى المتفرجين أن تلاميذ «والتر بريش» يجرون وراء ظلال لا يمكن إدراكها. الكرة عند «درودر»، يقذفها إلى الخلف دون أن ينظر صوب «بوكشي» الذي سجل الهدف الرابع لصالح فريقه بكل لباقة. هذا الفتى يتمتع بلياقة رائعة وهدوء كبير. ها هو يصوب الكرة بقذفة قوية من رأسه فتقع عند قدمي «ريتكونين» العملاق الفنلندي الذي يضطلع بعمل جبار في هذه المقابلة وينزلق بكل سرية. تمريرة من «ريتكونين» إلى بوشوك الذي يراوغ «بوريجولت» مهاجم فريق أنجي ويقذف الكرة فوق أرضية الملعب بكل قوة. «فراجاسي» يتبختر في مرماه ومع ذلك فإنه يصعب عليه الإمساك بالكرة. هل سيتوصل إلى ذلك؟ دفاع فريق «أنجي» يتجمع. حذار! «فراجاسي» لا يمسك الكرة جيداً. تتنصل منه،

يحاول اللحاق بها لكنها الآن بين قدمي اللاعب رقم 9 من تولوز، وبالضبط عند الأرجنتيني «دي لوريتو».

يريد قاضي التحقيق أن يعرف بالضبط متى أطلق «ستالين» الرصاصة الوحيدة التي قتلت الباشاغا دون أن يخرج المسدس من جيبه. يبدو على المتهم أنه لا يفهم لماذا يظل التحقيق على حاله ذاك بعد ثلاثة أسابيع كاملة. إنه لا يدري سبب ذلك. الأمور تصعب على الوصف بمثل هذه الدقة. قاضي التحقيق يلح بطرح سؤاله المكرور الذي يتحول إلى نوع من العصاب المستبد. متى أطلقت النار؟ في الدقيقة التاسعة والثمانين عندما سجل ابن بلدك الهدف السادس أم دقيقة بعد ذلك أي في الدقيقة التسعين حين صفر الحكم معلناً نهاية المقابلة بعد أن رأى أنه ليس من الضروري استدراك دقيقة وثلاثين ثانية ضائعة، وهذا ما أثار ثائرة أنصار فريق أنجي في حين أن أنصار الفريق المنتصر أي فريق تولوز يرسلون صيحات الفرح ويغزون أرضية الملعب؟ أتراكَ أطلقت النار في الدقيقة التسعين منتهزاً فرصة الصخب المتزايد؟ والحقيقة أنه كان عاجزاً عن الجواب، ففي رأيه أنه لم ينقض وقت طويل بين اللحظة التي سجل فيها «إبراهيمي» هدفه واللحظة التي أطلق هو فيها النار. أهي ثوانٍ معدودات أم أبد بأكمله؟ لا يستطيع تحديد ذلك. وبقي جالساً قبالة قاضي التحقيق، وإلى يمينه محاميه، وقال في نفسه: «وهل يغير هذا الفارق الزمني الضئيل شيئاً في الأمر؟ الدقيقة التاسعة والثمانون أو الدقيقة

التسعون؟ نفس الشيء. المهم في الأمر هو أنني أطلقت النار، والمهم أيضاً هو أنني لم أخطئه لقد استبد بي الخوف قبل ذلك لأنه غادر المنصة للمرة الثانية أي مباشرة بعد الهدف الخامس الذي سجله فريق تولوز في الدقيقة الخامسة والثمانين، والهدف الثالث الذي سجله فريق أنجي في الدقيقة الثامنة والثمانين. تغيب إذن طوال ثلاث دقائق. لم أكن في حاجة إلى قول ترهات في هذا الشأن. لقد استبد بي الخوف حقاً. لكنني عندما أطلقت النار بعد دقيقة.. لست أدري على وجه التحديد ولن أعرفه أبداً...»

ثم إنه خاطب القاضي مباشرة: «قل لي يا سيدي القاضي، هل هناك فارق في رأي الإنسان المطروح تحت المقصلة إن هو أعدم في الساعة الخامسة وثلاث وثلاثين دقيقة أو الخامسة وأربع وثلاثين دقيقة؟». وما كان القاضي ينتظر مثل هذه الفكرة. ازرق لها وتلعثم ونظر إلى المحامي يرتجي مساعدته لكن المدافع عن «ستالين» رفض تقديم أية مساعدة. ما كان يريد أن يتورط مع قاضٍ مهووس مثله. انتهى الأمر بالقاضي إلى أن قال: «لكننا لم نحكم عليك بعد. لا يمكن لنا أن نسبق حكم اللجنة صاحبة السلطة الكاملة في هذا الشأن. اللجنة وحدها هي التي تقرر. أحاول أن أقوم بالتحقيق، بالدقة الممكنة. وهذا في صالحك. ينبغي عليك أيها المحامي أن تشرح له أن لكل تفصيل أهميته... شهادة العجوز التي باعت البطاقة البريدية لموكلك لم تسىء إليه... بل بالعكس...» وانكفأ هو

على نفسه، وناجاها، واعترف بأنه ما أنصف العجوز. لم ينتظر أن تدافع عنه. «رجل أنيق مهذب جداً. وفضلاً عن ذلك، له ذوق جيد يا سيدي القاضي! نحن لا نرى الكثير من أمثاله وممن لهم هذا السلوك الجيد في الملعب. صعاليك، متوفزون، رياضيو مدرجات... ذلك ما نراه حقاً. لقد دهشت من تأدبه ذاك، وما أسرع ما عرفت أنه رجل ينطوي على مزايا عديدة. وأيقنت أنه سيختار صورة التمثال الأتروسكي. لم يشترها أحد. الناس يفضلون شراء صورة الملعب أو صور الفرق الرياضية أو صور أشهر اللاعبين. وخاصة منها صور المدرجات... حيث كانوا جالسين. لكي يرددوا في المقاهي بعد رجوعهم..» قال في نفسه: «هذه العجوز ودودة لكنها عبوسة مع ذلك. إنها تعرف أشياء عديدة. عندما روت أن ابنها كان في مثل سني حين أعدمه الألمان، صعق القاضي... أما المحامي «ستيب» فقد فغر فاه من الدهشة، بل غمره السرور وانتشى... ها هو يعود إلى حكاية الدقيقة التاسعة والثمانين أو الدقيقة التسعين؟ لنقل إن العملية تمت بينهما. كلا. فهو غير راضٍ عن ذلك أيضاً. فلأدعه يتحدث إلى أن يتعب. وأستطيع بعدها أن أطلب العودة إلى السجن. لم يعد لدي ما أقوله. لا ينبغي مضايقته، فهو رجل حساس وغير واثق من نفسه... ما علي إلا أن أقول: الدقيقة التاسعة والثمانون. في الوقت الذي ـ نعم ـ... سوف يرضى كل الرضا». وفجأة رفع إصبعه كأنما يطلب الكلام.

وما أسرع ما أنكر موقفه ذاك. وتذكر الآنسة «بيريتي» وحرب «البيريه» ثم تصالحهما، وكيف نزع «البيريه» إلى الأبد، وغرسه فوق أحد الفزاعات التي بدت مضحكة وهي تحرس ثلاثة أمتار من المعدنوس والكسبر والنباتات الطرية والنعناع. وتذكر أنه حلق رأسه لكي يعبر لها عن حبه الأخرس. كان مشغوفاً بها بطبيعة الحال، مثل جميع رفاقه. كانت رقيقة، تتحول عيناها إلى اللون البنفسجي عندما تغضب. ها هو ينظر إلى القاضي فيبدو عليه الانشداه وهو يراه يرفع إصبعه. وتمر لحظة من لحظات الغموض ويتدخل المحامي «ستيب» بكل عنف: «سيدي القاضي، إن موكلي يريد أن يتحدث..» لكن القاضي يغطس أنفه في الملف السميك كأنما يخشى بادرة أخرى من «ستالين»، ثم يقول من أعماق عالم مصنوع من الورق: «أجل! ها أنذا أسمعك». ويهمس الآخر: «أظن أن ذلك قد حدث في الدقيقة التاسعة والثمانين، سيدي القاضي». ويرفع القاضي عينيه معترفاً بالجميل، منتصراً في نفس الوقت: «هي إذن الدقيقة التاسعة والثمانون يا بني... هذا هو التحديد». لكن شكوكه تعاوده فجأة: «هل أنت متيقن من ذلك على الأقل؟» وتقذف عيناه ناراً تطقطق في بؤبؤبه. ويعرف الآخر أنه أضاع كل شيء. من العبث أن يواصل، لذلك قرر أن الحديث قد انتهى، ورجع القهقرى بطريقته. وكان ستالين هو أول من قام من مكانه.

ها هو يصل إلى نهاية السراب، ويرغب في أرغفة من

بلده مدهونة بالزبدة والشحم المجفف. ثم ها هو يرغب في رائحة زهرات العسل التي غرستها أمه في جمجمة قط، وفي طيور طفولته التي تطير بأسرع من السحب عندما يغيم الخليج بضباب الصباح وعندما ينفجر الصيف وتتعدد الأعراس في الحي القصديري، قال كل شيء لكنه لم يتنازل عن شيء. الدقيقة التاسعة والثمانون أو الدقيقة التسعون. أين الفارق؟ لقد قضى على السراب لكنهم، هم، ينزلقون فيه. سوف يكون الغد أزرق أو بنفسجياً مثل عيني الآنسة «بيريتي». المهم هو أنه حين يذهب، سوف يكون الصباح قائماً في حديقة أمه التي تفعل الأعاجيب بهذا المربع النحيف حيث ينبت العشب على هواه. مسعودة تمتلك شخصيتها! لكن الطيور تسخر كل السخرية من فزاعاتها وتتحملها أكثر مما تتحمل المبيدات التي يدلقها المعمرون فوق الحقول من الطائرات الصفراء الصغيرة المحتجزة الآن لكي تقذف طروداً ملغمة وأكياساً مموهة فوق الجبال المحتدمة التي لا يقوى إنسان على النيل منها.

وفي طريق العودة إلى «فرين»، حين مر بالقرب من سجن «لاكونسيير جوري» أدرك أن أحد موظفي البلدية ضبط الساعة الجدارية. وقال في نفسه هذه بادرة خير سوف تكون المقصلة قاطعة باترة. ولن يكون التاريخ متأخراً.

وجعل يفكر في نعشه وتذكر القصة التي رواها له «جو» المهندس وكيف أن التابوت الذي حمل جثة أخيه ظل معلقاً في الفراغ لأن الرافعة تعطلت. واستبدت به نوبة من

الضحك، فتبادل حراسه النظر فيما بينهم. وظنوا أنه جن لتوه. لكن ضحكه ذاك كان منتظماً فانتهى بهم الأمر إلى تقليده وترجوه أن يحكي لهم القصة، فرفض. لا يمكن له أن يروي قصة مثل هذه لشخص يقيد نفسه معه ويحتفظ بالمفاتيح داخل جيبه. هذا أمر لا أخلاقي! وازداد ضحكاً وهو يتذكر فجأة الفرقة الفدائية. فعندما كان بازوكا يترصد فريسته، يقضي وقته في شم إبطيه مرات عديدة خلال اليوم الواحد! أما القسيس فكان يقطع جمله بالتعبير التالي: (هل فهمت ما أقصده؟) في حين أن زاباتا كان كذاباً، يزعم أنه ثري وأنه بعد انتهاء الحرب سوف يتبرع بكامل أراضي أسرته للثورة المنتصرة. والواقع أنه كان مثله، وقد فقد أباه. وعندما يفكر «يوكاتان» في أمر ما يضع يده اليمنى على الجانب الأيمن من جبهته ثم يضع يسراه على الجانب الأيسر من جبهته تباعاً وبصورة آلية. أما «فيسبا» فكان يقضي وقته في الطقطقة بفمه. وكثيراً ما حدث له أن ضغط على الكابح وهو يسير على قدميه. ويتوقف حينها ويعتذر. ولم تكن لـــ «جو» أية عادة لكنه يتحدث كثيراً عن الرافعة التي أقلت تابوت أخيه. ويقول في نفسه: «أتمنى ألا تتعطل المقصلة، فلتكن العملية نظيفة، أما همجيتهم، فأنا لا أتقبلها!» ويضاعف جهوده لكي يوقف تلك العملية الآلية، لكن ذكرى الرجل الحريري تجعله ينطرح على الدكة انطراحاً كاملاً. ويعجز حراسه أمامه ويبدو عليهم الغباء. وعندما يهدأ ويستعيد قواه العقلية، يروي لهم الحكاية. إنه

لا يحقد عليهم لكنه يحتقرهم وهم يعلمون ذلك ويعجبون به لهذا السبب. عندما وصل إلى أطراف السجن قال لنفسه إنه عندما يجن الليل فإن الجدران العالية سوف تفقد من غطرستها المعتادة ويحس حينها بأن أيادي حراسه تصير رخوة جداً. وتغرق عيونهم في غشاوة مبهمة دون أي تململ أو أي أرق. أما هو فيسلم نفسه للمخدر الذي يعمل على إدامته إلى أن يحين يوم إعدامه ويترك الأمور تسير على هواها، وينطلق في البحر العريض. البحر ملء جيوبه مع مفتاح درجه الصغير الذي يرتب بداخله بعض كتبه. والبحر ملء رأسه، يترجرج في خزانات ذاكرته التي سبق له أن رتبها في انتظار موته. يا لتلك اللحظة المباركة من بين جميع اللحظات حين كان يعبر الفناء الصغير المجاور لزنزانته في طريق عودته من قصر العدالة ويشم في جو الأصيل رائحة أمه. كانت أمية لكنها تملي رسائل رائعة على قريبه الصغير المثابر. فهي تعلم أشياء كثيرة: سجلات هائلة من الأمثال كأنما هي مواجيز مجعدة من بشرتها المخددة وأصابعها المتشققة بغسيل الجيران وأشغال الحديقة. كانت تقوم في الصباح الباكر وكانت عيناها هشتين صيفاً وشتاءً، وعلى الرغم من المشاق والأحزان فإنها تذر لقاح ضحكها في العالم المحيط بها. وعندما تعجن الخبز بأصابعها، يتطامن صوتها في حين أن الوشم الذي تحمله وسط وجهها يلتوي بكل رقة حول جبهتها البيضاء بياض الحليب. وكان هو يتأخر ويجرجر قدميه لكي

يصل إلى باب زنزانته المنعزلة المعزولة عن الأصوات. ويتذكر أمه. ما كان يريد أن يقول كلمة زائدة عن المطلوب، بل يحاصر الزمن خشية أن يسرع أكثر من قلبه. وعندما يجد نفسه داخل زنزانته يحس بنوع من الشطب يمحو حركاتها. وينقضي عليه بعض الوقت قبل أن يواجه جدرانه ثم يستعيد ثانيه ذكرى أمسيات جوان، هناك في بلده، عندما تصير النوافد بلون الباذنجان وعندما تتطامن أصوات الذين ينادون على بضاعتهم من السمك. قال في نفسه إنها حياة بأكملها. ويشعر حينها بنوع من المطر الذي يواصل حفر الأخاديد تحت زجاج العمود الفقري، ويزداد الظلام صفاقة ويقضي على الجدار العريض المسيج بالأسلاك الشائكة. ها هي الحياة تنعكس وتلتصق أنفاسه بمرآة وجوده هو. شبكات واسعة من التدخلات المتعددة. كل شيء يتشابك عبر هذا السرداب في آخر النهار. المطر يهطل في الخارج. إنه مطر مدرار. يعرف ذلك من أصوات الحراس التي تصير أقل خشونة. كل شيء يتشابك، هناك. هنا. يستعيد ذكرى فصول الخريف المدهشة عندما ترشح الجدران مثل صابون الحلاقة في الصباح وحين تتفتت أشباح الناس المختفين تحت مطرياتهم بتأثير الطوفان الخريفي وتتعثر قدماه الصغيرتان في بركة من الحبر الأخضر حين يفكر في شغفه بالآنسة «بيريتي». إنه يكاد يسمع شوارع مدينته وهي تحمحم. ويكاد يبصر بقطة تعبر تلك الشوارع متقاعسة بين سفن الميناء وبياض المدينة المحرمة

عليه، هو الطفل العربي. وعندما يعود إلى حيه بعد الزوبعة يشاهد الزعانف وهي تمسح الزمن بأجنحة المروحة المنصوبة في قلب صالون الحلاقة الذي يمتلكه محرض سياسي معروف متزوج بيهودية جميلة من بوسعادة. لقد قتل ذلك المحرض حين بدأت الثورة وصارت زوجته ممرضة في جبل من الجبال المجاورة. هجرت أطفالها وأهل زوجها الذين لم يتقبلوها أبداً بينهم. هناك خارج السجن حارس ينادي حارساً آخر. الأمر يتعلق بالسجائر بينهما. جو النهار الربيعي صار ندياً الآن ولذلك فهو يسمع تلك الأصوات البشرية. لا يريد أن يتعشى لكنه يقول للحارس الذي يأتيه بطعامه: «أنا أم أنت؟» ويصاب الآخر بالارتجاج. وينظر إليه في غباء، ثم يوليه ظهره ويحمل معه الصينية التي جاءه بها دون أن يمسها هو. وقبل أن يضع الرتاج على الباب يضغط شفتيه على الفتحة ويقول: «أنا لا أعلم شيئاً من ذلك في حقيقة الأمر».

10

تولوز: 5 ـ أنجي: 2

... نحن إذن في الدقيقة الخامسة والثمانين، وفراجاسي لا يستطيع التحكم في الكرة التي يصوبها بوشوك إليه. دي لوريتو يوجد هناك في الوقت المناسب، يستعيد الكرة ويسجل الهدف بكل هدوء في حين أن دفاع فريق أنجي خارج المنطقة، والحارس منطرح أرضاً، ومرماه فارغ تماماً. إنه الهدف الخامس لفريق تولوز الذي تدارك نفسه منذ دقيقتين على أثر الصدمة السيئة التي تلقاها حين سجل مدافعه الأيمن هدفاً ضد مرماه في الدقيقة الثالثة والثمانين. وهكذا فإن اللاعبين الذين يقودهم بليملدنغ لم يتأخروا طويلاً في الأخذ بالثأر، وبالضبط بعد دقيقتين قام خلالهما لاعبون في قلب الهجوم من أمثال درودر وريتكونين والإبراهيمي وبوشوك ودي لوريتو بمهارات فائقة وبعض المقالب العجيبة. وقبل هذا الهدف الخامس لفريق تولوز، احتكر مهاجمو هذا الفريق الكرة وضاعفوا التمريرات فيما بينهم واستبدلوا مواقعهم في الجناحين، وتبادلوا أمكنتهم

وصوبوا قذفات قاطعة متكررة في جميع الاتجاهات. وبدا وكأن فريق تولوز يلعب بأكثر من أحد عشر لاعباً لكثرة ما كان هؤلاء يتنقلون ويغيرون مواقعهم ويذهبون عند الحاجة نحو الكرة ويخادعون ويراوغون ثم يقذفونها نحو المرمى. لقد شهدنا منذ دقيقتين كيف انسحق أنجي وأصيب في معنوياته بعد هذا الهدف الخامس لم يبق سوى خمس دقائق من المقابلة. إذن:

تولوز: 5 ـ أنجي: 2

... من الصعب إذن تدارك هذا الفارق الثقيل. ينبغي على فريق أنجي أن يسجل أربعة أهداف إذا كان يريد الفوز بالمقابلة... في ظرف دقائق معدودات. على أنه ينبغي الاعتراف بأن مثل هذه العملية مستحيلة بمنطق الرياضيات. لعل لوجول غاضب على قسيس كولومب: فهو لم يؤد عمله السحري على أحسن ما يرام. والحقيقة هي أن اللاعب حينما يجد نفسه وجهاً لوجه مع جنيين من أمثال إبراهيمي وبوشوك فإن آلهة الكرة تقف مكتوفة الأيدي. البركة لا تنزل على أي شخص كيفما اتفق... لعل اللاعبين الجزائريين يحملان في عنقيهما حروزاً فعالة ورقى لا تخطىء أبداً. كان من حق لوجول أن يطلب تركيبة تلك الحروز بدلاً من أن يعتمد على توقعات بركة قسيس كولومب على الرغم من أن هذا الأخير من أهل البلد.

ليس هذا إلا من قبيل الترويح عن النفس. إذا كان فريق تولوز متفوقاً فإن فريق أنجي يتعثر. وينبغي الاعتراف بذلك. لعل بليملدنغ أن يكون مسروراً. سوف يكون في وسعه أن يبر بوعده لوالدته ويفوز بالكأس حتى يهديها لها بصورة رمزية في عيد الأمهات. لقد استعاد فريق أنجي اللعب خلال الوقت الذي انشغلت فيه بحكاية هذه النوادر التي نشغف بها نحن الصحفيين أيما شغف لأنها تعطي لكرة القدم بعداً إنسانياً مؤثراً. لا يبدو أن الهدف الخامس قد نال منهم كثيراً. يظهرون متماسكين وينطلقون في الهجوم كأن شيئاً لم يحدث. اللعب مفتوح جداً. كرة متشابكة من عند بوريجولت صوب شندلر الذي يعيد تصويبها نحو لونكل، هذا الذي يكاد يكون داخل منطقة الأهداف التولوزية. لكن حذار! تيزون في موقع تسلل! الحكم م. كلو يصفر. وها أنذا أشاهد الحكم المساعد يرفع رايته. هذا أمر مفروغ منه! لا يبدو على تيزون الرضا. يحتج بلطافة لذر الرماد في العيون ليس إلا... فعلاً، هو مقتنع بأنه على خطأ. ويرضى بذلك عن طيب خاطر! قذفة من روسيل نحو بليملدنغ الذي يصوب الكرة برأسه إلى بوكشي... بوكشي هذا الذي أثار الجميع منذ وقت، وفي الدقيقة الواحدة والستين، عندما غادر موقعه كظهير لكي يسجل الهدف الرابع لصالح تولوز بكل استرخاء. ودون أي جهد. ما ألطف هذا الفتى... الكرة لا تزال في الجو

إذن. بوكشي يشرئب بعنقه، وبضربة صائبة من رأسه يحول الكرة إلى ريتكونين الذي يجري على طول خط التماس و..

لقد تطلب الأمر في بعض الأحيان القيام بهجوم مباغت على الفنادق، وإيقاظ النزلاء وإرغامهم على الإنصات، وتهديدهم، وحثهم، والتوسل إليهم، وشتمهم وإملاء آخر التعليمات عليهم، ومطالبتهم بدفع الاشتراكات المتأخرة فوراً، وإخراجهم من مضاجعهم وهم ذاهلون، منفوشو الشعر، يحكون جوانبهم وظهورهم باستمرار، مسرنمون، لا يفهمون ما يدور حواليهم بسبب وطأة النعاس. وتطلب الأمر أيضاً توزيع المهام على أولئك النزلاء، وإعطاء الأوامر لهم، والتذرع بالدين لاجتذابهم واستعادتهم قبل الاضطرار إلى استخدام العنف وقتل شخص أو شخصين منهم لضرب المثل. ويفرغ صبر أحدهم، في آخر المطاف، وتنتفي الحجج، وتتبدد قواه، فينطلق صوته، وهو ولا شك صوت رجل مهذار يريد أن يفرض رأيه على أصحابه وعلى نفسه، ويغمغم رفضاً ما أو تبريراً أو يحاول أن يربح الوقت فيقول: «إننا نرسل دراهمنا إلى أهلنا. فما العمل؟» أما هو فيعرف جيداً أن هذا الأمر صحيح. لكن النجاة من المذابح لا تتحقق بالحوالات التي يرسلونها إلى عائلاتهم. لعل عائلته قد اندثرت في هذه اللحظة التي يتخابث فيها وجرفتها زوبعة الحرب الساحقة الدائرة رحاها هناك في البلد المنتهب، الموضوع بين قوسين، المقنبل، الغارق في

الدم، المسيج بالأسلاك الشائكة، والواقف على شفير الاندثار والانقراض. كيف يوضح له بأنه يتخبط في الوهم، وبأنه لا يمكن التذرع بالعائلة، وبأن له أُمّاً هو الآخر؟ وكيف يبين له بأن القسيس الملقب بـــ «النهاية» فقد زوجته وأطفاله تحت قنابل النابالم؟ لكن، ما كان هو المخطىء الوحيد. في البداية خافوا أشد الخوف، وظنوا أن المنظمة غير قادرة على مقارعة العدو في عقر داره، وعلى إشعال فتيل الحرب في كبريات مدنه. كانوا في معظمهم مرتابين أو معادين كل العداء للمنظمة. كلا، لم يكن الشخص الوحيد الذي لا يريد أن ينظر إلى الأشياء وجهاً لوجه. وبدايات الفرقة الفدائية التي يقودها كانت صعبة بل صعبة جداً. وقد وجب القضاء على الأحكام المسبقة والخوف والحذر، لذلك تعين إعدام البعض، واللجوء إلى التهديد، وقطع الأنوف أو الشفاه. وقد تعين بوجه أخص إحداث ندوب في وجوه المترددين، أي لدى أولئك الذين كانت المنظمة على يقين من أنها سوف تجتذبهم ذات يوم، والقضاء على كمشة من الصعاليك ومحترفي القوادة ومهربي المخدرات وغيرهم من الطفيليين الذين وضعوا تلك الجالية الفقيرة تحت رحمتهم. ولم يكن بطبيعة الحال الشخص الوحيد الذي وقع في فخاخ الاستسلام للمنظمة. بل هناك آخرون سقطوا وسط صيحات الهلع من صقالات عالية، وقد حوصرت أعينهم بالرعب من الفراغ، وارتعشت قبل السقطة، ثم صارت لزجة، وانفجروا في قلب الضوء، في

وقت تهاطل فيه المطر على المدن والمارة والورشات والعارضات الخشبية والمساند الهوائية الرشيقة وعلى كرات السلك، وعلى الأرض الطينية والآلات الكئيبة. لكن المطر لا يزال يهطل، والعنف البدائي يفسح المجال دون التقاعس، مازجاً الماء والدم المنبجس من الدماغ المهشم، ملقياً على العيون عمىً، منذراً، غمازاً. كانوا منطرحين، نائمين كأنهم سقطوا من مجرة مصنوعة من الأسمنت المسلح، موضوعين في مقدمة الفراغ والدوار، رشيقين، متململين، على شفير الهاوية دائماً وأبداً، وعلى أبواب الكارثة والموت الذي يشير إليه رب العمل إشارة آمرة، وقد أفرغوا الآن من دمائهم، ومخاط أمعدتهم ولعابهم محاولين عبثاً أن يتفادوا البؤس والتحلل والهوان، حالجين الزمن مثلما يحلج الصوف الرخو المتراخي، واقعين من علو يقدر بمئات الأمتار، عبر الحبال والهياكل، مخوضين في عجينة الحياة التي يراد فرضها عليهم، ميتين وسط الحرمان التام لكي يتنصلوا من الغرفات العفنة عند الفجر البارد، ومن المطابخ الهزيلة التي يمتلكها باعة الحساء المتنقلون، ومن عنابر المستشفيات حيث يتركون تحت رحمة السل والسيليكوز والعصاب وتصلب الشرايين. وبهمهم الآخر بأنهم لا يتوفرون على المال، وبأنهم أرسلوه، في مجموعة إلى أهليهم، مشيراً بذلك إلى أن لا ناقة له ولا جمل في المنظمة، أو في المقاومة التي بدأت. ومع ذلك فإنه لا ينبغي الاستسلام بعد ذلك العدد العديد من القتلى

والجرحى والمجانين والمنفيين والمهجرين والمعدومين والمسجونين. أما هم فينفضون أيديهم من ذلك كله بعد انتهاء العمل، وبكل صبر، مما يضحك رفاقهم في المشقة والحزن، كأن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد وضوء لم تعد ذكراه إلا ذريعة متخفية أو نوعاً من العادة الآلية التي تدور في يأس حول نفسها. وهي عادة ما بقيت لها أية ضرورة لكي تستمر. ومع ذلك فإنهم ظلوا يواصلون إعداد طعامهم تحت أسرتهم، بعيداً عن أنظار أصحاب الفنادق (من أمثال «بيل» الذي عرف من أين تؤكل الكتف، فانهمك في السياسة، وراح يلعب مع الجانبين، ولكن بترخيص من المنظمة التي تراقبه. على أن «بيل» هذا سوف يعود إلى البلد بكل تأكيد، وسوف يزعم بأنه بطل وسوف يفتح مطعماً ضخماً) على أفران صغيرة مصنوعة كيفما اتفق، وفي قدور متبعجة، صدئة، أو في أوعية مشققة تعود إلى الطوفان الأخير أو النقلة الأخيرة أو الانقلاب الأخير. وعلى الرغم من الحرب، فإنهم واصلوا الانتقال من ورشة إلى أخرى كأنهم منجذبون برشاقة الرافعات وبألوانها الصارخة وتقنياتها المتطورة. يقذفون برئاتهم داخل الورق الطبشوري لأكياس الأسمنت. ويغدون ويروحون دون فكرة محددة أو واضحة. في حين أن هناك آخرين من الذين يوجد من بينهم واحد معاند دائماً وأبداً، يتهامسون بحجج عائلية، ظانين دون شك أن المنظمة تجهل المشاكل أو أن الناس الذين يناضلون في صلبها ليس لديهم أي حس

بالعائلة. ووجب حينذاك إسكاتهم بالصفعات لشدة ما استبد به الغضب من ترددهم ذاك وجبنهم وأنانيتهم، ذلك أنه يعلم أن مثل تلك التصرفات العنيفة سوف تدفعه على الندم والأرق والإحساس الجارف بالذنب المؤلم المستديم. مهام قذرة حقاً، بل وكريهة، لكن تعين عليه أن يضطلع بها حتى يجد مكاناً للمنظمة وسط بؤسهم وجهلهم. وكان عليه أن يشرح لهم كيف أن أشخاصاً آخرين فقدوا أعينهم وأرجلهم وخصياتهم وأمخاخهم في المنظمة، وكيف انتهى بهم الأمر إلى مستشفيات الأمراض العقلية والسجون والأحزمة الحديدية والأربطة الإجبارية والرمامات البلاستيكية. وكرر لهم أيضاً كيف أن أشخاصاً آخرين فقدوا بشراتهم المحروقة بالمواد الحامضة المتأكلة أو احترقوا في أفران الغاز والفحم والمازوت والبترول والجير والزيت الثقيل والغازات المحرقة والكهرباء. ثم إن هناك آخرين شدد عليهم الخناق وسحقوا واغتيلوا ونقلوا إلى أماكن أخرى وسيقوا إلى الحرب عنوة وأهينوا وطردوا، واحتقروا ونغص عيشهم وأعدموا، وضويقوا وأغرقوا وشوهوا...

ها هو القاضي يعرض أمامه، في نوع من التكتم، منشورات تنادي إلى العنف ويقول: «ألا تستطيع أن ترشدنا إلى الشخص الذي حرر هذا النص؟.. إنه تحريض على القتل.. وهذا أمر خطير كما تعلم!» أما هو فلا يجيبه، بل يلجأ إلى حواره الداخلي ويغرق فيه ويقول لنفسه: «ألا ما أغبى هذا الشخص! أنا أطالب بمسؤولية الإعدام لا بالقتل، حذار! هناك فارق أساسي جوهري، أي أن هناك

شبكة تجريدية فلسفية بل وميتافيزيقية تفصل العمل الإجرامي عن العمل السياسي، والقتل البشع الذي يرتكبه مجرم عادي عن المطالبة الواضحة الواعية بموقع من المواقع... لكنني لست في حاجة إلى أن أشرح له ذلك كله.. لقد أضعت ريقي مع الآخرين، مع إخواني، ولم يكن الأمر سهلاً لكي أحشو أدمغتهم بالآراء السياسية التي تتبناها المنظمة.. أما معه، فإنه ليس من الضروري أبداً أن أعمد إلى الشرح.. فله ترسانته من القوانين. أطالب بمسؤولية إعدام الباشاغا ويتحدث عن منشور يحرض على القتل..» وها هو قاضي التحقيق يخاطب محاميه الآن: «لكن لم هذا الاسم المستعار، ستالين؟ إنه لا يريد شرحه. يقول إنه عثر عليه في قاموس الشركات أو في دليل الهاتف أو في الموسوعة العالمية... إنه يناقض نفسه على الدوام.. هذا الاسم المستعار يخفي دون أدنى شك انتماءً سياسياً ما.. ألم ينضم موكلك إلى حزب شيوعي؟ هناك أو هنا؟» ويقول هو في نفسه: «لا يريد مني أن أحادثه عن عمي بوشريط.. أليس كذلك؟.. كلا وألف كلا. لن يصدقني على أية حال. مستحيل أن أتحدث إليه عن عمي بوشريط. المسألة شخصية جداً. حمامات القدمين. العالم الذي قطعه على متن القطار لحساب شركة السكك الحديدية. ولعه بالخمر.. منشوراته الشبيهة في شكلها بالمنشور الذي أخرجه القاضي كأنما هو سلاح حربي، بعد شهر من التحقيق والتحري.. كلا، سوف يجنني، كان العم يخرج المنشورات من كيسه. أما أنا فكنت أفك حروفها.. وبسمته تنير وجهه.. قبضته مرفوعة.. ونداؤه.. «يحيا

ستالين..» وعندما يتعتعه السكر يعود إلى الدار متأخراً رافعاً عقيرته بالنشيد الأممي، متخابثاً بقصد إثارة المؤذن الذي حرض الناس عليه... وهذا القاضي يريد أن يعرف سر هذا الاسم المستعار.. المسألة شخصية جداً. إنها منطقة من قلبي محرمة على التفتيش والإشارات والتلميحات..» وينظر المحامي إليه. لكن لا يجيبه، ثم ينظر إلى القاضي. ويقول: «أظن، يا سيدي القاضي، إنه اسم مستعار التقطه صدفة ليس إلا.. إنه لا يشير إلى أي شيء..» ويهمهم القاضي قائلاً: «يبدو أن موكلك لا يقوم بالكثير من الأعمال على أساس الصدفة. إنه عقل منظم. ولا يقول لنا الحقيقة. وهذا أمر يؤسف له. لن يجد وكيل الجمهورية كبير صعوبة في إقناع هيئة التحكيم بأن هذا الرجل خطير. فليكن ما يكون..» أما هو فيحاور نفسه: «إنه لا يتوقف إلا عند حدود التفاصيل لحسن الحظ.. هذا ما يسمح بنسيان المنظمة.. الدقيقة التاسعة والثمانون أو الدقيقة التسعون. هذا منشور عادي مليء بالجعجعة يكرره ثوار العالم أجمع. اسمي المستعار. هذا كل ما يشغل بالهم. في حين أن المنظمة تواصل عملياتها في الوقت الذي يثرثر فيه هذا القاضي. عملية أمس من توقيع بازوكا. هذا مؤكد. له طريقته الخاصة وأسلوبه. أعرفه جيداً.. أو لعلني لا أعرفه أبداً».

لم يكن من اليسير ضبط الأمور في أوساط تلك الإنسانية المستباحة الفوضوية المقهورة المستأصلة.. لذلك وجب الأخذ بالكثير من أسباب الصبر، والتحايل على الغرف الحقيرة والفنادق الأحقر منها حيث كانوا يعيشون

محشورين مثل البهائم. ووجب أيضاً التنصل من الرقابة البوليسية المتكررة حتى لا تدهمهم، ووضع اليد على الخونة الذين لا أمل في اجتذابهم، وذبحهم في العراء (لم يكن هناك الكثير من الذخيرة لتسمح المنظمة بإعدامهم واحداً واحداً برصاصة في الدماغ..) لم يتعودوا على ذلك، ولم تكن هناك تقاليد. كان كل شيء جديداً. وقد كان نوفمبر 1954 زوبعة حقيقية هبت على البلد، وامتد صداها إلى الجانب الآخر من البحر. لم يريدوا أن يفهموا شيئاً في بداية الأمر، ثم إنهم عجزوا عن الفهم، ولكنهم فهموا كل شيء بعد عام من العمل المكثف وتمثلوه وهضموه. ووجب بعد ذلك إمساكهم لأنهم أرادوا القيام بأكثر مما يلزم، وتهدئة حماسهم، والطلب إليهم بأن ينتظموا فيما بينهم، ويتعاونوا ويدفعوا الاشتراكات بانتظام، ويساعدوا المنظمة كلما احتاجت إليهم. وكان من الطبيعي ألا يقبلوا في بداية الأمر بهذه المنظمة. هذا أمر عادي. وما ذلك إلا بسبب عيشهم في هذه الأحياء القصديرية بصفائحها المعوجة المشروخة المتقطرة بالمطر الذي لا ينقطع كأنما تعمد السقوط بغزارة أشد وأعنف مما هو عليه في أي مكان آخر، أو كأنما تعمد أن يبلل أكواخ الفقراء بدلاً من الأحياء الراقية أو الأرباض الفخمة القائمة بين الغابات والبرك، وهذا السراب الذي يداعب مخيلاتهم ويلوب أمامها. لقد كانوا يعيشون في أكواخهم المغطاة بالورق المزفت الذي يتحول إلى ورق سجائر بعد ساعات

قليلة من المطر المدرار أو بعد أيام قليلة من الرذاذ المتواصل، وتحت سقوفهم المتقلعة التي ينبغي إرساؤها بحجارة ضخمة إلى أن يسفر الصبح ويستنفد كل واحد منهم كوابيسه ويستأنف عمله، وبأبوابهم ونوافذهم المشدودة بأطراف من الخيوط والأسلاك وماسكات الغسيل والورق الملتصق إلخ. . وببيوتهم المائلة المتمردة كأنما هي تهزأ بالدنيا كلها وتتفتح على الريح والعواصف والأعاصير، وبحبال غسيلهم المهترىء المجفف لمجابهة البرد مع أن حبات المطر كبيرة في حجم قطع غيار المصانع التي ينحصر فيها الحلم طيلة ثلاث عشرة ساعة كاملة، وبأطفالهم المصابين بالكساح المخوضين في القمامات، وببالوعاتهم النتنة المفتوحة على السماء المتعرجة عبر الأكواخ الصدئة الرطبة اللزجة حيث يصطاد الصبيان بعض الحلويات القادمة من احياء الآخرين بواسطة علب السردين الفارغة، وبحشودهم وأعدادهم المتزايدة وأثقالهم التي تؤويها الغرف الضيقة بالعشرات من أمثالهم المصابين بداء المفاصل شتاءً المحترقين صيفاً بنار الإشعاعات الشمسية القادمة في شكل موجبات ملتوية لا من السماء بل من السقوف الأخرى المغطاة بالورق المزفت والصفائح المطاطية وقطع الميكا التي تذكي النيران كلما كان هناك شعاع زائد من الشمس يبهر الأبصار ويذر البثور فوق الأجفان المفتتة بالأشعة دون الحمراء في حين أن الأزقة الملتوية في الخارج تستسلم لصدمات التموجات الكهربائية

الرمادية والارتعاشات المعدنية والضربات النحاسية التي تجفف أنوف المعطوبين المسمرين في دككهم بكل غباء، الناشرين نباتاتهم على أشعة الشمس، تلك النباتات التي يغرسونها خفية في أوعية من الزنك (نعناع، حبق، كسبر، حشيش. . إلخ) بجحافلهم من الأشباح المفجوعة المتذمرة المستيقظة في الساعة الرابعة صباحاً السائرة في صفوف طويلة بحذر الهنود الحمر لكي يمثلوا أمام المصنع الواقع في الطرف الآخر من المدينة، وبسعالهم المنفجر في أفواههم القرمزية الحمراء الفاقعة المترجرجة بسبب الأخاديد التي تحدث فجوات في رئاتهم المرقعة كل عام من قبل ممرضات غير آبهات بالأسى الصارخ وسط تلك الأكواخ المتعفنة في ذاكراتهم المهشمة الخشنة، وبروائح الشاي المغشوش والجنجل الحامض والأفخاذ الكريهة المختلطة وسط المستنقعات المصنوعة من الصفائح الصلبة المؤلمة، وبأطفالهم المليئين بالبثور الذين يغرقون مكرهم في تعاريج خرافة الإدماج الفرنسي، وبمهرجيهم ذوي الخصيات الراشحة كلما صار الجو أكثر سخونة من المعتاد، وبعرافيهم الذين يقذفون بوقاحاتهم في أوجه الزبناء التواقين إلى العودة، وبمقماقيهم الذين يترصدون فريسة غبية ليسلبوها أحلامها ونقودها الموفرة قرشاً قرشاً وسط الأدخنة القتالة في غبش الفجر، وبمروضيهم الجسورين الذين يتحكمون في السلاحف والحمائم والحشرات والبق ويجعلونها تقفز فوق أسوار الموت المصنوعة من الورق

الصقيل، وبأفراسهم المتسكعة المطلية بالمسك والحناء المصدومة بتلك الطوبوغرافيا الملتوية التي تثير مجالات لم تخطر على البال وتتقصف حول الدوائر والخطوط المستقيمة والإهليلجية والأقواس والخطوط العمودية والمائلة، وببائعي السيارات ذوات المحركات العاطلة والهياكل البراقة اللماعة بألوانها الحمراء الصارخة أو الصفراء الفاتحة أو الخضراء الحانئة كدليل على الثراء الفاحش في نظر أولئك الذين يكرسون عطلهم كلها لكي يضعوا أيديهم على العذراوات العنابيات المشدوهات وبمزوريهم البدينين الذين يصنعون بطاقات تعريفية وجوازات سفر وترخيصات إقامة مزيفة لا تصلح لشيء ويستطيع أي رب عمل أن يتعرف عليها بمجرد أن تعرض أمامه، وبمؤذنيهم المختفين وراء زجاجات الخمر المنقطعين عن الله وعن البشر، الغارقين في مناجاتهم الذاتية المسالمة التي تحرق أحشاءهم بنار الندم، وبكهنتهم الذين يعلنون عن اقتراب القيامة وعن الإجهاضات وعن سوء الطالع، وبكتابهم العموميين الذين ينتهزون الفرصة لكتابة روايات نهرية لأنهم يتقاضون أجورهم عن كل سر يكتبونه، وبـــ. . . في حين أن أصحابه، هو، لا يزالون يعتبون عليه لأنه ذهب ليمارس السياسة، ولا يزالون يعملون على تحسين ألاعيبهم ومقالبهم مرددين كلمات صنعوها كيفما اتفق على ضوء مصابيحهم الكابية: «لن يتوصل إلى أن يفهم شيئاً ما لكنه لن يقوم بهذه الرحلة أبداً. آه لهذا الغبي! إذا كان يفكر حقاً في أنه يستطيع أن يمضي دون

عقاب أو خسائر أو دون أن يجن ويفقد ذاكرته. . . إنه حينئذ يكون قد أخطأ خطأً لا يغتفر، ألا ما أغباه: يظن أنه سوف يقوم بدور الفدائي في وقت نلعب فيه الدومينو والداما. ألا يدري بأننا كنا نتعمد الخسارة في اللعب قبل ذهابه حتى لا يتضايق ولا يجافينا وحتى لا يقاطع عريننا هذا، ذلك لأننا كنا مستمسكين به في تلك الفترة الصعبة التي يندر فيها الزوار ولأنه لو ذهب لما كان رفيق في مثل وفائه، يغدو ويروح بين مصانع ديرافور والحانوت، ويهمل أمه التي لا تحتمل، وجيشه من العصافير المجعجعة البشعة النهمة ليحاصرنا ويستفيد من معلوماتنا المدققة ومن استراتيجيتنا الموفقة في لعبة الدومينو. ماذا تراه يظن؟ إنه لم يسمع أبداً عن الأحياء القصديرية لأمثاله من الناس السذج على الدوام. يا للغباء! إنه إنسان ضعيف الشخصية في واقع الأمر. وقد التجأ إلينا لكنه لم يتعلم شيئاً. يا لهذا الحمار! ونحن أيضاً أضعنا وقتنا معه بدلاً من أن نطارد الجرذان التي تثقب الصفائح الشمسية المسحوقة المتعفنة لأنها لم توجه صوب الجنوب منذ عهد بعيد. لقد أضعنا وقتنا بدلاً من أن. . لكنهم، وقد خاب مسعاهم، ينكفئون على اهتماماتهم المفضلة لديهم، أي على توجيه دفة العالم وسط رائحة البهارات وجعجعة الببغاوات وغيرها من اليمامات التي يحاورونها بلغة هي نوع من الشفرة، زاخرة بالتنويعات والأصوات اللطيفة الموجزة. ويستقبلون زوارهم الذين ينضوون فيما بينهم تحت شعار قصيدة منمقة نظمها

ثلاثتهم (أو أربعتهم) ـ ذلك أنه ما من أحد يدري ما إذا كان بائع التوابل متواطئاً معهم في ثياب تاجر جشع أم تاجراً واثقاً كل الوثوق في الطرائق الإشهارية المستحدثة، يستخدمهم كطعم لاجتذاب الزبناء المخادعين ويتحاشون التفاؤل فيما بينهم باللجوء إلى تلقين الفارين دروساً في الصفاء الذهني القاطع الذي لا يشوبه أي خلل ويتجاوزون همومهم المفتوحة على مستقبل البلاد مثل جرح فاغر لا يريد أن يلتئم بل يزداد انفتاحاً.

وكان جيران مسعودة يرفعون عقيرتهم بالشكاوى كلما فاجأوها تحت شجرة الزعرور. لقد أرادوا منها أن تذهب لتكون شاهداً على اندثار هذه العقدة المستعصية في مخيلة قاضي التحقيق، ذلك القاضي الذي لم يعد له ما يقوله فجعل ينطفىء في نهاية كل حديث معه ويتذبذب بين الصمت الغريب والاتهام المشبوه المتعلق بالمواهب المكيافيلية والتنبؤية والاستشرافية والساخرة لدى المتهم. أما موت الباشاغا فكان على العكس من ذلك كله يشغل في الخيال المجنح لدى سكان الأكواخ القصديرية العنابية نفس الامتداد الرهيب لصحراء الهقار المزججة. وقد تطلب الأمر أياماً كاملة قبل أن يقتنعوا بموته باستثناء العجوز مسعودة التي سبق لها أن توقعت مثل ذلك الحدث قبل أن تفتح باب بطنها لتقذف بابنها في دورة الأيام، ذلك الابن الذي أتى هذا العمل البطولي. وعلى الرغم من أنهم كانوا فخورين بما أقدم عليه جارهم إلا أنهم أمضوا وقتاً غير

قصير قبل أن يتركوا الخائن الذي أعدم في ملعب كولومب يموت في أذهانهم. وهكذا أمضى الرجل أياماً طويلة ليموت فيها ميتته ويلون جسده بخضرة الهدوء بعد وفاته بوقت طويل. وما كان لهذه الغرابة أن تفصح عن نفسها إلا لسبب بسيط وهو أنه ما استطاع واحد منهم أن يتخيل الباشاغا غارقاً في بركة من دمه. وليس ذلك إلا لأن الصحف التي تحدثت عنه كانت تنشر صوره وتمثله حياً مبتسماً على قدم وساق أو على متن جواد، مثقلاً بجميع أوسمته الفرنسية. ولهذا السبب بالذات لم يتمكن أحد من أن يتخيل هذا الشخص الذي يفرض نفسه فرضاً، وصاحب النظرة الشزراء التي ترعبهم حتى في نومهم، في شكل جثة وقد غزته ديدان الموت، وتوقف نخاعه عن السريان داخل عظامه. ومع ذلك فقد ظل الباشاغا يهوم داخل عقولهم وبين كبريات العائلات الإقطاعية التي تعلقت بالمحتلين ولم تعقد المصاهرات إلا مع رؤساء القبائل الأخرى التي لا تقل نذالة عنها. وكان هؤلاء حين يختارون الخدمة العسكرية كثيراً ما يعودون برتبهم التي تعطى لهم على سبيل المجاملة وبشقراوات ألزاسيات سمجات، منفوخات لا يتحدثن الفرنسية إطلاقاً وينتهي بهن الأمر إلى تحويلهم إلى المسيحية وإلى تعميدهم في سن يتلقى فيها حتى الكفرة مسحة التبرك. لكن مسعودة لم تنزعج كثيراً لموت ذلك الشخص الذي قد يكون سبباً في إعدام ابنها. وعندما أقعدها الألم في فراشها قالت: «ما كان لِلَّهِ أن يفعل بي ما

فعل. فليس لدي ابن سواه». لكن جاراتها يتضايقن من كلامها هذا، ويسارعن إليها كلما لفت نفسها ببطانيات اليأس لأنهن كن ولودات ولهن جيوش من الأطفال دون أن يدرين ما يصنعن بهم بعد الفطام، وعندما تنتهي مسعودة من إفراغ ضغينتها التي تبلغ الذروة باقتراب صدور الحكم تجهد نفسها في الإفصاح عن حسرتها ملاحظة أنها أثقلت على تلك النسوة المسكينات بسخريتها وتلميحاتها اللاذعة. لكن جو الشك الذي نسج نوعاً من الضباب حول الحي القصديري الهائل أبرز كل فعلة وكل حركة وكل كلمة سواء أكانت مهموسة أم قيلت علناً. وكانت تلك الأخبار عن الوضعية السائدة في الحي وفي محيط والدته بوجه أخص تملأ صدره بنوع من السوداوية التي تستبد به في العشيات التي قضاها داخل قفص الإتهام طوال المحاكمة التي لم تدم في واقع الأمر إلا أسبوعاً واحداً. وكان هذا العنصر الجديد الذي يدفعه إلى التفكير بأن مزاج أمه بدأ يتجهم يقحم بينه وبين الأشياء، وبين ظروف محاكمته مسافات يصعب عليه سدها حتى وإن هو اهتم بين الفينة والأخرى بما يدور في تلك الجَعْجَعَةِ الكبرى التي أدلى خلالها فيلسوف كبير شديد الحول بشهادته في صالحه بالإضافة إلى تلك العجوز صاحبة كشك الصحف. وهي عجوز أضحكته لأنها لم تتوقف عن نسيجها أثناء إدلائها بشهادتها كأنما اشترطت لحضورها ذاك حق مواصلة النسج أثناء الحديث. ثم شهادة فتى فرنسي خجول أقلق رئيس المحكمة حين

أعلن أنه يحس بعلاقة أخوة مع هذا الرجل الذي التقى به صدفة في مخيم للكشافة حول بحيرة «كونستانس». وقد جاء أشخاص عديدون ليقذفوا بشهاداتهم، ضده، ومن بينهم، بطبيعة الحال، ذلك السائق الروسي الأبيض الذي قاده إلى ملعب كولومب. وكاد ينفجر ضحكاً حين رآهم يتململون أكثر من مراوح عنابة عند اشتداد القيظ، ويرسلون الكلام على عواهنه، ويسيرون في الاتجاه المعاكس للتاريخ. وحين جيء بضحايا عملية مقهى «ميلك بار» التي وقعت في الجزائر، وهم على ظهور كراسيهم الصغيرة، رغب في أن يروي لهم كيف أن العساكر قطعوا رؤوس الأطفال الذين حملوا أقفاص الكناريا، وهي طيور قد لا تعرف أصول اللياقة، لكنها مسالمة حتى وإن تقاطر منها الماء الممزوج بالبول. لكنه تمالك نفسه وأغمض عينيه حتى لا يفكر في كوابيس أخرى. ولم يغتفر لنفسه حين فكر بأن أمه الضحوك المرحة قد صارت حادة المزاج بسببه هو. وقد روح عن نفسه كثيراً حين راح وكيل الجمهورية الذي طالب بإعدامه، يخبط خبط عشواء عند حديثه عن «سليمان»، ذلك الشخص الخيالي الذي لم يوجد أبداً. ولعل الجلاد شعر بالخيبة حين علم بواسطة الإذاعة أن المسؤول عن عملية كولومب قد حكم عليه بالسجن المؤبد. وصفق نصف من كانوا في القاعة في حين أن النصف الآخر منهم أرسلوا صفير الاحتجاج. وعانقه محاميه، لكنه، هو، شعر بالخيبة في قرارة نفسه. لقد استطاع أن يصمد خمسة أسابيع في

زنزانته ويعيش حياة هادئة صافية، لكنه سوف يتقوقع على نفسه طوال سنوات، ومن ثم فهو يتساءل ما إذا كان سيصمد أم لا. على أنه سر كل السرور حين فكر في أمه وقال بأنها سوف تستعيد مرحها ومزاجها الطيب.

وفي يوم الأحد التالي حدث للسجين الجديد ما يحدث عادة لطالب في الثانوية من عقوبة المنع والحجر عندما يثير صخباً في عنبر النوم. ومر ذلك اليوم مثل عقدة ملتوية تساير تعاريج السأم المفرغ في أعماق الناقوس الزجاجي الذي آل إليه جسده. وكان النهار حاراً وشمس جويليه تلفح السقوف بالأشعة ما دون الحمراء. وأغفى ساعة القيلولة وهو يشعر بأن طيور كناريا غريبة تحط على أطراف نومه النهاري ذاك. وأفاق وجبهته تتنضد عرقاً، وفكر في بول الطيور التي اصطادها ذات يوم وباعها غيلة للأجانب الساكنين في دور فخمة في الضفة الأخرى من نهر السيبوس. وفتح عليه باب زنزانته حارس أنتيلي جديد ذو مظهر عطوف ليرافقه في جولة العصر. قال له إنه سعيد بالتعرف عليه وإنه فخور بمصافحته ومستعد لكي يقدم له جميع الخدمات باستثناء مساعدته على الفرار، وذلك بسبب عائلته العديدة الأفراد التي تركها في الجانب الآخر من المحيط الأطلسي. وخيل إليه أنه يعاود الإنصات إلى شروح العمال الذين تمنعوا في البداية وتهربوا من دفع الاشتراكات للمنظمة وتذرعوا بكل الحجج الواهية. على أنه أراد السخرية منه فقال له بأنه مستعد لكي يوقع له على

صورته كهدية لابنه الأكبر الذي بقي هنالك. لكن السجين الجديد شعر بالاعتزاز في حقيقة الأمر حين فكر بأن اسمه وما قام به من أعمال بطولية لن تنحصر في هذا البلد، بل سوف تنتقل إلى قارة هي أكبر من تواضعه ذاك. ومن ثم فإنه قرر أن يتحايل على الحارس الأنتيلي الجديد ويتحدث إليه عن مشكل استقلال جزر الكارائيب. وبقي في نفس الوقت على حذره متسائلاً ما إذا لم يكن جاسوساً أقحمته إدارة السجن لكي ينتزع منه ما عجزت شرطة كولومب وقاضي قصر العدالة ومحاميه بالذات عن أن ينتزعوه منه. وصمد في موقفه ذاك إلى يوم الأحد التالي. وشعر خلال ذلك أن أيام الله في العرف المسيحي فارغة كل الفراغ وهو يتخيلها في شكل وعاء يتجمع فيه سأم الأسبوع كله ويفيض عن آخره في فجر تلك الأيام التي تصير فيها الأشياء الثابتة أكثر امتصاصاً مما هي عليه كأنما هي مادة إسفنجية لم تعد تقوى على ابتلاع ما كان يعتبره، هو، سائلاً لزجاً صفيقاً يكاد يكون صلباً في نفس الوقت. وفي ذلك اليوم بالذات، اختبر الحارس الأنتيلي. طلب منه أن يشتري له قفصاً حديدياً تونسياً من تلك الأقفاص التي يبيعها اليهود المشارقة في بعض الحوانيت بنهج «روزيي». وفي اليوم التالي كان القفص بين يديه. علقه إلى قضيب من قضبان النافذة وجعل يتأمله صابراً مصابراً إلى أن يحين يوم الأحد القادم. كان في مقدوره أن يخفض من الفرج بين الأيام لكنه سار في ذلك حذو ما سار فيه بشأن السجائر عندما

كان حراً طليقاً. فقد فرض على نفسه حينها انضباطاً لم يكن يعمل في ذهنه إلّا على تقليص الزمن. وفي يوم الأحد التالي طلب من صاحبه الأنتيلي شراء ببغاءين، أحدهما ذكر وثانيهما أنثى. وفوجىء غداة اليوم التالي برؤية طائرين يضربان بأجنحتهما فوق صينيته التي وضع عليها طعامه الموبوء. وراح الحارس المتواطىء يضحك إلى أن سالت الدموع من عينيه. فله الآن ما يعتز به. كان للبغاءين ألوان لم تخطر بباله أبداً نتيجة لتآلف الإشراقات اللونية المتباعدة فيما بينها. ثم إنه إلى جانب ذلك انشده كل الانشداه أمام توزع الأصباغ على جسدي ذينك الطائرين، وهو الأمر الذي منح نشوته تلك سبباً لا يمكن التشكيك فيه ولا علاقة له بالذاتية المحضة في مجموع الحتميات التي تشكله وتنسجه وتنظمه. لم يسأل صديقه لماذا لم يأت بطعام الطائرين المصابين بداء الثرثرة، هذا الداء الذي يبعثه على النشوة التي كبتها زمناً طويلاً، وإن كان قد تردد دائماً وأبداً في أن يضفي صفة الصديق على ذلك الشخص نتيجة لما تنطوي عليه هذه الكلمة من معانٍ وعواقب. وقرر أن يصبر إلى الأحد المقبل. وفي انتظار ذلك منح الببغاءين حصته من الخبز التي لا تكاد تشبع جوعهما الشديد لكثرة ما يطلقان العنان لجعجعتهما الخارقة المستديمة، لأنهما أضاعا ذلك الموئل الطبيعي المتمثل في النهار والليل بسبب النور الكابي المتدلي من سقف الزنزانة. واصطلح الببغاءان على التناوب بينهما في وقت النوم، واستطاع بذلك أن يعيش في

سعادة تامة لا سيما وأن المهلة الممتدة إلى غاية الأحد القادم تريح باله خاصة وأن الأيام راحت بفضل تلك الحيلة تتناهش وتتصادم وتتواتر بسرعة مذهلة. وخاب مسعاه يوم الأحد التالي حين أبصر بالحارس الأنتيلي يسلم له من خلال ثقب الباب كيسين صغيرين من البلاستيك مليئين بالذرة البيضاء، ويبقى وراء الباب الثقيل المصفح منتظراً ردود الفعل لدى السجين. صاح فيه من الداخل: «أيها القذر! إنك تحرمني من رغبتي.. لن أطلب منك شيئاً بعد اليوم. لدي مقدار شهر كامل من الطعام». وفي تلك اللحظة بالذات دخل عليه الحارس الزنجي ساخراً مرحاً وقبعته في يده: «اسمع يا أخي الصغير، لقد نسيت بأنك قد تحتاج إلى أدوية لهذين الطائرين وإلى طاستين من الماء! وعندما تكون قد استنفدت كل ما هو ضروري لتربية الببغاءين سوف تتوافر حينها على فرصة من الفرص لفك قضبان قفصك وصنع آخر أجمل منه وأروع». حينها غمره سرور جارف واحتضن حارسه لأول مرة، وتبادلا التهاني ووقعا على حلف فيما بينهما. ولم يبق له ساعتها إلا أن يخشى ذلك اليوم الذي يستبدل فيه الحارس الأنتيلي بحارس كورسيكي أو فرنسي مزكوم مكبود. وكان الببغاءان يتسببان في خسائر، ويقلبان الزمن الذي يخصصه لهما ويطلق سراحهما خلال ساعات طويلة في الزنزانة وعندما يشتد صخبهما يعيدهما إلى قفصهما التونسي. وما كان ذلك يحدث دون مطاردات جنونية تشغله ساعات كاملة وتسمح

للحارس الأنتيلي بالدخول إلى زنزانته وبالإغلاق على نفسه فيها إلى أن يتنضدا عرقاً وتثور ثائرتهما وينطرحان من التعب ويجلسان بعدها معاً على الأرض ويدخنان نفس السيجارة. وفي تلك اللحظة بالذات، لحظة إعادة الببغاءين إلى القفص وانطلاق جعجعتهما كدليل على السخط يقول الجزائري للأنتيلي: «اسمع يا نرسيس! متى ستفعل مثلي وتأتي لتحتل مكاني؟» وتضطرب عينا الآخر وينظر إليه نظرات متثاقلة. ويخلد إلى الصمت خجلاً لبضع دقائق. وينتهز ستالين الفرصة لكي يلقي عليه بملاحظة أخرى قاسية: «دعني من حكاية العائلة العديدة الأفراد لأنني، أنا، وحيد أمي! هيا، أجبني، هل سمعت عن جزيرة كبيرة زاخرة بالنباتات المطاطية فائقة الخضرة، نحاسية الأطراف، مقذوفة في عرض الكارائيب؟ وهل سمعت عما يعمله بها عدد كبير من أصحاب اللحى؟».

11

تولوز: 5 ـ أنجي: 3

وذات يوم وهو منهمك في قضبان القفص، جاءه «نرسيس» ليخبره بأن ثورياً جزائرياً يحمل اسماً مستعاراً هو «سليمان الزدمة» قد وصل لتوه إلى حي الحراسة المشددة. لم يسبق له أن سمع به، لكنه قال في ذات نفسه بأن قاضي التحقيق المختص في قضايا المناضلين الجزائريين يفرك يديه جذلاً الآن لأنه اهتدى أخيراً إلى هذا «السليمان» الذي لم يعثر له على أثر لسبب بسيط وهو أنه ابتدعه ابتداعاً. وكتب له على الفور رسالة سلمها للحارس الأنتيلي الذي صار يثق فيه ثقة تامة. على أن اسمه المستعار أقلق باله بوضوحه وغموضه في نفس الوقت، وما أسرع ما وضعه موضع التقدير. وجرى التراسل بينهما في أحسن الأحوال. لكن سليمان الزدمة كان أقل حظاً منه. فقد حوكم وصدر في حقه حكم بالإعدام ونفذ فيه في الساحة الصغيرة المنظمة خصيصاً لمثل تلك الأعمال. وقد أمضى نرسيس يومه ذاك في زنزانة ستالين. فقد سواده ولفظ أحشاءه وبكى، فحاول ستالين تهدئته. خشي أن يهجر وظيفته تلك ويتركه فريسة

سائغة لنكاية الببغاءين وانتصارات الرياضي الأتروسكي.
لكن الببغاءين أعلنا الحداد معاً وأسقطا ستاراً أسود على قفصهما. وما أن طلع نهار اليوم التالي حتى راح «نرسيس» يتسقط الأخبار. وعلم أن سليمان الزدمة مات بكل شجاعة. لكن حين قال ستالين بأنه لم يكن له من خيار في الأمر، صدم الأنتيلي الذي ثار في وجهه لأول مرة: «كلامك قاسٍ جداً... الخوف شيء طبيعي، وأنت تزعجني بكبريائك هذا». وتركه يتحدث ويتطامن، ثم قال له: «ينبغي أن تفهم هذا الأمر.. أنت ببشرتك وبزتك هذه كحارس في سجن فرنسي.. ألست واعياً بتفاهتك؟ المسألة ليست مسألة كبرياء بل اعتزاز وشرف... سليمان هو الذي أخذ بثأره منهم وليس العكس... من ذا الذي يتخفى وراء القناع في مثل هذه الأحوال.. هيا فكر يا نرسيس!» وما كان الأخير يريد التفكير بل يكرر: «إنك قاس جداً». ثم ذهب وتركه وحيداً. وفي تلك الليلة خاف أن يمتزج مذاق الطعام بمذاق الدم فلم يتعش ولم يغمض عينيه أيضاً. وفي أرقه ذاك وسط صمت الببغاءين المغلقين في السواد أحدث ترابطاً بين جسده الذي صار بالغ الحساسية وبين ذكرى السابع والعشرين من شهر رمضان، وهي الليلة التي كانت تعمد فيها أمه إلى حظيرتها لتذبح ديكاً بضربة واحدة من سكينتها الشديدة المضاء في حين أنه كان يمسك به ويمنعه من التحرك والتخبط. وبدا له خلال تلك السهرة الجنائزية أن يغفو قليلاً، وفي ذلك التراوح بين اليقظة والنوم جعل

يكشف عن اعترافاته لنفسه ويئن ويتقلب في مضجعه ويظن أن جزءاً من جسده مجبول من لحم ودم، في حين أن الجزء الآخر مقدود من برونز مماثل لذلك الذي صب فيه التمثال الأتروسكي. وما انفك عن تجميع توتراته تلك ثم إن ذلك الإبهام النابع من جسده بالذات راح يعذبه أشد العذاب. لقد علم خلال مراسلاته السرية مع سليمان الزدمة التي شجعها ذلك الزنجي ورعى بذرتها مثل ساحر أفريقي تقنع بأزياء الحضارة البيضاء أن سليمان هذا لا أم له وأنه ينطوي على فكرة انتحارية لمفهوم الإرهاب، وهذا ما يفسر اسمه المستعار، لكن توتره ذاك جعله يعتقد أن موجات كهربائية صائتة تتخلل جسده كأن البقع المرتبطة بالدم المتدفق من تلك الساحة الرهيبة تنطبع في أحشائه وتنحتها نحتاً وتضفي عليها صفحة من الملح المبلور الذي كانت الشعوب الهمجية تستعمله في الأزمنة القديمة لا لرفع مذاق الأطعمة بل لذره على جروح الضحايا. ووجد نفسه مضطراً إلى أن يستسلم للمفاجأة التي قد يحدثها تنفيذ حكم الإعدام حتى وإن كان هو بالذات ينتظر هذا التنفيذ، وألا يركن إلى الأسى والشجن في حالة ما إذا حكم عليه بالإعدام، لأن له إحساساً مبهماً غامضاً بأن مثل ذلك الموقف خليق بأن يثير ثائرة سليمان الزدمة فيما لو بقي حياً. على أن صخب الدم وهو يمتزج بأطراف النعاس والغيبوبة بدا وكأنه يتنصل أو يذوب في عظمة الأجساد المهشمة، المفصولة الرؤوس المستثارة، التي تهيج كل

الهيجان وهي ترى جبن أولئك الذين يتحكمون في المقادير السياسية داخل مكاتبهم الوثيرة المبطنة بالقطن والعناد، الذي يعمي بصيرتهم المخلخلة، المثقوبة، ويتصرفون على هواهم ويقمعون قارات بأكملها من القارات التي تزودهم بالتوابل والحمضيات والمعادن، والطاقات البشرية في حين أن مداس التاريخ الذي بدأ يعيد ذاكرتهم ويبسطها بسطاً ويدهسها قد ينشرخ انشراخاً إن هو توقف ذات يوم عن الشغل. حينئذ عاوده الإحساس بذلك الخليط ما بين الذوق والشم والمس نتيجة لتجاور وتصارع تلك الأجساد الواقعة تحت رحمة الليل والتي لم تتوصل إلى أن تجد موئلاً لها في مغاراتها الراشحة باللون الأحمر وبعفن التبول الذي تصاعد مع الإشاعات وسرى في جميع أطراف السجن بمجرد الإعلان عن تنفيذ حكم الإعدام في سليمان. وكان هو قد حدس بوجوده لا عن طريق الصدفة الهشة المشكوك فيها، بل بسبب شدة خوفه الذي سكن أحشاءه دائماً وأبداً وإن كان خوفاً استطاع أن يصرفه ويطوعه ويخفيه في سراديبه المنذهلة التي لا يدركها أحد. والواقع أن المسألة لم تعد أن تكون نوعاً من الشفافية الواضحة التي لا علاقة لها بالخوارق والتي يشعر بها كنوع من اللمس اللاملموس بل وكأنما هي تكاد تكون مرئية أو على الأصح مصورة. لكنه رفض أن يطلق عليها تسمية الخوف لأنه ربطها في وعيه المبهم بقوة جنسية لامتناهية خاضعة كامنة، تحفزها ذكرى علاقة حب عندما كانت سيلين/ آلين تفتح دونه مغارة

الطفولة التي أخفتها بين فخذيها والتي حدس بوجودها من روائح النسوة الأوروبيات اللواتي كان يبيع لهن أجمل الطيور في الضفة الأخرى من نهر السيبوس أو في شقة الآنسة «بيريتي» عندما تجرأ ذات يوم ودق عليها الجرس بقبعته الوقحة حاملاً إليها وروداً يانعة وقلباً من الحرير.
وكانت هناك أيضاً ذكرى الأشياء المستحيلة التي لمسها وراحت تتشكل كيفما اتفق في ذهنه عبر الأجساد المرضوضة وفي الفناء الموشوش المخادع المليء بالأشباح (فما انفك الباشاغا عن مداهمته بمؤاخذاته الصميمية) المنسربة عبر الجدران العتيقة لجميع سجون العالم التي وضعت فيها مفاصل لم تتوقف عن الاشتغال أبداً. كان في حاجة إلى أن يغرق في عتمات الأرق الزلقة ويغطس في أحواض الشك والإبهام ويترك على أطرافها صفاءه الذهني وصحوه ووعيه الواضح بجميع الظواهر التي تنظم عناصرها حوله. وهكذا وجد نفسه مضطراً إلى الدخول في لعبة الصعود والهبوط المتكررة التي أمكن له تجزئتها برسم أيام الحداد وأيام الصمت والعبث، تلكم الأيام التي تقذف بالببغاءين تحت وطأة الأسى وبتحديد حلقات الانتظار العقيم لا لكي يطلق سراحه بل ليستقبل فجراً مفتوحاً دون حركات الجلادين المثابرين المدققين البتارين، لكن ذلك الانتظار المبهم وحاجاته الشخصية القليلة داخل الزنزانة من علبة الثياب وقفص الببغاءين وصورة الرياضي الأتروسكي صاحب القدمين المجنحتين راحت كلها تثقل عليه كأنما هي

تجسيد لخيانة لا تحتمل، خيانة فاحشة وقحة، وما ذلك إلا لأن تلك الحاجات كلها بدت له في شكل معالم لا يمكن تشريحها ولا تسريحها عن حظوظه العفنة التي توافرت له لإنقاذ حياته في حين أن العديد من الناس الآخرين بذلوا كل ما في وسعهم وفشلوا في الحصول على مثل تلك الحظوظ. وكان من بينهم سليمان الزدمة بطبيعة الحال، لكنه علم أن بعضاً من رفقة السلاح قد استسلموا للخوف وصاحوا وأرغوا وأزبدوا وبالوا في سراويلهم حين جاء الخدمة لاقتيادهم نحو الآلة البراقة المسندة إلى حائط معشوشب شبيه بحيطان الريف الهادىء. ذلك أن الأمر الباعث على السخرية القاتلة هو أن العشب الكثيف إنما ينبت بين حجارة هذا النوع من الساحات. وما أن تقع عيناه على حاجاته الشخصية حتى يشعر بالرغبة في العواء مثل ذئب مروض مستأنس. وينتابه ألم داخلي كأن إبراً حديدية تنتزع انتزاعاً من جسده بعد أن يكون قد صالبها ونسجها (صورة ملحة للعجوز الغازلة صاحبة كشك الصحف بملعب كولومب) حلقات حلقات كأنما ليجعل منها صفيحة تنظف ذاتها بذاتها أو ماسحة زجاج حديدية لا تكف عن الاهتزاز بدقة مترونومية لتمسح الدموع والدم والوحل الذي ترسب رغماً عنه على زجاج وجوده هو، هذا الزجاج الذي صار قذراً بفعل تراكم العديد من الزبالات والقذارات التي يقتات منها التاريخ في مسيرته حتى يكتمل غاية الاكتمال. ووقع في روعه أثناء الصباح أنه يعبر الوجود البشري بأكمله

زاحفاً على بطنه لكي ينتهي به المطاف إلى العتمة العذبة الموسومة التي تسود أماكن طفولته، هذه الطفولة التي ابتلعها النعاس بامتداداته ومطرحه الرخيص الذي كان مستلقياً عليه.

بعد الهدف الذي سجله «دي لوريتو» بتمريرة من بوشوك الذي فجر مرمى «فراجاسي» (لقد فكر خلال هذيانه ذاك كسجين يحظى بتشجيعات الأنتيلي صاحب الخيال الفياض في إعادة بناء قفص الببغاءين في شكل مرميين كرويين يجمع فيما بينهما باللصاق الوارد من صيدلية السجن بفضل فتاة مساعدة إسبانية) في الدقيقة الخامسة والثمانين، أدرك أنه بدأ يقطع المسافة الأخيرة، الدقائق الخمس والأخيرة التي تفضي به حقاً إلى ما هو مقدم عليه أو إلى فشله، وهذا بالضبط ما جعله أكثر عصبية بمرور الدقائق، قال لنفسه: «ثم ماذا لو أنا صوبت النار من هنا؟ من الجنون أن أفعل ذلك، فقد أصيب متفرجاً مسكيناً، مناصراً لقضيتنا أو إنساناً آخر لا أهمية له.. كلا.. كلا.. ينبغي أن أنتظر حتى أستطيع الاقتراب منه.. ربما عند الخروج... سوف يذهبون دون شك قبل أن يغزو المتفرجون الشبابيك ويسدوا الممر على الموكب الرسمي الذي يشكل هذا البغل جزءاً منه. لديه عدد من السيارات السرية وعدد من الحراس الذين يحتقرونه ولا شك، ويسخرون منه لأنه ما من أحد يتعاطف مع الخونة... هذا شيء فطري، أليس كذلك؟ هم

أيضاً أعدموا خونتهم وقطعوا رؤوس المتعاونين وجزوا شعر النسوة اللواتي وقعن في حبائل الضباط الآريين الوسيمين.. أولم يكن يعلم حينها أنه سيتسبب في غضب نازي عجوز باحتلال زنزانته وبحرمانه من مجاله الذي صار مألوفاً لديه حتى أنه قد يرفض مغادرته لو عفوا عنه ذات يوم.

خمس دقائق باعثة على السأم والضجر. المتفرجون يبلغون ذروة الهيجان، وأرضية الملعب واقعة تحت وطأة الصخب البنفسجي (الأزرق الأبيض) للاعبين التولوزيين الذين يتركون الفارق يتقلص بينهم وبين فريق أنجي مرة ثانية بعد الهدف الذي سجله «بوشي» ضد مرماه في الدقيقة الثالثة والثمانين، وهو الهدف الذي انتقم له بوشوك المندفع حين مكن «دي لوريتو» اللاعب الأرجنتيني من تسجيل الهدف الخامس لصالح فريق تولوز قبل خمس دقائق من انتهاء المدة القانونية للمقابلة. أي في الدقيقة الخامسة والثمانين من المقابلة. معلق الراديو الذي ازداد صوته بحة أكثر من ذي قبل يتوفز أكثر فأكثر عبر الترانزستور الذي ألصقه جاره بأذنيه اليسرى فاليمنى بالتناوب لأنه يريد إراحة أعضائه في حين أن يده هو قد تنملت أكثر فأكثر حتى شعر بالألم، لكنه لا يحيد بناظريه عن المنصة الرسمية ولا ينسى أيضاً أن جاريه قد استبدلا مكانهما بعد بداية الشوط الثاني. هذا الإنزلاق المكاني مشكوك فيه وغير مأمون في نظره لكنه يرفض أن يوليه أهمية كبيرة. عين مصوبة نحو

أرضية الملعب وأخرى مسمرة في المنصة، وصوت المعلق منجرف مع وتيرة المقابلة الخارقة ومع هستيريته بالذات...

اللعب مفتوح جداً. فريق تولوز يمتلك الكرة ويهاجم. «ريتكونين» يخادع «هناتو»، لكن هذا الأخير يعاود الهجوم عليه ويفتك الكرة منه. حذار من الهجوم المضاد! «هناتو» لا يكاد يصدق عينيه. يبدو وكأن له جناحين يقتحم بهما وسط الملعب. لقد انقلبت اللعبة. هناتو يجري دائماً.. الطريق مفتوحة أمامه ذلك أن المدافعين التولوزيين أنفسهم مستقرون في معسكر خصومهم، وقد أسقط في أيديهم باستثناء «نونجسر» الذي بقي في موقف المتراجع. «هناتو» يصل إلى حدود العشرين متراً من مرمى تولوز، يتبعه «بوريجولت» الظهير الأيمن لفريق أنجي. تمريرة إلى الخلف من «هناتو» إلى زميله، ويقذف «بوريجولت» من مسافة عشرين متراً من اندفاعته تلك صوب حارس المرمى «روسيل» غير أن ظهر «نونجسر» جدار متين. الكرة تفز ثانية على ظهر المدافع التولوزي. «روسيل» لا يقوى على إيقافها.. لكن، كلا! إنها تتقوس بكل غباوة.. والحقيقة هي أن نونجسر هو الذي يسجل ضد مرماه. نحن في الدقيقة الثامنة والثمانين، أمر خارق حقاً! سوء الحظ يطارد فريق تولوز الذي قد يكون مخطئاً بممارسة مثل هذا اللعب المفتوح الواثق من نفسه. إذن! هدف من بوريجولت ونونجسر إن صح التعبير! ذلك أن قذفة اللاعب رقم 6 من

فريق أنجي قوية جداً، ولولا المساعدة، كدت أقول لولا تواطؤ نونجسر غير المتعمد، لكان روسيل استطاع إيقاف الكرة بكل يسر ذلك إنه كان في موقع جيد. لقد ارتكب فريق تولوز خطأً كبيراً بسبب دفاعه المتسيب نوعاً ما فيما أظن، وها هو فريق آنجي يكاد يلحق به في حين أنه لم يبقَ سوى دقيقتين من المقابلة.

تولوز: 5 ـ أنجي: 3

لحظات من التذبذب في فريق تولوز. روسيل يحتج لدى قائد فريقه، المدافع بليملدنغ. وحق له أن يحتج. الكرة في قلب الملعب. دي لوريتو الرائع يستأنف اللعب مع إبراهيمي وبوشوك. وهم ثلاثتهم جديرون بأن يكونوا في رأس قائمة أحسن اللاعبين خلال هذا الموسم. هجمة تولوز خاطفة. إنه مسار موجز وواضح، وتلاميذ «جول بيجو» يخلفون الانطباع بأنهم يريدون الانتقام من سوء الحظ الذي طاردهم. قد أضاعوا هدفين سجلا ضد مرماهم. الأول في الدقيقة الثالثة والثمانين بسبب خطأ من بوشي والثاني في الدقيقة الثامنة والثمانين بسبب غلطة من نونجسر. الكرة الآن في مساحة الأمتار الثمانية عشر من معسكر أنجي. غير أن «سابروجليا» يقذفها برأسه فتنطلق في الفضاء ثم تعود بين قدمي إبراهيمي الذي تراجع في الوقت المناسب. إنه في قلب الملعب. ينطلق بقوة خارقة. ويتقدم

بمفرده هل سيحقق المعجزة مع أننا في الدقيقة التاسعة والثمانين؟ إنه لا يفكر إلا في الثأر، ويجري بسرعة مذهلة. . .

وتترقق السطور أثناء جلوسه إلى طاولته الصغيرة وانشغاله بكتابة رسالة إلى والدته بعد أن يكون قد مسح يأسه عند الإعلان عن تنفيذ حكم الإعدام في حق سليمان الهجمة. أما المداد، هذا الطفل المعروك المتمدد في عتمات تضاعيفه المضطربة، فيخط أشكال صمته (لم يعد يتوافر على الشجاعة الكافية لاستمالة صاحبه الأنتيلي) ويتمفصل هو داخل الكتابة نفسها ويفقد رشده. ها هو يحرر رسالة طويلة، لأن الفرصة لم تسنح له منذ مدة طويلة بل إنه لم يشعر بالحاجة إلى إخبار والدته بأحواله (والآخر، هذا «البليملدنغ» يتجرأ بالحديث عن والدته، ويتغابى، ويعود إلى طفولته، ويقول للصحفيين الرياضيين أنه يريد نيل الكأس لكي يهديها، ولو رمزياً، إلى والدته في عيد الأمهات الذي يصادف هذا اليوم بالذات أي 26 ماي، أو يوماً من أيام الأسبوع الماضي أو حتى من الأسبوع المقبل وفقاً لما تقرره لجنة التجار أو بعض نقابات الأعمال) فقد كان منشغلاً بمراسلاته مع سليمان الزدمة، ذلك الشخص الذي تخيله وهو ينظم عملياته بطريقة علمية ويجمع أفراد فرقته من الفدائيين في اللحظات الأخيرة، وفي مكان يجهلونه تبعاً لما تقتضيه متطلبات العمل السري، ويرسم رسوماً مصغرة على لوحة سوداء صغيرة أو على الأرض

بقطعة من الطبشور الأبيض ويخط خطوطاً وسهاماً ومقاطع ومحاور، ويجسد كل شخص من الأشخاص في مكانه المحدد وموقعه المضبوط، لأنه لا يريد أن يترك شيئاً من الأشياء تحت رحمة الصدفة. وفي الوقت الذي يقوم فيه بالهجوم، يضع جميع حظوظ النجاح إلى جانبه، لأنه يكون قد خطط لكل شيء ونظمه ودرسه في أدق تفاصيله التي قد تبدو للوهلة الأولى تافهة، لا جدوى منها. وبهذه الطريقة، يجعل من إمكانية الفشل أمراً مستحيلاً، أو على الأصح، غير محتمل، ويتجنب كل ارتجال وكل شكل من أشكال التهور، بل ويذهب إلى حد تشخيص تنقلات الفدائيين المعنيين أو أولئك الذين سيجدون أنفسهم بالضرورة في أماكن العملية الفدائية، أو يقومون باختطاف شخص من الأشخاص أو يهجمون على بنك من البنوك إلى حد أن رجاله المنشغلين بالاستماع إليه يجمعون كلهم على أن رئيسهم هذا يعيش حقاً وصدقاً المشهد الممسرح إلى أبعد الحدود بسبب تراكم التفاصيل، وبسبب ذلك الهوس بالدقة والإيجاز في نفس الوقت، هذا الهوس الذي يتحول عن آخره وينضغط بطريقة رياضية لتفادي ما يسمى بالصخب المصطنع في الرياضيات وبالطفيليات في علم الفيزياء وبالخسائر في علم الإحصاء. لكن سليمان الزدمة كان يفيض قوة وحماساً وعزماً حتى أنه يخلف انطباعاً بأنه عاش هذه العملية أو تلك في ذاكرته أو في عام آخر أو في مكان آخر لشدة ما كان يغرق جسداً وروحاً في العملية التي

تبدو له في تلك اللحظة أمراً بديهياً بتتابعها وبتركزها. وهو الأمر الذي يسمح له بتنفيذ العملية بسرعة البرق وبدقة العالم الرياضي وبالنظافة المطلوبة في العمليات الجراحية الضرورية لمثل هذا النوع من العمليات التي لا تحتمل أدنى عثرة أو خطأ. كان هو يستعيد في مخيلته صورة تلك الآلة المتحركة، مستنداً في ذلك إلى رسائل سليمان التي تنتقل إليه داخل أحذية الأنتيلي ويتصورها وهي تسحق، في آن واحد، منفذيها وضحاياها في كل مرة، إلى أن ألقي القبض عليه ذات يوم وهو منشغل بمسألة لا قيمة لها. وهكذا يتواتر شريط العمليات المنطبعة على صفحة مخه الذي صار أكثر حساسية، ومن ثم أكثر قابلية للتأثر. وكان سليمان الزدمة قد روى قبيل صدور الحكم الذي قاده إلى المقصلة كيف عاش عملية نظمها في فندق فخم، فندق من الفنادق التي تبدو وكأنها سفن تائهة، في قلب المدينة. وقد نزل بذلك الفندق سياسي معروف لا يتورع عن استخدام العنف في الوقوف ضد استقلال الجزائر. تفاصيل تلك العملية تتواتر الآن على ذهنه، لكنه لا يريد سردها على والدته التي انتهى بها الأمر إلى مغادرة شجرة الزعرور بأمر منه، وعادت إلى فلاحة حديقتها الصغيرة ذات الأمتار الثلاثة، وتربية دجاجاتها الأربع الشرسات، والاعتناء بطيور الكناريا التي أهداها الجيران لها احتفاءً بالإعلان عن الحكم الذي جنب وحيدها ضربة المقصلة. تفاصيل دقيقة. قطع رقيقة. ترسبات عميقة، وبينما يقرر إعادة قراءة الرسائل التي بعثها

إليه سليمان الزدمة بانتظام، يجيئه الآخر مضبب العينين، ويتعين عليه حينها أن يخفف عنه. وبمجرد ذهابه، يعاود قراءة الرسائل. كان سليمان قد رسم له هندسة الفندق بدقة مذهلة وحدد أبوابه ونوافذه ومخارج الهروب كلها، وموضع جميع الأشخاص الذين كانوا بداخله بدءاً من البواب ببزته القسطلية وشكل قبعته ورقة تقاطيع وجهه إلخ... ووصف حالته النفسية المضطربة حين تقدم نحوه، وأهمله بطريقة تلقائية، وانزلق إلى الداخل من الباب الدوار، وأغلق على نفسه بسرعة في إحدى خاناته أو خلياته أو أجزائه أو تفريعاته، ذلك الباب المسقف بالزجاج، الدائر حول محور لا مرئي، المصفح بخشب سميك عتيق فخم في شكل عمود حديدي وحلقات حلزونية مغطاة بطبقات من الشحم، مما يسمح لمختلف العناصر التي يتألف منها الباب الدوار بالانزلاق خلسة وفي صمت. وأبصر، بنوع من التخوف، شبح جذعه يرتسم على المربعات الملونة بالأصفر والأحمر القسطلي، وهي ألوان غامقة في مجموعها، فأشاح عنه بنظراته حتى لا يشاهد ذلك القرين الذي يكاد يكون شبحه هو بالذات، لأنه بطريقة عيشه ذاك منذ أن التلحق بالمنظمة لم يعد يعلم كيف يميز جدياً ما بين الواقع والخيال. وفجأة، وجد نفسه في بهو «بالاس» حيث انهالت عليه أضواء لا تحصى من الثريات الهائلة ذات الهياكل الباهرة من الحسك، المتدلية من السقف، والتي فاجأته بحرارتها المنتشرة وأثارت دهشته. ارتاع بعض الارتياع للحظة

خاطفة، ظناً منه أنه وقع في فخ، صوب رجال الشرطة خلاله أضواءً كاشفة عليه، لكنه تمالك نفسه بسرعة، ودخل دهليزاً معتماً أفضى به إلى مكتب الاستقبال الفخم، وهو حامل بين يديه باقة ورد عملاقة، من ورود «الباكارا»، وتقدم نحو القيم على الاستقبال الذي وقف وراء مكتبه، وابتسم له حتى بانت نواجذه حين رآه قادماً بوروده الرائعة في حين أن أذنه كانت ملتصقة بالورق الصقيل الذي يلف تلك الورود، وينطوي على آلة دقاقة رهيبة شديدة الصفر، ترسل طقطقات الموت المحتوم، وتصير تلك الطقطقات كلها غريبة الوقع عندما يختلط نبض قلبه بالصوت الجهنمي الصادر من الآلة المخفية داخل أغلى أنواع الورود في العالم. وأحس فجأة بأن ذلك الموقف الساخر يغزوه غزواً ويحرك في داخله آلة الضحك مثل صفيحة عبثت بها المأساة واللامعقول وكل ما هو هزلي منطرح في أعماق البعد الإنساني. وقلص عضلاته كلها، وجند إرادته لكي يكتب نوبة الضحك التي استبدت بجسده المنتفض انتفاضات لامرئية لأنه احتفظ على صفحة وجهه بقناع المتذلل الذي ينبغي أن ينبسط دائماً وأبداً على وجه كل عميل عربي خاصة عندما يدخل فندقاً بالغ الفخامة. لكن تلك الارتحالات كلها لم تأخذ منه إلا ثواني معدودات. ذلك لأنه سرعان ما وجد نفسه وجهاً لوجه مع القيم على الاستقبال الذي بسط يديه نحوه لتسلم الباقة، وسمر عينيه داخلها بحثاً عن المظروف الذي يتضمن، في مثل هذه

الحال بالذات، اسم المرسل إليه بالإضافة إلى كلمة حب أو عطف أو صداقة أو كلمة ودية بل وحتى كلمة للمناسبة. ووصف له في رسالته كيف أن طفلة لم يسمع خطواتها في تلك اللحظة بالذات رمت بنفسها بين ساقيه وشدت عليهما بكل قوة جسدها الصغير، وأرسلت ضحكة متفتحة: «ورود! ورود!»، وكيف أنه بقي في مكانه وباقة الورود بين يديه، وقد اضطرب كل الاضطراب لظهورها، وقال في نفسه: «كلا، هذا أمر غير ممكن. لا أستطيع أن أفعل هذا.. كلا.. إنها طفلة صغيرة.. إنها بريئة. سوف تكون أول من يدفع الثمن.. كان عليَّ أن أفكر في الأمر..». واستعد للتراجع وتغيير رأيه مهما كانت الذريعة ثم تمالك نفسه. وأبعد الطفلة عنه وسلم باقة الورود في يأس قاتل إلى الصنيع ذي الشعر المزيت. فتناولها هذا ثم انطلق. وعبر هو نفس المسافة التي بدت له هذه المرة أكثر اتساعاً، وجرى نحو الخارج وهو يقول في نفسه: «لقد أرادوا ذلك! لقد بحثوا عنه! ولكن الطفلة الصغيرة..».

لم يستطع كتابة الرسالة. وهو يعلم مع ذلك أن مسعودة تنتظر ساعي البريد بفارغ صبر. يتخيلها في ساحة الكوخ تحلم وهي تحلج الصوف في الظل، في حين أن شمس أغسطس تصقل العارضات المصنوعة من الأسمنت، والقط الذي يعبر هذا المجال المحرق المتأجج بالقصف الشمسي يذهب إلى حد أن يتشمم ظله من شدة الحرارة. ويذرع هذا القط ذلك المجال جيئة وذهاباً، ويعرج ما استطاع إلى ذلك

سبيلاً، ويتخامر أكثر من العادة داخل مربع ضيق حدده بنفسه منذ زمن بعيد برائحة بوله الأصهب، وتحول إلى حلقة مفرغة لا يستطيع التنصل منها على الرغم من تأجج رغبته المبهمة التي لا تنفي به إلا إلى سراديب سوداوية يحاول تجنبها في حين أن الظل يذوب تدريجياً إلى أن يلغي أطراف مساحته تلك. على أنه إذ يتجاوز كارثته تلك ينتهي به الأمر إلى أن يتخلى عن منطقته الجنسية لكي يلتجئ بين قدمي مسعودة الجالسة على الأرض، المشرشة برجليها في شكل مثلث من الصوف المغسول الذي لم يجف بعد. أما مسعودة التي تنشغل بالتفكير في ابنها تغضب من القط الذي جاء يحتك بها وتبعده بشيء من القساوة ليس إلا، حتى لا يغضب ويجفوها طوال أيام كاملة. وحينها لا يبقى للقط إلا أن يسير حذو الحيطان المبلطة بالجير الأزرق الذي يلمعها تماماً مثل الملح حين يثقب الأملاح البلورية حيث تنتفش الألوان وتفسح المجال لكتلة براقة معدنية شبيهة بصفيحة جرداء صنعت سهواً وبارتجال كبير. وسرعان ما يدرك القط أنه لا ينبغي الاقتراب كثيراً من الحيطان التي تتخللها آلاف الشقوق. ويعرف بغريزته وبتجربته أن لا ملجأ له في تلك الساعة من النهار سوى أن يدخل إلى إحدى الغرفتين الضيقتين، وينكفىء على نفسه بعد أن يكون قد اضطر اضطراراً إل التخلي عن منطقته التي تزخم الأنف ببوله المختلط بروائح النعناع المجفف واللحم المقدد والطماطم المتعفنة في دلاء

من الخشب تحترق فيها الشمس كأنما هي واقعة في بركة من الدم فتضاعف بذلك من شدة القيظ وتمطر حبالاً عمودية شبيهة بالنيران الدوارة الزاحفة في آن واحد.

أما مسعودة فتتربع في المجال الوحيد الذي سلم من الحريق الذي يشوي الأجساد وينفخها. وعندما ترفع أنفها عن صوفها وعن ذكرياتها المرتبطة في مجموعها برجالها الثلاثة، تنفجر بضحكتها قبالة القط المذعور، وتلاعبه، وتسخر منه وتثقل عليه بقولها: «يا لك من قط جبان... إنك تخاف من ظلك ولا تحتمل هذه الحرارة التي أعطانا الله إياها.. هيا.. أدخل إلى غرفتي واختف تحت سريري. لكن عليك أن تلزم الهدوء عند الأصيل.. وإياك أن تزعج طيور الكناريا.. إنني أحتفظ بها لمحمد عندما يخرج من السجن. يا لك من قط جبان... لم أر مثلك من قبل... أتسمع... لم تخلق الكناريا لكي يأكلها أمثالك من القطط. كلا! كلا! لقد خلقت لكي تغني، وتصنع موسيقى جميلة... هذا كل ما في الأمر.. وهو يقول بأنه يربي ببغاءين.. لعله يزعم ذلك لترضيتي ليس إلا... إنه طفل ودود.. لم يكتب إلي منذ ثلاثة أسابيع.. أتمنى ألا يكون مريضاً.. أخاف أن يسحره الفرنسيون.. يا لك من قط جبان.. هذا صحيح! لكنه لم يعد يكتب إلي..».

ظلت العزلة التي تلف السجين الجزائري وسجانه الأنتيلي على حالها منذ تنفيذ حكم الإعدام في سليمان المزدمة، وقد أصيب صوتاهما بالخواء وراح الصمت يحفر

بينهما أخاديد وسراديب تفضي إلى جمود علاقاتهما. كان نرسيس جالساً على دكة في عزلة صفيقة محرجة، بمرور الوقت، ووجهه يطول ويطول بفعل البداهة، ولما كان لا يستطيع التحدث مع صاحبه جعل يتأمل حركاته وسكناته وحدة نظراته التي لم تعد في حاجة إلى الكلمات لكي تهرب نحو الآفاق الواسعة من التفكير والحلم. وبمرور الزمن، وتدهور أحوال الببغاءين واصفرار صورة الرياضي ذي القدمين المجنحتين، خيل إلى حارس السجن أن صاحبه منشغل بالتأمل ليس إلا أو بإصلاح الصورة الداخلية التي كونها عن نفسه والتي تبقعت ببعض المضايقات منذ غياب سليمان، ذلك الغياب الذي جعله في سره موازياً إلى حد ما لتنصل «جو» المهندس. وتذكر في تلك اللحظة ذلك الشعور بالحزن الذي طغى عليه لأول مرة منذ أن التحق بالمنظمة وترأس هذا الفريق الفدائي الذي خصص له كامل وقته واختزن الأسلحة في أقبية المسجد حيث كان محروساً من قبل مديره الرهيب الذي يتعاون مع السلطات القمعية. وتذكر كيف أنه حلم أن يقتل مدير المسجد في عطفة من عطفات المحراب. لكن حلمه ذاك لم يتحقق لأن المنظمة قررت عكس ذلك لأسباب تعين عليه أن يجهلها. ذلك ما وشوشه في أذنه الرجل الحريري الذي يمضغ كلماته مضغاً ويسير بنفس الطريقة، ولا يكاد يقوى على التنصل من بذلته القديمة الرمادية مثل وجهه. وما كان نرسيس يتحرك من مكانه لأنه كان مأموراً بحراسته. ولكن بدلاً من أن يضطلع

بالحراسة خارج الزنزانة آثر أن يقوم بها من الداخل. وما كان هو يتوصل إلى كتابة رسائله إلى والدته. كان يحرر بعض السطور وسرعان ما يشطبها. لكنه يجيد إخفاء سأمه عن صاحبه. فكلما نظر إليه هذا بعينيه الخاليتين من أي تعبير، نتيجة لجهله بالموقف الذي يتعين عليه أن يتخذه، تلقى منه بسمة مصطنعة ورثها عن والدته المسكينة التي لم تعد تقوى، عند اشتداد القيظ، على تمييع نعاس طيور الكناريا. وكان معين هذه قد نضب وأقلعت عن جعجعتها لطول ما استنفدت معزوفات المستقبل. على أن ذلك كان من قبيل الصدفة، ولم تكن هناك أية علاقة بين فتور الطيور الصفراء التي أهداها إياها جيرانها عندما أنقذ ابنها رأسه وبين الحداد الذي فرضته غطرسة النزيل على ثرثرة الببغاءين. وأغرب ما في الأمر هو أنهما كانا يسهبان في حالتهما تلك من طول الصمت والجمود لشدة ما كانت الرموز المنتقلة بينهما بالغة الشفافية.. والواقع أنهما كانا يسمعان معاً نفس الموسيقى الموقعة على طقطقات عظام أمواتهما. لكن ما نسي واحد منهما أن أفريقيا البيضاء قد انتهبت واستعبدت بلدان السودان على حد تعبير المؤرخين العرب عندما يتحدثون عن أفريقيا السوداء. انقطع التوازن، لكن ما تجرأ أحد على فتح جبهة القتال. ولم يعمل تنفيذ حكم الإعدام في سليمان الزدمة إلا على إذكاء ما كان قائماً بينهما، وإن كان مخفياً في الأعماق، لأنهما من نفس القبيلة ولأن كل واحد منهما هو الوجه المقابل للآخر

والعكس بالعكس. غير أن الاثنين كانا على حال سيئة لا تسمح لهما بتبادل الخطب، ولا بالتعلل بالصراعات لإعادة تشكيل تاريخ القبيلة المشتركة التي كانت ستنقسم قسمين ولا تخرج من الخليط إلا لكي تقع في خليط آخر أصعب. كان ستالين يريد في واقع الأمر أن يتهمه هو، أي نرسيس، بأنه شريك في التقتيلات التي ارتكبتها الجماعة التي يعتبر جزءاً منها بل وأداة طيعة بين يديها. على أنه كان يعلم أن زعمه ذاك خاطىء. ورغبة منه في رفع هذه الشبهة، رغب أحياناً في إزاحة الستار الصيني الأسود الذي يغطي القفص التونسي، ذلك القفص الذي تحول إلى منطقة خاملة قبل أن يصير منطقة هامدة كل الهمود. لكنه وجد مثل هذا السلوك أمراً سهلاً. أراد أول ما أراد مجابهة كلامية حقيقية مع سجانه لكي يقول له صراحة إن الاثنين مسؤولان عن ذلك التعفن السياسي للتاريخ. غير أن سليمان الزدمة كان قد مات حقاً وصدقاً، وأرسلت عظامه إلى البلد في تابوت مختوم.. لذلك آثر تجنب أية مزايدة وأن ينتظر انتهاء الحداد من تلقاء ذاته. ولم يحتج إلى وقت طويل. فقد عزل الرجل الأسود من وظيفته تلك بسبب خطأ مهني. ولما لم يعد هناك من شخص ينظر إليه راح يمسح الغبار عن صورة التمثال البرونزي الأتروسكي ذي الوجه الملغز بقدر ما كان جسده معبراً مفصحاً كل الإفصاح عن الانتصار. وفي نفس اليوم، استرجع راية الحداد، وألصقها على الجدار بعد أن طرز عليها بالخطوط السميكة ذلك

الاسم المستعار الذي لا مفر منه: سليمان الزدمة. وفجأة، استعاد الببغاءان عادة الثرثرة وأقاما الدنيا وأقعداها بمناسبة تلك اللقيا حتى لقد شاع عنه في السجن أنه منع من الإضراب عن الجوع الذي قرره وأنه يغذى رغماً عنه. واستخدم مدير السجن سلطته لتهدئة ذلك الفوران الذي استبد بجميع المساجين مهما كان نوع الجنحة التي ارتكبوها. رفض النزول عند إرادة المدير وبدأ الصيام فعلاً. وقد وافق ذلك بداية شهر رمضان. وتلفظت الإدارة ببعض التهديدات والقذارات ذات الطابع التاريخي والمزاعم الإنسانية. لكنه هون من ذلك التقعر كله، وجعله أشبه ما يكون بعرض تهريجي مصبوغ بألوان هشة ناصلة وهي ألوان الانحلال التي تكشف عن تدهور الأمبراطوريات ونهايتها.

وبعد شهر، وعند ظهور الهلال، أوقف صيامه في الوقت الذي ما كانت إدارة السجن تنتظر منه ذلك أبداً. ولم يصمد زوج الببغاءين لذلك الاختيار العنيف. وإذا كان الذكر قد مات في الصباح فإن الأنثى انتظرت المساء الكئيب لكي ترفع مرساتها. ولم يبق له سوى الفائز بالكأس الذي راح يلمعه كل صباح بظهر يده. وعاد إلى تحرير رسائله إلى والدته لأنه كان عاجزاً عن التخلص من ذكرياته. كان له القليل منها فلماذا يبددها إذن؟ ودفعته ثرثرة أمه مسعودة ودقة الخط عند قريبه الصغير إلى أن يشغف من جديد بتاريخ حبه ومن ثم بتاريخ مدينته. بلده والعالم أجمع الذي يدركه في شموليته، وإن كان عاجزاً عن حصره لشدة

ما بدا غريباً نائياً يصله عبر روائح السجن وروائحه هو ورشحه الجسدي. لأنه يعلم أن السجن هو المكان المثالي الذي تتداخل فيه أقذر التواريخ وأشد المصائر إيلاماً. وإذا كان عمه العجوز الذي مات في الجبل لا يغادر زنزانته ولا يعمل إلا على مساعدته على تحمل متالين هذا الاسم المستعار الثقيل، فإن الباشاغا قد نصب خيمته كسيد إقطاعي كبير في قلب أحلامه اليومية. وسرعان ما نسي صديقه نرسيس الذي عاد إلى «بوانت أبيتر» وراح يمارس النضال السري. لم يعد له إذن ما يشغله بشأنه. أما والدته فقد استعادت قبعة طفولته التي غطت مدة طويلة رؤوس فزاعاتها والتي علقها، هو، هناك لاجتذاب أنظار الآنسة «بيريتي»، لم تحاول ترقيعها، لكنها جعلت منها ذخيرة يجيء جميع أهل الحي القصديري للمسها كلما حل بهم الشقاء.

12

تولوز: 6 ـ أنجي: 3

زرقة معسكر. خضرة النيل. زرقة تركيا. حمرة التراب. أقراص حمراء. نقاط سوداء. مجالات غير مستقيمة، ممفصلة. ورد بلون الدموع. صفرة أصفهان. زرقة الآفاق الأندلسية. سواد نهر الرمال. زرقة غرناطة وقرطبة. خضرة فاس ودمشق. أفنية المساجد التي زارها. التلميح إلى الرحلة. تمازج الحواس. مواقيت مضبوطة بدقة. الدقيقة التاسعة والثمانون. ثم يركز تفكيره، ورأسه بين يديه، ويسراه المخدرة قد غادرت جيب سترته وكف، هو، عن الضغط على المسدس الصغير كأنما يريد أن يسحق رأسه ويستخرج منه الحل الذي يمكنه من تنظيم عمليته وإعادة تشكيل المجال بصورة ناجعة سريعة لكن يمزق هذه الذكريات. تراكم مذهل من (طوابع بريدية حائلة من مسقط والمنامة وعدن والحجاز وبور سودان حيث توقف والده قبل أن يجد نفسه في خنادق «الأردين» اللزجة المبلطة بالحلزون والعلق البارد الزلق) ملصقات إشهارية ذات رسوم مثيرة، موحية، فاحشة، داعرة، مغرية، متباطئة، مموهة، ملونة،

مشققة، موشمة، مجروحة، مطبوعة، منطبعة، شامات حريرية على جسد آلين/ سيلين كأنما هي مكبرة بمجهر، محببة. مضغوطة، متشابكة، تشكل نسيجاً من دوائر مركزة صلبة يخيل إلى من يشاهدها أنها غلاف تنتثر خشونة نقاطه في اتجاه العرض لكي تغيب غياباً نهائياً تحت الفخذ وتظهر ثانية عند الركبة وعضلة الساق الرقيقة فتنقط البشرة المكلومة ذات الشعيرات المحلوقة أو المنتوفة أو المزغبة وتجعل منها امتدادات مجننة ملساء مرداء، وتغرقها بالعرق في الوقت الذي يصير فيه الاستذكار أمراً غير محتمل، وينزع المجال إلى التقلص، وتفيض الألوان، وتنحصر الكلمات داخل الحنجرة وتنتثر حبات المسبحة في الرئتين، وتنفتح أقراص الشمس بنفس الثبات (20,22)، وترن صفائح الصوت في الصدغين، وتسبح حصيات الضوء عبر الأجفان، ويرتفع حريف الأشواك تحت البشرة. الدقيقة التاسعة والثمانون. مخالب مشهرة، عضلات منتصبة، أصابع متشنجة، على أهبة إطلاق النار. لكن.. كيف؟ ثم يصغي إلى الأصوات وهي تتوقف، والصخب وهو يموت، والجعجعة وهي تتطامن، وتقفز ثانية، وتتطامن نهائياً مثل كرة من التنس منفوضة مغلفة بمطاط سميك، أي كأنه يستطيع أن يسمع الصمت وهو يخرج من ملايين الحناجر، ومن حنجرته هو بالذات قبل أن تتوقف الأصوات نهائياً، أو كأن المتفرجين، وهم يتابعون إرسال تشجيعاتهم، يدركون أنه من اللامجدي، بل ومن اللامعقول أن يواصلوا

صياحهم ذاك أو حتى أن يوشوشوا أو يغمغموا بكلمات صارت فاحشة بالقياس إلى ما يحدث في أرضية الملعب. ذلك أنه يخيل إليه أنه ما عاد أي لاعب يتحرك، وأنه ما من شيء يرتعش أو يتململ باستثناء النبض الخفيف لتلك الأزياء الحمراء الخفاقة في وجه الريح التي تذرع الملعب، المنشورة على أوتاد سوداء. ما عاد شيء يتحرك ما خلا تلك الخرق التي تبدو وكأنها مأخوذة بفوران مفاجئ، وذلك الرقم 7 ذو المعاني المتعددة، المستغلقة، السحرية منذ آلاف السنين، وعبر العديد من الحضارات، ذلك الرقم المحدود بخط خشن على ظهر إبراهيمي كأن جسده، هو، واقع تحت وطأة ذلك الانشداه، وتلك الحالة من الرعب، بل ومن التجمد الذي يغرقه شيئاً فشيئاً في الطين حيث تجمد أبوه نهائياً وإلى الأبد ولم يترك أثراً من الآثار يدل على عظامه حتى تستطيع مسعودة البكاء عليها أو تطرحها في أعماق حفرة، وتقيم عليها شاهداً، ويخيل إليها بذلك أنها أرملة حقيقية وليست أرملة مفترضة، ذلك أنها لم تتوافر أبداً على الدليل الملموس بأن زوجها قد مات. أما هو فكان مندهشاً، مكتوف اليدين، غارقاً في ذلك الصمت المداهم الغريب، مشكلاً في حد ذاته شبكة، أو على الأصح، تشبيكة، كأن هناك تراكماً جياشاً من الرموز الفارغة والأصوات الخالية من الصخب، والدوامات المغلقة الخرساء من لغة متطامنة تنسبح لحمتها في مستنقعات الموت المجمدة المحاصرة بالصقيع.

.. هكذا إذن؟ اللاعبون يبدون مسمرين في أماكنهم. الدقيقة التاسعة والثمانون. إبراهيمي رقم 7 فقط، هذا المسمى بالإستراتيجي والباشا، يندفع عبر مختلف العراقيل التي تظهر وأنها محجرة كأنما هي عاجزة عن إتيان أدنى حركة من الحركات. انطلق الظهير الأيمن التولوزي من قلب الملعب عبر غابة من التماثيل. ها هو يضايق «كوالسكي»، ويراوغ «باسكيني» الذي هب مسرعاً من اليسار، ويخادع «هناتو» ويواصل التقدم والكرة في قدمه، وقد عقد العزم على أن يحقق معجزة لوحده في حين أنه لم تبق إلا دقيقة واحدة في ساعتي. إبراهيمي ينسرب في أعماق المعسكر الخصم. لا ينظر إلى أحد. حقاً! إنها عزلة عداء المسافات الطويلة. يتقدم دائماً وأبداً. يفيض على اللاعبين كلهم ويبقى وجهاً لوجه مع حارس مرمى فريق أنجي. صمت كامل. لقد أطبق مثل غطاء على الملعب. الناس كلهم يتمالكون أنفاسهم. «فراجاسي» يتقدم. يغلق مرماه بساعديه الهائلين. إبراهيمي رابط الجأش، يراوغه إلى اليمين ويذهب نحو اليسار. يدخل قفص المرمى في حين أن فراجاسي منطرح أرضاً. إبراهيمي يتحرك حركات بطيئة ولا يقذف الكرة. بل يحطها في أعماق الشباك... هذا مذهل! إنه الهدف السادس! المتفرجون ينفجرون بعد أن تجمدوا كل التجمد، الناس كلهم متحجرون. الحكم هو الآخر يبدو وكأنه لا يفهم من الأمر شيئاً غير أن صفارته تبرم ما هو مبرم.

تولوز: 6 ـ أنجي: 3

قضي على فريق أنجي، ليست هذه نهاية مقابلة كروية بل هي ضربة قاضية، وصيحة الأمر المحتوم والموت النهائي. الجمهور واقف. يبدو وأنه يشعر ببعض الحرج بعد أن نفس عن فرحته. يكاد يكون محزوناً! حتى الأنصار المتعصبون لفريق أنجي يشعرون بالأسى. إبراهيمي وحده هناك، رائع، شرس، يسير بهدوء ليتخذ مكانه. ساعتي تشير إلى الدقيقة التسعين. استئناف اللعب. على سبيل الاحترام ليس إلا. لاعبو فريق أنجي يفقدون الشجاعة. لا يريدون حتى التظاهر باللعب. «تيزون» يقذف الكرة نحو منطقة التماس علناً. تماس لصالح تولوز يؤديه.. الحكم يصفر نهاية المقابلة. لن تكون الكأس من حظ «أنجي» على الرغم من صلوات قسيس «كولومب» بل الكأس تولوزرية وتولوزية حقاً! يا للمقابلة: سلسلة من الأهداف.. تسعة أهداف مسجلة، من بينها أربعة خلال الدقائق الست الأخيرة. يا للنهاية الرائعة! لم نشهد منذ مدة طويلة مثل هذا النهائي لنيل كأس فرنسا. المقابلة تنتهي إذن بالهدف السادس الذي سجله إبراهيمي بتحرك فردي رائع معطياً بذلك الضربة القاضية لفريق «والتر بريش» والنتيجة هي ستة أهداف مقابل ثلاثة لصالح فريق تولوز بطبيعة الحال..

لكنه هو ما توثب للمعجزة التي حققها ابن بلده بل انتهز فرصة الضوضاء لينزلق إلى جانب المنصة الرسمية. ولم يجد كبير صعوبة في ذلك لأن جميع الناس وقفوا وبدأ عدد كبير من المتفرجين يغادرون المدرجات. الرقم 91 يقرع رأسه 90 و1. إنها النهاية وبداية العد العكسي وتصفية الحسابات، غليان في الداخل. سكينة مطلقة في الخارج. ويشعر وهو في طريقه نحو الجدار الصغير الذي يفصل المنصة الشرفية عن المدرجات بوشوشة لا تدرك ولا تسمع وإن كانت ملحة كل الإلحاح تعقد نحو دماغه مثل النشيش الأزيز أو الاحتكاك، بل ومثل الكشط، ومن المؤكد أنها خليط من جميع تلك الأصوات المختلفة فيما بينها الصادرة في العادة عن تلك المواد الكيميائية المبهمة أو عن الاحتكاك بين عدد من الأجساد أو المحاليل القادرة على التخمر والتعفن والذوبان وعلى إفساد المادة. لكنها ليست إلا وشوشة داخلية أو انطباعاً ملصقاً بأمعائه وأحشائه ومن ثم فهي مختفية تحت طبقات بشرته وعضلاته وشحمه ومواده المتضاربة السائلة منها أو المعدنية. وفي اللحظة التي يصل فيها إلى الجدار الصغير يدرك أن المنصة قد أخليت إلى حد ما وأن لا أثر للباشاغا بها. ويحس فجأة بالإرهاق الذي تراكم طوال سنتين كاملتين يثقل على كاهليه. لقد أخفق إذن! ويغادر المدرجات صوب باب

الخروج ويلاحظ هناك أن مصالح الأمن تحول دون خروج المتفرجين. الشبابيك مغلقة. ويفهم من ذلك أن رئيس الجمهورية يغادر الملعب هناك على متن سيارته السوداء الفارهة التي يشاهد مؤخرتها وهي تنزلق بكل عظمة عبر الباب الرئيسي للملعب. لقد أخفق إذن! ولا يكاد يثور لذلك لشدة ما هو متمسك بتنفيذ حكم الإعدام الذي أصدرته المنظمة في حق الخائن. قال لنفسه إن الفرصة سوف تسنح له وأن العملية مؤجلة ليس إلا، وفي هذه اللحظة بالذات، تقع عيناه على الباشاغا وهو قادم نحوه مثل قدر مفكك تافه يغرقه ويأخذ بخناقه. ولا يكاد يصدق ما يراه. إنها هلوسة. لكنها هلوسة حقيقية. تتحرك. تسير. وتتبختر في برنوسها من الصوف الخالص. هلوسة مشفوعة بعدد من الحراس ويتعرف هو على عامل الشرطة الذي تنتشر صورته في جميع الصحف.. لا يتوصل إلى استذكار اسمه.. يكتفي بالقول بأن له اسماً يذكر بصوت صفارة السيارة. ما هو؟ هذا الأمر لا يهمه. الباشاغا يجيء إليه. يتقدم. إنها مسيرة محتومة. تتواتر الأشياء مثل فيلم من أفلام الرعب. تباطؤ مفاجىء. عندما يقع الباشاغا في بركة من الدم لا يشعر بأنه هو الذي أطلق النار بل شخص آخر، كامن في داخله، وراءه. ليس مخطئاً في ذلك، فقبل أن يطلق النار من جيب سترته ببضعة أعشار من الثانية، أبصر بالشخص الآخر، الثاني ـ الرجل الحريري ـ يبرز من العدم

أي من وسط الجمهور ويشير إليه بهزة من رأسه. في تلك اللحظة بالذات أطلق النار في الدقيقة الواحدة والتسعين إذا اتخذنا كمعيار على ذلك مدة المقابلة الكروية ما بين فريق تولوز وفريق أنجي. أما الباقي فقد انزلق بسرعة بالغة في دماغه. لم يشبه ولا كابوساً من الكوابيس، بل كان نوعاً من فيلم هزلي. ولم يدرك الجمهور بأن رجلاً قد أعدم لتوه. الشرطة تحدق بالجثة والمفتشون في أزيائهم المدنية ينهالون عليه في اللحظة التي يبصر فيها بظهر الرجل الحريري يغيب في الأفق عند مخرج الملعب. ها هو يطرح أرضاً ويمتطي ظهره عدد من الشرطة المحنقين حتى أنه لا يتلقى الضربات الموجهة له. وسمع في تلك اللحظة صوت عامل الشرطة: «لا تضربوه! أريده حياً! أريده حياً! أريده حياً!» لكن صوته ذاك لا يوقف فوران القتلة المؤهلين، بل يواصلون التململ والتحرك، لأن الأمر لم يبلغ مسامعهم بعد. إنه حي والآخر ميت. لقد صار شخصاً عادياً فقد عدوانيته وشراسته. وجعل يجتر نفس الشيء ويردد بأنه يشعر بالبرد. ويقول بأنه في حاجة إلى أن يؤتى له ببرنوسه الشتوي من وبر الجمل لأن الصقيع يسيطر على المقابر الفرنسية. ها هو منطرح إلى جانبه في العتمة تحت كتل الأجساد المتراصة، يحاول ضربه وربطه ووضع القيود في يديه، ويسمعه وهو يلفظ آخر أنفاسه. ويبصر بكتلة جسده ملفوفة في طبقات متعددة من الصوف الأبيض وهي ترتفع

وتتطامن، والهواء يدخل إليها ويخرج منها مثلما يحدث في منفاخ التاريخ بل وفي عهود ما قبل التاريخ على غرار تلك الأشياء التي رآها تخرج من الأرض حين كان طفلاً يلعب مع عصابة من أصحابه فوق أنقاض «هيبونة» الغارقة تحت مياه البحر حيث كان فريق من الأخصائيين يقوم بأبحاث أثرية بصورة دائمة ومنظمة: تماثيل ذات وجوه مفتتة مسامية إذا كانت مصنوعة من الخزف وتماثيل ممحية مشققة إذا كانت من البرونز بعيون فارغة كأنما هي محفورة في المادة، بِلا أنوف أو هي صارت مجرد خطوط مشطوبة.

أما الباشاغا فكان يتسمر في الموت الساكن الذي يغرقه وينتشر عبر قنواته المعقدة وأمعائه المتعفنة ويتشعب عبر جزئيات جسده ويتصادم ويتشابك ويتداخل. لكن عندما تنهزم البشرة وتنقطع الأنفاس ويتوقف الهواء دفعة واحدة تستمر ردود الفعل الحيوية وتتفتت بكل نهم في مواصلة دورتها الطبيعية ولا تريد أن تتوقف إلا بعد بضع ساعات عندما ترتج الضحية وتصير جثة شاحبة باردة وتنطفىء فقاقيع الدم الغازية المنفوخة الكريهة عندما تطفو على سطح الموت. ها قد أغلق عليهما معاً في نوع من القبة المصنوعة بأجساد الشرطة المتململة المتوفزة التي تحاول سحقه وشنقه وإبادته. لكنه هو لا يكاد يصاب بأدنى خدش أو جرح بل ينزلق في سواد اللامبالاة والسخرية إلى أن يصيح عامل الشرطة ثانية: «أريده حياً!». وفي هذه اللحظة

يتوقفون توقفاً نهائياً ويعيدونه إلى السطح، إلى هواء الغسق المزبد، ويفصلونه بذلك عن الموت ويقطعون الرباط النسيجي العضوي الذي ربط في جميع العهود ما بين الضحية وقاتلها إلى أن يغيب القاتل أو المجرم أو منفذ الحكم تبعاً للتسمية التي تطلق على المتهم أي حسب الظروف والأسباب والأهداف المنشودة والظروف المخففة أولاً، والحوادث العرضية أولاً، والدوافع السياسية إلخ... وعلى أية حال، فقد أدرك ستالين الأمر على وجه السرعة. ذلك أنه بمجرد إقفال الباب عليه في زنزانة سجن «فرين» حيث نام طيلة ثمانٍ وأربعين ساعة حلم لتوه بالباشاغا الذي دخل عليه الزنزانة متهكماً ساخراً وقال: «كان عليك أن تخطئني. كنت دفعت لك ثمناً غالياً عن تواطئك، ثم إن المنظمة ما كانت تدرك شيئاً من ذلك..» لكنه أجابه: «يا لك من باشاغا!.. إنك لم تفهم شيئاً عن هذا الخليط التاريخي، لكني أحبك كثيراً مع ذلك! أنت تشبه عمي العجوز عامل السكة الحديدية، ذلك الذي كان يصيح: يحيا ستالين! من هنا جاء اسمي المستعار». لكن الآخر يطمئن بعض الاطمئنان، ويتلطف شيئاً ما، ويفقد الحموضة التي صبغ بها وجهه، ويصطنع مسحة محابية، مضعضعة متهدلة، حانية: «غريب حقاً أن تختار اسماً مستعاراً مماثلاً.. إنه لا يلائمك.. أنت فتى لطيف.. ما كان عليك أن تختار هذا الاسم». ويرتعب هو ويتململ، بل

ويتأثر ويغمغم في حلمه مخاطباً نفسه: «هذا العجوز لم يفهم شيئاً من التاريخ.. ما الذي جاء يفعله في الملعب بنعليه الصحراويين الحمراوين المطرزين بخيوط التعنت والشطط؟».

صار الليل أسود بلون المداد، بالغ الصفاقة حينما ساقوه، مقيد اليدين إلى سجن «فرين». وقدر له أن يتحول إلى رقم استدلالي: 1122. ولم تكن زنزانته مكاناً في منظور الإدارة بل رقماً: 63. ولم يرد أن يرى في ذلك أدنى اتفاق مع المقابلة ولا أي رمز، لا هذا ولا ذاك. وحين علم بعد وقت طويل (من أعلمه بذلك على وجه التحديد؟ من المؤكد أنه ليس نرسيس..) إنه يشغل الأمكنة المسكونة بكوابيس «بيبرو لوفو» وبالأحلام الملائكية لذلك النازي العجوز الذي يعبر المرارة التاريخية متلمساً طريقه، بأصابع دقيقة أشبه بأصابع من يملك مجموعات نادرة من الفراشات، لم يشعر بأي اعتزاز أو كبرياء، أحس على العكس من ذلك بنوع من الارتياح لأن التاريخ هو الآخر شكل متكامل من أشكال الهزء والسخرية. واحتفظ بذكرى مقدمه إلى السجن وقد تنبأ في قرارة نفسه بالإنقلاب الذي يحدث فيه والانتقالات والوشوشات المتعاظمة عبر أرجائه. كان النزول بالسجن مدوياً لا بالنسبة لأعضاء المنظمة فحسب بل ولجميع السجناء الآخرين، وخاصة منهم أولئك الذين ارتكبوا جرائم غير مشرفة، واستعدوا دون وعي منهم

لكي يخلطوا بين ما أقدم عليه هو وبين ما ارتكبوه، رافعين أنفسهم بذلك إلى مرتبة ليست ميتافيزيقية ولا وجودية بل سياسية. وهم يذلك يقللون من عواقب جرائمهم، ويقلصون الكتلة الصفيقة للندم الذي يتآكلهم من الداخل ويشعرون نوعاً ما بالارتياح عندما يفكرون بأن في كل جريمة من الجرائم نصيباً ما من التقاعس واللامبالاة. ما كان ثائراً على تلك النظرة إلى الأشياء حسبما رواها له نرسيس لأنه كان سعيداً بأنه حين دخل تلك الدار الكئيبة جاء بنوع من الدفء والتسلية للمحكومين عليهم الذين ينتظرون أن يعفى عليهم أو أن يحدد لهم علناً موعد تنفيذ الحكم. كانت الساعة العاشرة ليلاً حينما عبر الساحة الصغيرة التي تحولت فيما بعد إلى إطلالته الوحيدة على العالم وعلى الطبيعة إلى أن جاءه نرسيس بالببغاءين على صينية طعام الصباح أو العشاء، ليس يدري بالضبط. وما أسرع ما تمسك بالشجرة الوحيدة التي تزين المجال الصغير الحزين المرصف بحجارة عتيقة تعود إلى العصر الوسيط. كانت شجرة أكاسيا تغمرها أضواء الكاشفات من حي السجناء الموضوع تحت الحراسة المشددة. وعلى الرغم من ذلك الانطباع السريالي الحاد الذي يبرز من الضوء الأبيض المصوب إلى الشجرة المتينة النابضة بالحياة، فإنه وجد ذلك كله صميمياً بالغ الصميمية. كانت المرة الوحيدة التي لاحظ فيها أن شجرة الأكاسيا مضاءة بتلك الطريقة، وفيما عدا ذلك ما كان يراها إلا

خلال النهار. لمدة نصف ساعة في الصباح ونصف ساعة بعد الظهر، عارية في الشتاء، متفرعة بغصونها في الصيف، مجنونة في الربيع ومريضة في الخريف ببقعاتها الشقراء وصفائحها المصفرة التي تعلن عن اقتراب الصقيع والانكماش. عندما عبر الساحة الصغيرة لأول مرة حوالي الساعة العاشرة ليلاً من يوم الاثنين 27 ماي 1957 بدت له الأوراق الإهليلجية مفصولة عن أغصانها كأنما طليت بخضرة زاهية وقد تدرج هذا اللون فصار غامقاً ناحية الجدار الذي ألقى بظلاله الصفيقة عليها وكسر حدة ضوء الكاشفات فلم تبلغ تلك الجهة ولم تنرها لا قليلاً ولا كثيراً. وتشابك ذلك كله ضمن خليط مفروم بسبب انتشار الظل الذي بلغ ذروته ثم انقطع فجأة بحدة الأشعة الواردة من الأضواء الكاشفة. وخلال مدة احتجازه كلها عاش مع ذكرى ذلك الطباق النباتي والنفسي في آن واحد، وربما عاد ذلك إلى وشوشة مبهمة بلغت أذنيه حين مر بالقرب من الظل مثل نوع من النبض المنتشر شيئاً فشيئاً تحت تأثير النسيم الخفيف لكي يتوقف تدريجياً وينتهي به الأمر إلى همود تام عندما تأتي الأوراق لتتكسر على الجدار الصفيق المرغون المقشر المخضر ببقعه المتراصة والتي تسمح له دوائرها المركزة بقضاء دقائق عديدة من التجلي الحقيقي ملتفاً حول كرة التعاريج البالغة الصفرة التي يعبرها بذهنه لكي يغرق في الملذات الحسية الغليظة النابعة من التأمل

وحيث تلتقي كل نقطة بأخرى. إنه عالم خيالي لانهائي يفضي إليه كل شيء ويلتحق به وينغمس فيه إلى حد الهذيان إلى درجة أنه يسارع إلى التقاط الصحف التي يأخذها لكي يقرأها في مكان مشمس ويسير طولاً وعرضاً ويحسب آلياً عدد الخطوات في ظرف نصف ساعة من الزمن فجأة أو يحاصر بصفارة الحراس الذين يريدون أداء أعمالهم بصورة قانونية. وحين يعود إلى زنزانته المعزولة كل العزلة، والصحف تحت إبطه يفكر دائماً وأبداً في تلك الصحيفة اليومية المثيرة المؤرخة بيوم 27 ماي 1957 والتي ينتشر عنوانها على طول مساحة الصفحة الأولى..

اغتيال صديق آخر من أصدقاء فرنسا. إرهابي يقتل الباشاغا محمد شكال في ملعب كولومب حيث جرت المقابلة النهائية لنيل كأس فرنسا. (انظر في الصفحات 6 و7 و8 و9 مقالات القسم الرياضي).

...وقال في نفسه سوف ينفذ حكم الإعدام في صديق آخر من أصدقاء فرنسا هنا أو هناك في البلد، ما وراء «الماري» مثلما كان الرومان يسمون البحر الأبيض المتوسط وقال سوف تدرج عناوين أخرى من هذا النوع أو أقل أهمية منها داخل الصفحات. وأعمل فكره خلال تلك اللحظة الأولى التي قضاها على مطرحه قبل أن يغرق في نوع من الغيبوبة التي دامت ثماني وأربعين ساعة وسط العتمة الحائلة المتساقطة من السقف أو وسط النور الكابي

وتساءل عن مقدار المداد الذي سوف يستخدم خلال سنوات حرب التحرير ـ تلك الحرب التي ما كان يقوى بينه وبين نفسه على تحديد مدتها بالضبط ـ لطباعة أوراق الصحف والمجلات والكتب وتقارير الشرطة وتقارير الأطباء الشرعيين. بل وفكر في جداول الدم التي سوف تستمر في التدفق للوصول في آخر المطاف إلى تسوية وفقاً لما قررته المنظمة وحددته واقترحته في بيان أول نوفمبر 1954، ذلك البيان الذي أضحك المعمرين والسلطات العسكرية التي عجزت عن التخيل والتصور بل والتفكير ولو لمدة ثانية واحدة بأن شعباً من المقملين سوف يذيقها الأمرين.

ثم أنه أفاق بعد يومين من الغيبوبة التامة، شاعراً بالراحة والخفة، مرتاح البال والجسد وتلمس عضلاته فلاحظ أنه في لياقة بدنية جيدة على الرغم من أصداء الملعب المتقطعة التي تغزو تلك الأماكن الضيقة، مرتفعة متطامنة تبعاً لنوعية اللعب. ولم يفكر في المقابلة بل في الباشاغا المسكين الذي سحقته مراوح التاريخ، وفي جسده الساكن المطروح على أنقاض ذكرياته المغبشة، المحايد، المنذهل كأنما هو شخص ينتظر شيئاً ما عن بعد، بكل تأدب بل وبمجاملة مفرطة (على غرار الخدم الذين يبدون وكأنهم مقدودون من رخام الفندق الفخم الذي وضع فيه سليمان الزدمة باقة من الزهور الغالية، من ورود الباكارا أو شيراز، وأدرج فيها قنبلة مؤقتة انفجرت فيما بعد فخربت الفندق بأكمله وقد

اطلع هو على الخبر في جريدة من جرائد البلد سنة 1955 قبل مجيئه إلى هذه المدينة المتفرعة:

قنبلة إجرامية تهدم فندق «بالاس» بأكمله: حوالي مائة ضحية ما بين قتلى وجرحى في حالة بالغة الخطورة.

.. يقف الخدم مباعدين بينهم وبين النزلاء، معقدين مخادعين، مجاملين، ماكرين كأنهم يخشون الاقتراب كثيراً من هؤلاء المسنين البدينين المنقرسين، المشاكسين أو من تلك الأفراس العجفاء ذوات القبعات المشابهة لبواخر طائرة كالتي تتحدث عنها روايات العلم الخيالي. بل ولعل هؤلاء الخدم يخافون أن يصابوا بعدوى الأمراض المبهمة، لذلك فهم يقفون رشيقي القوام، طيعين، معطرين، مباعدين بينهم وبين هؤلاء الممثلين الحمقى الأجلاف الذين يحنون كل الحنان إلى المعمرين، مع أنهم ليسوا إلا ممثلين موسوسين جشعين، تواقين إلى المصالح المالية الكبرى والأمجاد الباطلة، لهذه الأمم المتحضرة الملطخة بدماء أبنائها خلال الحروب التي دارت فيما بينها أو في الحروب الإبادية التي تشنها ضد الشعوب المستعمرة. على أن هذه الشعوب لم تعد تقوى على مجابهتها فحسب بل وعلى إضعافها والتحرش بها حتى في عقر مدائنها العملاقية وإفراغها من دمها ومناوشتها إلى حد إخضاعها ودفعها إلى إلقاء المنشفة تماماً مثل ملاكم مغرور ردد قبل المقابلة بأنه سوف يسحق خصمه خلال الجولة الأولى ولكنه حين يراه يقاوم ويكيل

الصاع صاعين ينتهي به الأمر إلى الانهزام لا لأن الخصم أقوى منه أو أشد مكراً منه بل لأنه ضحية للمفاجأة التي خلقها بنفسه، تلك المفاجأة التي تتحول إلى يأس كلما ارتفعت شارة الانطلاق معلنة عن جولة جديدة. لكن ها هو الباشاغا بدون حراك، خالي الوفاض، محاط بهذه العزلة التي كدستها قبيلته خلال قرون طويلة من الهزائم، والحرائق، والمجاعات والأوبئة والاستغلال. وها هو قد بدأ يتفسخ أو يتفتت وينشرخ بسرعة خارقة لكأن الصقيع الذي شكا منه خلال الكوابيس التي انتابته في أحلامه هو كسجين رقم 1122/ 63 ـ لكأن هذا الصقيع ـ الذي تجمع في المقابر الفرنسية يقف عاجزاً أمام جذام الزمن، وطينه، وجربه، ورواسبه ونباتاته ومعادنه ودوده، أو لكأن المادة الموجودة تحت طبقة الرخام في قبره الرمادي المصقول بالأنواء وبدموع أرملته وولده الوحيد الذي حضر المحاكمة ـ لكأن هذه المادة ـ تتحرك هي الأخرى وتسعى سعياً حثيثاً إلى إتلافه وتحطيمه وتشويهه في جو من الاستنفار بحيث أنه لم يبق شيء من تلك الجثث الموضوعة بكل ما يقتضيه العرف من عناية داخل الأكفان الحريرية والغياب النهائي المحتوم في بطن الأرض ـ لم يبق ـ سوى غطاء وهمي، هيكل باهت، أو خط دقيق من العظام الشفافة الملأى بزبد الفراغ والموت والدمار، أو أثر دقيق جداً، إلى أن تصير الجثة منفوشة بالغة الهشاشة فتتفكك وتتهاوى

وتنشرخ مثل خشب طحنه البق طحناً ونهشه الدود الدؤوب فأحدث فيه شقوقاً وفتحات، وخطوطاً وانشراخات وفتته عن آخره. . قال في نفسه وسوف يعدم آخرون من أمثال الباشاغا. وشاة بائسون. خونة لجميع القضايا. كولونيلات متوجون بالزبرجد. جنرالات صنعوا في أماكن أخرى وإن كانوا متعنتين لا يسمعون هدير التاريخ، وقد امتلأت أفواههم بأحجار كريمة يعمدون بها مذابحهم المنظمة المخططة المسجلة في الجذاذات وفي بطاقات القيادة العامة على شفا الجحيم والفناء النهائي. سياسيون ثرثارون بدينون مثل «برتي» لا يتوقفون عن الكلام، حثالات تنط على الحبلين، أناس ينطوون على نوايا حسنة لكنهم يتهاوون في اللحظة الحاسمة مثل ذلك الرجل الأول: «جو» الوسيم، المهندس، المتعالم، البوليتكنيكي. فنادق فخمة مبقورة ينطرح تحت أنقاضها مئات القتلى والجرحى البريئين في أغلبيتهم، وإن كانوا قد وجدوا في زحمة الحركات الثورية أو التمردية مثل الطفلة الصغيرة التي ارتمت بين ساقي سليمان الزدمة ونقش اسمها بعد ذلك بأحرف كبيرة على جدار زنزانته قبالة سريره (روز)، تلك الطفلة التي استبدت ذكراها بذهنه أكثر مما شغلته المقصلة التي فصلت جسده بطريقة مزرية. قطارات تنفجر فوق الألغام وتنقلب بين الأنفاق والمهاوي، مثل دود اليساريع المتقطع المفصول عن بعضه البعض بصورة فجائية المتدحرج في الهواء غاية

التدحرج ويكون حينها أشبه بكتلة متماسكة من العجين الرخو المنتفخ بخميرة الزمن. حافلات مخروقة بالرصاص، تتفكك عناصرها تفككاً فوضوياً، وتطير قطع غيارها وتنفصل أطراف راكبيها انفصالاً. مواكب من الدوريات التي تقع في كمين من الكمائن دون أن تدري شيئاً عن المنطق المدقق وراء ذلك كله.. وسوف يعدم آخرون...

اغتيال صديق آخر من أصدقاء فرنسا. الباشاغا محمد شكال يسقط تحت ضربات قاتل في ملعب كولومب حيث جرت مقابلة النهائي لكـــــ...

ثم يعود بخياله إلى الحي القصديري الذي لم يعد يمتلك صورة واضحة عنه، أي صورة مرئية، بل صورة تقوم على حاسة الشم وحدها. فالنسيم عندما يهب صوب ذلك المجمع من البناءات الغريبة الصدئة يأتي من جهتين مختلفتين: البحر والنهر، ويزيد من حدة الروائح الصفيقة، روائح الزيت المتعفن، والبالوعات، والسمك المقلي المعطوب، والبول الجاري على الساحة المفرومة المتشابكة المعبدة بالزفت المدقوق، والرمل والحصى وصفائح الحديد، والقاذورات والخضراوات المتعفنة والفواكه الحامضة، واللحم المقدد الميبس بالملح الذي يتآكله ويعفنه، الزبالات التي يقذفها البحر ويلتقطها الأطفال ويضعونها في علب الألومنيوم ليلعبوا بها أو ليأكلوها في بعض الأحيان، والقيء الفاتر المحمض بالكحول المغطى

بالنخالة أمام الحانة الوحيدة في الحي القصديري، والمياه الطينية الراكدة، والبراز المصفر، وسمك المورة المملح المنشور على حبال تتشابك في الأزقة، والسردين النتن المخلل، والشحم الزنخ، والأنقاض التي تتعفن تحتها قطط ملفوظة الأحشاء بعد أن بقرها مجنون عجوز كان ملاحاً في سابق الزمن، ذو مسحة سوداء، يختلف إلى ضفاف نهر السيبوس في صمت، وإلى الأماكن المغلقة الفقيرة الراشحة بالبؤس والعرق وبروائح الجثث و...

قنبلة إجرامية تهدم فندق بالاس بأكمله: حوالي مائة...

بعطر أو على الأصح، برائحة مسعودة أمه ذات الخدين الأملسين البيضاوين اللذين يذكرانه بفناء جامع دمشق الواسع المزين بالنقوش وبقبابه العديدة، وبرائحة بشرتها هي إذن، حين تكتب إليه قائلة: ابني العزيز، إياك أن تصدق أنني لا أفكر فيك، ولكن بقدوم شهر أكتوبر، ذهب ابن عمك إلى العاصمة ـ قسنطينة هي العاصمة في مفهومها ـ وهو لا يعود إلى البيت إلا مرة واحدة في الشهر. لا أثق إلا فيه. هذا الصغير يعرف كيف ينصت وهو من الذكاء إلى حد أنه قبل في الثانوية الفرنسية الإسلامية. هذا أمر كبير كما تعلم. لست أدري إذا ما كان يكتب لك جميع الكلمات التي أمليها عليه لكنه يبدو لي مركزاً وجاداً لذلك فأنا لا أخاف شيئاً من هذا الجانب. ثم إنه إلى جانب ذلك هو الوحيد القادر على أن يخط جميع هذه الحكايات

التافهة التي أرويها لك. كان مثلك تلميذاً عند «سي موسى» الذي مات بعد رحيلك مباشرة وترك فراغاً كبيراً في الحي لأنه لا يوجد شخص آخر لكتابة الرسائل ونقش الطلسمات ورسم رموز الخصوبة وإيجاد صيغ لتكديس الحروز المعروفة التي ما كان يستغني عنها خالك الشيوعي نفسه. . هذا يعني. . ألمهم هو أننا على أحسن حال. الحرب متواصلة لكننا تعودنا عليها. مطر فاتر يتساقط في هذه اللحظة التي أملي فيها هذه الكلمات على ابن عمك الصغير (ويتخيل المطر وهو يتساقط مدراراً، رقيقاً، بلا صخب، مبللاً الحمر الصغيرة التي ترعى على ضفة السيبوس، وقمصان المارة، مظهراً الأجساد النحيفة كل النحافة، حافراً أخاديد على طول الأزقة، مشكلاً بركاً راكدة، راشاً طيور الكناريا التي أهداها لها الجيران للاحتفاء بنجاة ابنها ولإشاعة المرح في حياة والدته، ملوناً المدينة الأوروبية التي صارت أشبه بمساحة مصقولة ممدودة تمتد تحت البلل، نحو آفاق مموهة، كأنما هي ديكور سينما من الورق العجيني، ولكنه ديكور موجز، بالغ الفوضوية، غير أفقي بما فيه الكفاية لكي يمثل مدينة حقيقية تحتفظ بهذا الخليط الذي عرفه عنها في مختلف الأوقات والمواسم، سواء أمطرت السماء أم هبت الريح العجاج المعروفة بهذه المدينة الرتيبة كل الرتابة على الرغم من محاولات الأوروبيين المقنعة لجعلها مرحة محببة وبث الموسيقى فيها بواسطة

ذلك الكشك الموسيقي الذي تقع عليه الأنظار في جميع البطاقات البريدية لكأن الأمر يتعلق بتحفة معمارية حقيقية بنخيلها ذي الجذوع المطلية بالجير كل سنة باقتراب شهر ماي وبأفنية مقاهيها ذات الطابع الفلكلوري الذي قد يعود إلى طغيان روائح اليانسون، وتحليقات الذباب مثلما يظهر ذلك في أفلام رديئة من الأفلام الاستعمارية ومن أفلام المخرجين الأجانب الذين جعلوا من المدينة ومن أرباضها مجرد ديكور دائم مبهم وغالوا في الأمر إلى أن حولوا البلد بأكمله إلى استوديو طبيعي لسينما رديئة غريبة كل الغرابة بسبب ضيائها الذي قيل عنه بأنه نسيج وحده عبر العالم بل وقيل عنه بأنه أفضل من ضياء كاليفورنيا. فهذه المدينة مبنية وفقاً لنفس التصميم وهي مغبرة، منفوخة، مغرورة وتافهة، ينسحق فيها الحلم بالقناطير المقنطرة على الرغم من مينائها الذي يخيل إلى الناظر إليه أن رساماً فلكلورياً رسمه بالفحم، وبواخره الجامدة العتيقة التي لا تقوى على أكثر من الظهور في مشهد من عرائس الكاراكوز دون أي طموح. إنها مدينة مشوهة، مفتتة، ذابلة، مغلقة محاصرة بالعشرات من الأحياء القصديرية التي تقوم حواليها بمثابة أسوار لم تنبت فيها أبداً) أما الدجاج فسوف يصاب بداء الربو الرئوي لأن الموسم بدأ يهدد بالرطوبة وبهطول أمطار غزيرة. يا للغرابة! لقد ذهبت إذن إلى ذلك الملعب لكي تصبح بطلاً... جاءني ابن جارتي بالحلويات يوم أمس

وتأخر عندي أكثر من المعتاد. وعندما ذهب، أدركت أنه سوف يقلدك.. لا يتجاوز الرابعة عشرة.. لكنني، ولأول مرة في حياتي، لم أندب حظ أمه ولا حظ امرأة أخرى.. وقبل أن يغادرني ذكر لي جملة لم أدرك مغزاها تماماً وأريد أن تشرحها لي في رسالتك القادمة: «على أية حال.. ابنك هو الفائز الحقيقي بالكأس..».

المحتويات

كتب أخرى للمؤلف

من أجل إغلاق نوافذ الحلم، 1981، (شعر).
ألف وعام من الحنين، 1981، (رواية).
الإنكار، 1984، (رواية).
الرّعن، 1984، (رواية).
يوميات فلسطينية، (يوميات).
طبوغرافية مثالية لاعتداء موصوف، 1983، (رواية).
الإرائة، 1983، (رواية).
الحلزون العنيد، 1984، (رواية).
التفكك، (رواية).
المرث، 1984، (رواية).
لقاح، 1983، (شعر).
يوميات امرأة آرق، 1985، (رواية).
معركة الزقاق، 1986، (رواية).
فوضى الأشياء، 1990، (رواية).
حقد الـ FIS، (مراسلات).
تيميمون، 1994، (رواية).
رسائل من الجزائر (بيان).
الشرق في الفن التشكيلي، (دراسة).
واقعة اغتيال ياماها بعد فوز الـ CRB، (رواية).
الانبهار، (رواية).

■ صدرت هذه الكتب جميعها في طبعة جديدة عن المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار (ANEP) عام 2003.



الطـبــاعــة :
المطبــعة الحــديثــة للفــنون المطبعــية
17، نـــهج فــروخي مصطفى - الجــزائر

رشيد بوجدرة

الأحد 26 ماي 1957، فدائي جزائري يقضي على عميل أثناء مباراة نهائي كأس فرانسا. وهكذا فإن التاريخ الذي تكتبه الذاتية والصدفة، تصنعه أيضاً بطولة مجهولة لشخص تجاوزه قدره الخاص.

Maquette Badia Maïdat

N° ISBN 9961-756-11-8
N° Dépôt légal: 827-2002